المعجَزة
أو
سُبات العَقل في الإسلام

جورج طرابيشي

دار الساقي

رابطة العقلانيين العرب

المعجزة

أو

سبات العقل في الإسلام

من مؤلفات جورج طرابيشي عن دار الساقي

- **من النهضة إلى الردّة: تمزقات الثقافة العربية في عصر العولمة**، ٢٠٠٠.
- **نظرية العقل: نقد نقد العقل العربي (١)**، طبعة ثانية، ١٩٩٩.
- **إشكاليات العقل العربي: نقد نقد العقل العربي (٢)**، ١٩٩٨؛ الطبعة الثانية، ٢٠٠٢.
- **وحدة العقل العربي الإسلامي: نقد نقد العقل العربي (٣)**، ٢٠٠٢.
- **العقل المستقيل في الإسلام؟ نقد نقد العقل العربي (٤)**، ٢٠٠٤.
- **مصائر الفلسفة بين المسيحية والإسلام**، دار الساقي، ١٩٩٨.
- **مذبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة** (طبعة ثانية)، ٢٠٠٦.
- **هرطقات: عن الديموقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية**، طبعة ثانية، ٢٠٠٨.
- **هرطقات ٢: عن العلمانية كإشكالية إسلامية - إسلامية**، ٢٠٠٨.

باللغة الإنكليزية:

- **Woman Against Her Sex: A Critique of Nawal El-Saadawi,** Saqi Books, 1989.

* * *

عن دار بترا

- **المرض بالغرب: التحليل النفسي لعصاب جماعي**، دمشق، ٢٠٠٥.
- **ازدواجية العقل، دراسة تحليلية نفسية لكتابات حسن حنفي**، دمشق، ٢٠٠٥.

تصميم الغلاف: ماريا شعيب

جورج طرابيشي

المعجزة
أو
سبات العقل في الإسلام

دار الساقي
DAR AL SAQI

رابطة العقلانيين العرب

© دار الساقي
بالاشتراك مع
رابطة العقلانيين العرب
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠٠٨

ISBN 978-1-85516-038-5

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

رابطة العقلانيين العرب
e-mail: arabrationalists@yahoo.fr

المحتويات

«نعوذ بالله من سبات العقل»

الإمام علي بن أبي طالب

شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد.

تقديم

هل يصلح «حصان طروادة» لتفسير ظاهرة استقالة العقل في الإسلام؟

بعبارة أخرى، هل يمكن ردّ أفول العقلانية العربية الإسلامية إلى غزو خارجي من قبل جحافل اللامعقول من هرمسية وغنّوصية وعرفان «مشرقي» وفلسفة باطنية وتصوّف إشراقي وسائر تيّارات «الموروث القديم» التي كانت تشكل بمجموعها «الآخر» بالنسبة إلى الإسلام والتي اكتسحت تدريجياً، وبصورة مستترة، ساحة العقل العربي الإسلامي حتى أخرجته عن مداره وأدخلته في ليل عصر الانحطاط الطويل؟ أم أن استقالة هذا العقل ما جاءت بعامل خارجي، ولا تقبل بالتالي التعليق على مشجب الغير، لأنها في الأساس مأساة داخلية ومحكومة بآليات ذاتية، يتحمل فيها العقل العربي الإسلامي مسؤولية إقالة نفسه بنفسه؟

في الإجابة عن هذا السؤال كنا أصدرنا المجلّد الرابع من **نقد العقل العربي** تحت عنوان «**العقل المستقيل في الإسلام؟**»، وفيه نفينا أن تكون استقالة العقل في الإسلام قد تمّت من جراء غزو خارجي، كما تذهب إليه فرضية محمد عابد الجابري، وتعهدنا بإصدار مجلد خامس وأخير نُبرز فيه دور **الذات**، لا **الغير**، في هذه الاستقالة.

والحال أننا، في سياق هذا البحث عن العوامل الذاتية لأفول العقلانية العربية الإسلامية، وجدنا أنفسنا أمام عامل لامتوقّع: **المعجزة ومنطق المعجزة**

في الموروث العربي الإسلامي. عامل غائب كل الغياب عن شبكة القراءة الجابرية ذات المنزع «البرّاني» في التعليل، ولكنه حاضر كل الحضور في مأساة سقوط العقل العربي الإسلامي من داخله. ولهذا، ومن دون انتظار لاستكمال المجلد الخامس والأخير من **نقد نقد العقل العربي**، رأينا استباقه بإصدار هذه الدراسة عن المعجزة في الإسلام. وهي دراسة قائمة بذاتها كما سيتبين القارئ، وإن لم تكن منقطعة الصلة بمشروعنا الأوسع النقد- نقدي.

ج. ط

الفصل الأول

نبيّ بلا معجزة

الآيات، بمعنى المعجزات، هي عنوان لمحاورة **مركزية** في الخطاب القرآني، وإن كانت منبثّة انبثاثاً في عشرات من سور النص القرآني. الطرفان الرئيسيان في هذه المحاورة اثنان لا ثالث لهما: اللّه من جهة أولى، والمشكّكون أو المتشكِّكون في رسالة رسوله من المشركين ومن أهل الكتاب، سواء أفي مكة أم في المدينة، من جهة ثانية. أما الرسول نفسه فهو موضوع وليس ذاتاً لهذه المحاورة: فهو مجرّد وسيط أو ترجمان، وفي الغالب مأمور من مرسله بفعل القول: «قل».

أما موضوع المحاورة فواحد لا يتبدّل، وإن تنوعت أشكال إخراجه. فالمشركون والكتابيون يطالبون الرسول بإتيانهم بآية تثبت مصداقية رسالته، والرسول يُحيل طلبهم إلى اللّه لأن الآيات هي من اختصاصه وحده، واللّه يردّ هذا الطلب مثنى **وثلاثَ ورباعَ**، وبحجج متماثلة تتكرر هي أيضاً **مثنى وثلاثَ ورباعَ**.

نموذج هذه المحاورة تقدّمه لنا الآية السابعة والثلاثون من سورة الأنعام: ﴿وقالوا لولا نُزِّل عليه آية من ربه، قل إن اللّه قادر على أن ينزِّل آية، ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾.

وكذلك الآية العشرون من سورة يونس: ﴿ويقولون لولا أُنزل عليه آية من ربّه، فقل إنما الغيب للّه، فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾.

والآية التاسعة والأربعون من سورة العنكبوت: ﴿وقالوا لولا أُنزل عليه آيات من ربّه، قل إنما الآيات عند اللّه، وإنما أنا نذير مبين﴾.

وفي بعض الآيات يختفي فعل الأمر: «قل» لفظاً، ولكنه يبقى مضمراً بالمعنى، كما في الآية السابعة من سورة الرعد: ﴿ويقول الذين كفروا لولا أُنزل عليه آية من ربّه، إنما أنت منذر، ولكل قوم هادٍ﴾.

وفي بعض الآيات يتحوّل الرسول نفسه إلى طالب آية، وهذا ليس فقط رغبة منه في تسهيل مهمّته في إقناع اللامقتنعين برسالته، بل أيضاً ـ وهذا أبلغ دلالة ـ تعبيراً عن شكوكه هو نفسه إزاء صمت اللّه، وإزاء النصاب الذي خصّه به دون سائر الأنبياء: **نبيّ بلا معجزة**. وهكذا فإن الآية الخامسة والثلاثين من سورة الأنعام تستكبر على الرسول أن يكون قد كبُر عليه إعراضُ المعرضين عنه وأن يكون منّى نفسه بأن يأتي من عنده بمعجزة تسدّ مسدّ المعجزة التي يضنّ بها اللّه عليه: ﴿وإن كان كبُر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلّماً في السماء فتأتيهم بآية، ولو شاء اللّه لجمعهم على الهدى، فلا تكوننّ من الجاهلين﴾. كما أن الآية الثانية عشرة من سورة هود تحذره من أن يضيق صدره ويترك بعض ما ينزل إليه ما دام غير معضود بآية: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك، إنما أنت نذير، واللّه على كل شيء وكيل﴾. أما الآيتان الرابعة والتسعون والخامسة والتسعون من سورة يونس فتذهبان إلى أبعد من ذلك إذ **تتوعدان الرسول نفسه بأن يكون من الخاسرين إذا امترى وانتابته الشكوك في ما أنزل إليه لمجرد أن ما أنزل إليه ليس مسنوداً بمعجزة** على خلاف واقع الحال مع من خلا قبله من الرسل والأنبياء: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فسئل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾.

والواقع أنه خلافاً للصورة المتداولة في أدبيات السيرة اللاحقة عن عنت

مشركي مكة في قبول الدعوة، فإن الصورة التي تقدمها عنهم السور القرآنية المعنية ليست صورة رافضين للدعوة أو مقاومين عتاة لها بقدر ما هي صورة **طالبين للمعجزة** ، أو بالأحرى **لبرهان المعجزة**، كيما يؤمنوا. وهكذا تترى الآيات: ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا اللّه أو تأتينا آية﴾ (البقرة/ ١١٨)، ﴿وأقسموا باللّه جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننّ بها﴾ (الأنعام/ ١٠٩)، ﴿قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل اللّه﴾ (الأنعام/ ١٢٤)، ﴿وقالوا لولا يأتينا بآية من ربّه﴾ (طه/ ١٣٣)، ﴿فليأتنا بآية كما أُرسل الأولون﴾ (الأنبياء/ ٥)، ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربّه﴾ (العنكبوت/ ٥٠).

وإذا كانت عديدة هي الآيات التي يُطالب فيها الرسول بمعجزة، بأي معجزة كانت دونما تحديد لطبيعتها، فمعدودة هي الآيات التي يُطالب فيها بمعجزة محدودة، كالآية التي تقدم ذكرها من سورة هود: ﴿لولا أنزل عليه كنز﴾، أو كالآية الثامنة من سورة الفرقان: ﴿لولا . . . يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها﴾. ولئن يكن مطلب معجزة الكنز أو جنة الطعام يعكس عقلية مشركي المجتمع المكي من حيث هو مجتمع تجارة ومجتمع قلة في آن معاً[(١)]، فإن المعجزة التي يطالب بها الكتابيّون من اليهود والنصارى هي من طبيعة لاهوتية بالأحرى. ومن هذا القبيل مطلبهم، كبرهان على صدق رسالة الرسول، بأن ينزل عليه القرآن دفعة واحدة ـ لا مُنجَّماً ـ كما نزلت التوراة على موسى في جبل سيناء، أو أن ينزل في قرطاس كقرطاس الأناجيل[(٢)].

(١) تقدّم كتب السيرة تفصيلاً إضافياً عن الطبيعة المادية لمطالب المكّيين من محمد، فتذكر أن الوفد الذي شكلوه لمفاوضته على نبوته قد طالبه في ما طالبه: «قد علمت يا محمد أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا. فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك فليسيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا وليجرِ فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق» (الواحدي: **أسباب النزول**، ص ٢٢٢).

(٢) الإسراء : ١٠٦، والأنعام: ٧.

وحتى عندما كان الكتابيون يطالبون بمعجزة «مادية»، فقد كانوا يطالبون بها على منوال معجزات موسى وعيسى من تفجير النبع من الصخر أو الارتقاء في السماء، على نحو ما توضحه الآيات ٩٠ ـ ٩٣ من سورة الإسراء: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾. وإزاء جميع هذه المطالب كان رد الرسول دائماً واحداً لا يتغير: **إنّ المعجزات ليست بيده بل بيد اللّه، وإنْ هو إلا بشر مثلهم** لم يؤتَ أكثر مما أوتوه، ولا يميزه في بشريته عنهم شيء **سوى أنه يوحى إليه**:

- ﴿قل إنما الآيات عند اللّه﴾ (الأنعام/ ١٠٩).
- ﴿قل إنما الآيات عند اللّه وإنما أنا نذير مبين﴾ (العنكبوت/ ٥٠).
- ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن اللّه﴾ (الرعد/ ٣٨)[٣].
- ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ﴾ (الكهف/ ١١٠).

والواقع أن هذه الآية الأخيرة، التي ستتكرر بحرفها في سورة فصلت: ٦، تلخص جوهر الخلاف بين الرسول ومنكري رسالته. **فبشريته العارية من دليل النبوة** هي بالضبط ما كان موضع استغراب وإنكار منهم، بالنظر إلى تعارضها مع تصوراتهم الموروثة خلفاً عن سلف عن الأنبياء بصفتهم كائنات عليا شبه إلهية أوتيت القدرة على اجتراح معجزات خارقة ما أوتي مثلها الرسول «الأمي» الذي ﴿يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ (الفتح/ ٢٩) **كأي بشر عادي**[٤].

(٣) هذه الآية، التي ستتكرر بحرفها في سورة غافر: ٧٨، نزلت جواباً عن قول من قال: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربّه﴾ (الرعد/ ٢٧). فهي ليست إذن آية إثباتية، بل آية تعليلية لعدم إتيان الرسول الآية المطالب بإتيانها.

(٤) لا ننسَ أن القرآن نفسه ساهم في إذاعة تلك الصورة عن الأنبياء بقدر ما لم يتحدث عن أي نبي منهم إلا مقروناً بمعجزته، بله بمعجزاته.

ولا جدال أصلاً في أن الفضاء العقلي والديني الذي ينتمون إليه كان فضاء مفتوحاً على احتمال مجيء رسول جديد، حامل لرسالة جديدة أو منذر بنهاية العالم على نحو ما هو متوقع في كتب الكتابيين أو في «أساطير الأولين» التي كانت تجد لها مرتعاً خصباً في شبه الجزيرة العربية. ولكن ذلك الفضاء العقلي والديني عينه هو ما كان يملي عليهم أن يجعلوا شرطاً مسبقاً لتصديق أي رسول جديد أن يكون حاملاً معه البرهان الذي لا برهان غيره في النبوة: **المعجزة**. هكذا كان الملأ من قوم نوح ـ أي رؤساؤهم ـ قد قالوا لهم: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾ (المؤمنون/ ٢٤). كما كان الملأ من القوم الذين تلوهم قد قالوا عن الرسول الذي أتى من بعده: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون﴾ (المؤمنون/ ٢٣-٢٤). وكذلك قال قوم ثمود لنبيهم المرسل إليهم صالح: ﴿ما أنت إلا بشر مثلنا فأتِ بآية إن كنت من الصادقين﴾ (الشعراء/ ١٥٤). وكذلك كذّب أصحاب الأيكة رسولهم شعيباً قائلين له: ﴿وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كِسفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾ (الشعراء/ ١٨٧). ووفق هذا النمط الذهني عينه استغرب قوم محمد مبعثه وقالوا: ﴿أَبَعث اللّه بشراً رسولاً؟﴾ (الإسراء/ ٩٤)، وتساءلوا باستغراب أكبر: ﴿مالِ هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ (الفرقان/ ٧). ثم راحوا يطالبونه، على مدار الحقبة التبشيرية من دعوته(٥)، ببرهان دامغ على نبوته من استنزال كنز أو تفجير نبع أو استدرار نهر أو استحداث جنة من عنب ونخيل، هذا إن لم يطالبوه بتسيير الجبال أو إسقاط السماء.

---

(٥) نقصد بالحقبة التبشيرية من دعوة الرسول حقبة الخمسة عشر عاماً الممتدة من عام مبعثه في مكة، وهو في الأربعين من العمر حسب أغلب المصادر، إلى العام الثاني للهجرة، حيث ناب منذئذ العمل العسكري المباشر مناب التبشير، وكان الرسول قد تجاوز الثانية والخمسين.

وعلاوة على طلب معجزة إثباتية لنبوته كان اللامصدقون، ولا سيّما الكتابيين منهم، يطرحون عليه أسئلة إعجازية وتعجيزية معاً من طبيعة لاهوتية أو غيبية أو ما ورائية كسؤاله عن ماهية الروح، أو التكهن بالغيب، أو متى تقوم الساعة، أو بكل بساطة، ما جنس الجنين الذي في الرحم؟ وتماماً كما في إجابته عن طلب المعجزات، كان يجيب عن هذه الأسئلة والإشكالات **بالإحالة إلى اللّه**:

- ﴿ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ (الإسراء/ ٨٥).
- ﴿اللّه يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾ (الرعد/ ٨).
- ﴿إن اللّه عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ (لقمان/ ٣٤)[٦].
- ﴿يسئلونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي﴾ (الأعراف/ ١٨٧).
- ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن اللّه ولا أعلم الغيب﴾[٧] (الأنعام/ ٥٠).
- ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ (الأنعام/ ٥٩).
- ﴿فقل إنما الغيب للّه فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ (يونس/ ٢٠).
- ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا اللّه﴾ (النمل/ ٦٥).

ومن منظور الاحتكار الإلهي لعلم الغيب لم يكن الرسول مأموراً بإرجاع الأمر كله إلى اللّه فحسب: ﴿وللّه غيب السماوات والأرض وإليه يُرجع الأمر

(٦) لنا أن نلاحظ أن صدق هذه الآية، وآية سورة الرعد السابقة لها، مشروط تاريخياً بسقف المعرفة العلمية في زمن التنزيل. فاليوم يستطيع العلم الحديث أن يعَلْمَ جنس الجنين بدءاً من الشهر الثالث لتكوّنه.

(٧) كان نوح نفسه، بموجب القرآن، قد سبق محمداً إلى القول نفسه بحرفه: ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن اللّه ولا أعلم الغيب﴾ (هود/ ٣١).

كلّه﴾ (يوسف/ ١٢٣)، ولا مأموراً بالإعلان عن أنه مكفوف اليد كفاً تاماً فحسب: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء اللّه ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾ (الأعراف/ ١٨٨)، بل كان مأموراً أيضاً بألا يستعجل عِلْمَ ما قد يُعْلِمه اللّه أو ما يطالب اللامصدقون بأن يعلمه إياه: ﴿قل. . . ما عندي ما تستعجلون به، إن الحكم إلا للّه[٨]، يقص الحق وهو خير الفاصلين، قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم، واللّه أعلم بالظالمين، وعنده مفاتيح الغيب ولا يعلمها إلا هو﴾ (الأنعام/ ٥٧-٥٨)[٩].

هنا ينهض سؤال: إذا كانت المعجزة رفيقة درب كل نبي، فلماذا قضت المشيئة الإلهية أن ينفرد الرسول دون سائر الرسل والأنبياء بأن يكون **نبياً بلا معجزة**؟ ويكتسب هذا السؤال أهمية خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن غياب المعجزة قد ترجم عن نفسه ليس فقط في تشكيك المشككين في بعثة الرسول، بل أيضاً ـ وربما كان هذا أخطر ـ في **الشك الذي كان ينتاب الرسول نفسه أحياناً**. أفما وجدنا الآية الرابعة والتسعين من سورة يونس تحذر الرسول من هذا الشك وتتوعده، في حال انضمامه إلى الممترين والمكذبين

(٨) لنلاحظ هنا أن هذه المقولة التي ستكتسب شهرة منقطعة النظير في إسلام الصدر الأول، كما في إسلام القرن العشرين الميلادي، ما كان لها ذلك المدلول السياسي الذي أعطاها إياه الخوارج القدامى والإسلاميون المعاصرون: فـ ﴿إن الحكم إلا للّه﴾ كما وردت هنا في سورة الأنعام، وكما ترد لمرتين على التوالي في سورة يوسف، لا تمتّ بصلة إلى الحكم السياسي goverment، وليس لها من مدلول آخر سوى مدلولها اللاهوتي الذي لا يختلف في الإسلام عنه في الديانتين التوحيديتين الأخريين: قضاء اللّه وقراره ومشيئته.

(٩) طبقاً لمصنفي أسباب النزول نزلت هذه الآية، بالاقتران مع الآية ٢٣ من سورة الكهف: ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً﴾، في سياق القلق الذي انتاب الرسول والشك الذي انتاب الناس في مصداقيته عندما احتبس عنه الوحي لأنه استعجل فوعد سائليه عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح بأن يجيبهم في الغد، مع أنه ما كان له أن يقطع هذا الوعد من عنده، إذ إن الوحي لا يتنزل بإرادته ولا حسب طلبه.

بآيات اللّه، بأن يكون من الخاسرين؟ كذلك أما وجدنا الآية الثانية عشرة من سورة هود تحذّر الرسول من أن يضيق صدره ويترك تبليغ بعض ما أوحي إليه مخافة أن يقول قائلهم ـ المشككين ـ: ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه مَلَك﴾؟ ولنا على كل حال أن نفهم «ضيق صدر» الرسول إذ شاء له «حكم اللّه» أن يتبلغ الوحي وأن يبلّغه بدون سند من معجزة مادية على منوال معجزات سائر الرسل والأنبياء: إذ لم يكن **اللامؤمنون** هم وحدهم الذين يطالبونه بمعجزة، بل كذلك **المؤمنون** أنفسهم، وهو ما يمكن استنتاجه من السياق الذي نزلت فيه الآية ١٠٩ من سورة الأنعام: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، قل إنما الآيات عند اللّه، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾. فقد ذهب جماعة من أهل التأويل، على ما يروي الطبري، إلى أن كاف الخطاب في «يشعركم» إنما هي موجهة إلى أصحاب الرسول، ومستندهم في ذلك أن «الذين سألوا رسول اللّه (ص) أن يأتي بآية [هم] المؤمنون به. قالوا: وإنما كان سبب مسألتهم إياه ذلك أن المشركين حلفوا أن الآية إذا جاءت آمنوا واتبعوا رسول اللّه (ص)، فقال أصحاب رسول اللّه (ص): سل يا رسول اللّه ربك ذلك، فسأل، فأنزل اللّه فيهم وفي مسألتهم إياه ذلك: «قلّ ـ للمؤمنين بك يا محمد ـ ﴿إنما الآيات عند اللّه، وما يشعركم﴾ ـ أيها المؤمنون بأن الآيات إذا جاءت هؤلاء المشركين بالله أنهم لا يؤمنون به»(١٠).

وباستقراء النص القرآني نحصي عشرات من الآيات التي تعلّل، على لسان اللّه نفسه، امتناعه عن إتيان المعجزات التي يطالبه بها رسوله أو المؤمنون به، وعلى الأخص اللامؤمنون، سواء أكان هؤلاء الأخيرون صادقين في ما يطالبون به من برهان المعجزة التي هي معبرهم إلى الإيمان، أم كاذبين مناورين لا غاية

(١٠) الطبري: **جامع البيان في تفسير آي القرآن**، تحقيق أحمد شاكر، المجلد ٧، الفقرة ١٣٧٥٠.

لهم سوى إحراج الرسول وحشره في الزاوية الضيقة. ومن هذا المنطلق الاستقرائي إياه نستطيع أن نحدد خمسة مستويات للتعليل:

١ ـ **التعليل بالتكذيب**: فما أكثر من سبقوا الرسول من الأنبياء ممن كذّبهم قومهم رغم ما أتوه من معجزات، وفي مقدمتهم قوم موسى مع أنه كان من أكثر الأنبياء معجزة:

ـ ﴿ولقد جاءكم موسى بالبيِّنات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ (البقرة/ ١٩).

ـ ﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ (الأعراف/ ١٣١).

ـ ﴿ولقد جاءهم موسى بالبيِّنات فاستكبروا في الأرض﴾ (العنكبوت/ ٣٩).

وقائمة الأنبياء والمرسلين الذين كذبهم قومهم، سواء أأتوهم بالآيات والنذر أم لم يأتوهم، طويلة لا تنتهي، وقد أحصت سورة الشعراء وحدها خمسة منهم:

ـ ﴿كذَّبت قوم نوح المرسلين﴾ (١٠٥).

ـ ﴿كذبت عاد [هود] المرسلين﴾ (١٢٣).

ـ ﴿كذبت ثمود [صالح] المرسلين﴾ (١٤١).

ـ ﴿كذبت قوم لوط المرسلين﴾ (١٦٠).

ـ ﴿كذب أصحاب الأيكة [شعيب] المرسلين﴾ (١٧٦).

وتصوغ الآية الرابعة والأربعون من سورة المؤمنين ما يشبه أن يكون قانوناً: ﴿كلما جاء أمة رسولها كذبوه﴾. وتستنتج الآية ١٨٤ من سورة آل عمران، والخطاب فيها موجه إلى الرسول: ﴿فإن كذّبوك فقد كُذّب رسل من قبلك جاءوا بالبيِّنات﴾. وكذلك تفعل الآية ٢٥ من سورة فاطر: ﴿وإن يكذِّبوك فقد كذَّب الذين من قبلهم جاءتهم رسُلهم بالبيِّنات﴾، والآيات ٤٢ ـ

٤٤ من سورة الحج: ﴿وإن يكذِّبوك فقد كذَّبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكُذِّب موسى﴾. وبناء على هذه التجربة الماضية والمتكررة مع سائر الرسل والأنبياء الذين سبقوا محمداً، تطرح الآية ١٠١ من سورة يونس هذا السؤال: ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾؟ ثم تأتي الآية ٥٩ من سورة الإسراء لتحسم موضوع المعجزات المضنون بها على الرسول، دون سواه من الرسل، حسماً لا يحتمل جدلاً: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون﴾.

٢ ـ **التعليل بالتأويل السحري**: ثمّة جملة من الآيات تردّ الاستنكاف الإلهي عن إتيان المعجزات أو الإذن للرسول بإتيانها إلى كون المعجزات التي أتاها المرسلون والأنبياء السابقون قد فُسِّرت من قبل قومهم على أنها فعل من أفعال السحر. **والسحر هو إلى الدين ما كانه قابيل لهابيل: شقيقه البكر وغريمه وقاتله**. فالسحر كالمعجزة يشل العقل، ولكنه يوظف هذا الشلل لصالح قدرة «إبليسية»، لا لصالح القدرة الإلهية. **وقد اضطلع السحر في الديانات الوثنية بنفس الوظيفة التي اضطلعت بها المعجزة في الديانات التوحيدية**. والحال أن الرسول ما بُعث إلى «الأميين» ـ قومه ـ إلا ليحوّلهم عن الأولى إلى الثانية. ومن هنا خطورة مطبّ التأويل السحري للمعجزات التي قد يأذن اللّه له بإتيانها. ففي هذه الحال خير له وخير لدين التوحيد الذي بُعث للدعوة إليه ألا يُؤذن له بإتيانها. ومثال الأنبياء الذين تقدّموه ناطق بالدلالة من هذا المنظور. فعيسى بن مريم، الذي أذن له اللّه أن يبرئ الأكمه والأبرص وأن يحيي الموتى، ما قوبلت معجزاته من قبل الذين كفروا من قومه إلا بالقول: ﴿إنْ هذا إلا سحر مبين﴾ (المائدة/ ١١٠). ومن قبله كان موسى قد لقي الجواب نفسه لما بعثه اللّه إلى قوم فرعون بآياته: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملأه بآياتنا فاستكبروا﴾ و ﴿قالوا إن هذا لسحر مبين﴾ (يونس/ ٧٥-٧٦)، أو كذلك: ﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا بيّناتٍ قالوا ما هذا إلا سحر مفترى﴾ (القصص/ ٣٦). ولئن يكن موسى، وهو الذي أتى

ما أتاه من المعجزات والآيات البيِّنات، قد رُمي بأنه ﴿ساحر كذّاب﴾ (غافر/ ٢٤)، فما الداعي لأن يركب الرسول المركب نفسه؟ ألم يرمه قومه، حتى بدون أن يأتي بمعجزات، ولمجرد أنه بلغهم رسالات ربه بلسان مبين، بأنه هو الآخر ﴿ساحر كذاب﴾ (ص/ ٤)؟ وما الحاجة إلى مزيد من المعجزات، ولا سيما المادية منها، ما دامت معجزة القرآن، وهي محض معجزة بيانية، قد وُصفت من قبل قوم محمد بأنها ﴿سحر مبين﴾ (الأحقاف/ ٧، وسبأ/ ٤٣)؟.

وبكلمة واحدة: ما دام قوم محمد هؤلاء ﴿إذا رأوا آية يستسخرون وقالوا إن هذا إلا سحر مبين﴾ (الصافات/ ١٥)، وما داموا ﴿إن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ (القمر/ ٢)، أفليس حجب المعجزات عنهم ـ ولو على مضض من الرسول المبعوث إليهم ـ هو خير سبيل إلى إحباط «استراتيجيتهم»، أو بلغة الفقهاء اللاحقين إلى سد الذرائع عليهم؟

٣ ـ **التعليل بالتعذيب**: مع ذلك كلّه فإن الباعث لا يضنّ على مبعوثه بأن يلبي له التماساً أخيراً، وإن بشرط شارط رهيب: التعذيب ومضاعفة التعذيب. فما دام مطلب القوم المبعوث إليهم ـ وهم الأميون الذين لم يُبعث إليهم رسول من قبل ـ رفد الرسالة المكلف بتبليغهم إياها بمعجزات تقوم لها مقام البرهان الذي لا يماري فيه ممارٍ، فليكن للرسول كل المدد الذي يطلبه من المعجزات. ولكن الويل ثم الويل لهم بعدئذ إن أصروا على عدم التصديق وعدم الإيمان: فليس بعد برهان المعجزة سوى نار جهنم. هكذا كان أمر من سبقهم من الأقوام الذين كفروا بآيات أنبيائهم، وهكذا سيكون أمرهم إن كفروا بدورهم بآيات رسولهم:

ـ ﴿سل بني إسرائيل كم أتيناهم من آية بيّنة ومن يبدل نعمة اللّه من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾ (البقرة/ ٢١١).

ـ ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيِّنات، وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ (آل عمران/ ١٠٥).

ـ ﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾ (النساء/ ٥٦).

ـ ﴿قال اللّه إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين﴾[١١] (المائدة/ ١١٥).

ـ ﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات اللّه وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾ (الأنعام/ ١٥٧).

ـ ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم، كلما خبت زدناهم سعيراً، ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا﴾ (الإسراء/ ٩٧-٩٨).

وإزاء هول الجزاء الذي ينتظر من يكذب بآيات اللّه، فلنا أن نفهم أن يكون الرسول نفسه عدل عن طلب المعجزات التي يطالبه بها قومه: فبما أن عقاب من يكفر بعد أن يأتيه برهان المعجزة أشد وأدهى بما لا يقاس من عقاب من كان كافراً قبل أن يأتيه هذا البرهان، فقد يكون عدم الرهان خيراً من الرهان، وهذا لصالح قوم الرسول المبعوث إليهم. وهكذا تفيدنا كتب السيرة أنه عندما قال المكيون للرسول: ﴿واللّه لن نؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلّماً، ثم ترقى فيه حتى تأتيها ثم تأتي معك بصكّ، أي كتاب، معه أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول﴾ ـ وهذا ما أشارت إليه الآيات ٩٠ ـ ٩٣ من سورة الإسراء[١٢] ـ «خيّره اللّه تعالى بين أن يعطيه جميع ما سألوا وأنهم إن كفروا بعد ذلك استأصلهم بالعذاب كالأمم السابقة، وبين أن يفتح

(١١) الهاء في «منزلها» عائدة إلى المائدة التي طالب الحواريون عيسى بن مريم بإنزالها من السماء ليأكلوا منها ولتطمئن قلوبهم وليعلموا أنه من الصادقين.

(١٢) «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كِسَفاً، أو تأتي باللّه والملائكة قبيلاً، أو يكون لك بيت من زخرف، أو ترقى في السماء، ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزِّل علينا كتاباً نقرؤه».

لهم باب الرحمة والتوبة لعلهم يتوبون وإليه يرجعون، فاختار الثاني لأنه صلى الله عليه وسلم يعلم من كثير منهم العناد وأنهم لا يؤمنون وإن حصل ما سألوا فيستأصلون بالعذاب»(١٣). كما تفيدنا في السياق نفسه في حديث مروي عن محمد بن كعب القرظي أن «الملأ من قريش أقسموا للنبي (ص) باللّه عزّ وجلّ أنهم يؤمنون به إذا صار الصفا ذهباً، فقام يدعو اللّه تعالى أن يعطيهم ما سألوه، فأتاه جبريل، فقال له: إن شئتَ يصبح لهم الصفا ذهباً، فإن لم يؤمنوا أنزلت عليهم العذاب، عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت ألا يصير ذهباً فتحتُ لهم باب الرحمة والتوبة، فقال: لا، بل أن تفتح لهم باب الرحمة والتوبة»(١٤).

٤ ـ **التعليل بعدم النجاعة وعدم العلّية**: إذ ما الغاية من إنزال المعجزات في خاتمة المطاف؟ أن يصدق اللامصدقون وأن يؤمن اللامؤمنون. ولكن من قال إن الإيمان أو عدمه هو في أيديهم؟ ومن قال إن لهم حرية الاختيار حتى يقتنعوا أو لا يقتنعوا ببرهان المعجزة؟ ثم من قال إن الرسول نفسه هو المكلَّف بإقناعهم؟ فهو ليس له من مهمة أخرى سوى التبليغ. وباستثناء التبليغ فإنه مكفوف اليد: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ (آل عمران/ ١٢٨). **بل إن ما يبديه من حرص على أن يؤمن المؤمنون قد يضعه في موضع التعارض مع المشيئة الإلهية**: ﴿ان تحرص على هداهم فإن اللّه لا يهدي من يضل﴾ (النحل/ ٣٧). **وقد يعرِّضه أيضاً للمساءلة وللملام**: ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ (يونس/ ٩٩)؟ ذلك أنه ﴿ما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن اللّه﴾ (يونس/ ١٠٠)، ﴿ومن يضلل اللّه فلن تجد له سبيلاً﴾(١٥) (النساء/ ٨٨). فاللّه

---

(١٣) أبو الفرج الحلبي: **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (السيرة الحلبية)**، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٢، ج ١، ص ٤٣٦.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٤٣٧.

(١٥) وهي آية مكررة بحرفها في النساء: ١٤٣.

ـ وليس أحد سواه ـ هو من يضلّ ومن يهدي. وذلك ما تؤكده آيات عدة من القرآن بصيغة مكررة:

﴿فيضل اللّه من يشاء ويهدي من يشاء﴾ (إبراهيم/ ٤).

ـ ﴿ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ (النحل/ ٩٣).

ـ ﴿فإن اللّه يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ (فاطر/ ٨).

ـ ﴿كذلك يضل اللّه من يشاء ويهدي من يشاء﴾ (المدثر/ ٣١).

إذن ليس بين الإيمان وعدمه وبين المعجزة وعدمها من **رابطة علِّية**. **فلا المعجزة تستتبع الإيمان، ولا عدمها يستتبع عدم الإيمان**: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية﴾ (يونس/ ٩٦-٩٧). وكذلك: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم إلا كانوا عنها معرضين﴾ (الأنعام/ ٤). وإن يكن من رابطة علّية فهي حصراً بين المشيئة الإلهية إيجاباً أو سلباً وبين الإيمان أو عدم الإيمان:

ـ ﴿من يشأ اللّه يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾ (الأنعام/ ٦).

ـ ﴿من يهد اللّه فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ (الأعراف/ ٧).

ـ ﴿من يضلل اللّه فلا هادي له﴾ (الأعراف/ ١٨٦).

ـ ﴿من يضلل اللّه فما له من هادٍ﴾[(١٦)] (الرعد/ ٣٣).

ـ ﴿من يهد اللّه فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ (الكهف/ ١٧).

إذن فالمشيئة الإلهية، لا المعجزة، هي التي تتحكم بإيمان الناس أو عدمه: ﴿ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء

---

(١٦) وكذلك، بحرفها الزمر: ٢٣، والزمر: ٣٦، وغافر: ٣٣.

قُبُلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء اللّه﴾(١٧) (الأنعام/ ١١١). وليس مطلوباً أصلاً أن يؤمن الناس جميعاً: ﴿ولو شاء ربّك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾ (يونس/ ٩٩). وهذا يصدق على القرآن نفسه من حيث هو المعجزة البيانية الوحيدة التي يستطيع الرسول أن يشهرها دليلاً على رسوليته. فصحيح أن هذا القرآن لو أنزل على جبل ﴿لرأيته خاشعاً متصدّعاً﴾ (الحشر/ ٢١)، ومع ذلك فإن من الناس من ﴿إذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون﴾ (الانشقاق/ ٢١). وما ذلك لأن القرار قرارهم كما قد يتوهمون، بل لأنهم من ﴿أولئك الذين لعنهم اللّه فأصمّهم وأعمى أبصارهم﴾ (محمد/ ٢٣). وهنا أيضاً يستخدم القرآن صيغة تتكرّر بصورة شبه حرفية في ثلاث آيات:

- ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾ (الأنعام/ ١١٦).

- ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً، وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾ (الإسراء/ ٤٥-٤٦).

- ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً، وإن تَدْعُهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً﴾(١٨) [الكهف/ ٥٧).

ولنلاحظ هنا الأهمية الدلالية لحرف الجواب «إذاً». فلأن اللّه هو الذي جعل على قلوب المؤمنين أكنة وفي آذانهم وقراً، فإنهم لن يهتدوا **إذاً** أبداً

(١٧) لا يتردد الطبري، في تفسيره، في أن يرجع سبب الإيمان وسبب الكفر إلى اللّه مؤكداً أن «كلا السببين من عند اللّه».

(١٨) نستطيع أن نضيف إلى هذه الآيات آية رابعة: ﴿كتاب فُصِّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب، فاعمل إننا عاملون﴾ (فصلت/ ٣-٥). وتثير هذه الآية إشكالاً من منظور لاهوت الخطاب القرآني: فهي تنسب القول بأكنة القلوب ووقر الآذان إلى مشركي مكة، في حين أن الآيات الثلاث السابقة تنسبه إلى اللّه.

مهما دعاهم الرسول إلى الهدى ومهما آتاهم ـ إذا أَذِن اللّه له أن يؤتيهم ـ من المعجزات. ففي حالتهم ستبقى المعجزات خرساء وفائضة عن الحاجة، فضلاً عن أنه لن يكون لها من عاقبة سوى مضاعفة عذابهم في الآخرة(١٩).

٥ ـ **التعليل بالآيات الكونية**. إذ ما الحاجة في خاتمة المطاف إلى **معجزات جديدة**؟ فمن يطلب برهان المعجزة فما عليه إلا أن يجيل نظره في الكون ليجده عامراً بالمعجزات التي لا تعدّ ولا تحصى، منذ أن تخلّق من العدم الأول إلى اليوم. فكل ما في الكون معجزة، من النطفة التي تتخلق في الرحم علقة ثم مضغة ثم جنيناً ثم إنساناً سوياً إلى الجبال التي تنصب والأرض التي تبسط والسماء التي ترفع والنجوم المسخرة لهداية الإنسان ﴿في ظلمات البر والبحر﴾ (الأنعام/ ٩٧). والآيات الكونية تتخلّل شتى سور القرآن، وتكاد تؤلف نصف القرآن المكي، وهي تحصى بالمئات، وتجد واحداً من أتم نماذجها في الآيات ٢٠-٢٥ من سورة الروم:

﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون، ومن آياته أن

(١٩) هنا أيضاً يثور إشكال لاهوتي لم يُطرح، وعلى كل حال لم يُجب عنه في كتب التفسير: فما دام اللّه هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وما دام من يضلله اللّه فلا هادي له، وما دام اللّه هو الذي يجعل على قلوب اللامهتدين أكنة وفي آذانهم وقراً كيلا يهتدوا أبداً، وبكلمة واحدة، وحسب تعبير الإمام الآجري في كتابه **الشريعة** ، ما دام اللّه هو نفسه من يختم على قلوب من أراد من عباده، فلا يهتدون إلى الحق ولا يسمعونه ولا يبصرونه، فلمَ إذاً سيُسامون في الآخرة العذاب على ذنب ما اقترفوه بإرادتهم؟ وتجدر الإشارة هنا إلى أن المسيحية نفسها كانت واجهت مثل هذا الإشكال اللاهوتي، وقد كان الجواب عنه واحدة من مسائل الخلاف بين الكاثوليكيين والبروتستانتيين، وكان مدار جدل كلامي عويص على امتداد القرنين السابع عشر والثامن عشر. وقد ذهب الجانسينيون، ممن حكمت عليهم الكنيسة الكاثوليكية بالهرطقة، إلى أن الهلاك الأبدي ـ مثله مثل الخلاص الأبدي ـ يُكتب على بعض البشر دون بعضهم الآخر منذ لحظة ولادتهم، بل حتى قبل أن يتخلقوا في الأرحام. فعذابهم هو من قضاء اللّه وقدره المسبق. وتماماً كما في الآية ٢٣ من سورة الأنبياء، فإن اللّه ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾.

خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، ومن آياته خلقُ السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزّل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾.

بل إن سورة بكاملها من القرآن، وهي سورة الرحمن المكية بآياتها الثماني والسبعين، والموجه فيها الخطاب بالمثنى إلى الإنس والجن، تستعرض الآيات الكونية واحدة تلي الأخرى بإيقاع جمالي يندر مثيله في سائر السور، مكررة السؤال بعد الإشارة إلى كل معجزة: ﴿فبأي آلاء ربّكما تكذّبان﴾؟.

والواقع أنه لا يمكن للمرء أن يماري في أن ما اصطلح علماء البلاغة على تسميته بـ«إعجاز القرآن» إنما يجد مبرره الجمالي في هذه السور المكيات التي تتغنى بسمفونية الكون ولألاء معجزاته. ومع ذلك، ثمّة سؤال ختامي يطرح نفسه: فالمعجزات الكونية إن أُريد لها أن تكون شاهداً فهي لا تشهد في هذه الحال إلا على ألوهية اللّه وكلية قدرته. والحال أن **طالبي برهان المعجزة من أميين وكتابيين ما كانوا يمارون في تلك الألوهية ولا في كلية القدرة هذه. وإنما كان مطلبهم معجزة أو معجزات تشهد على رسولية الرسول**. وفي أنظارهم على الأقل ما كانت تلك تغني عن هذه.

الإعجاز القرآني

إنما رداً على تحدّي هؤلاء الأميين والكتابيين، الذين لم يتخلّوا على مدى اثني عشر عاماً من حوار الرسول معهم عن طلب برهان المعجزة، وهذا رغم كل الحجاج الذي يديره القرآن ضدهم ورغم كل الحجج التي يجنّدها لتفنيد

مطلبهم (من عنادهم الدائب في تكذيب الأنبياء، ومن تأويلهم السحري لآياتهم، ومن عدم نجع برهان المعجزة معهم، ومن تهديدهم بمضاعفة عذابهم، فضلاً عن إحالتهم كمسعى أخير إلى المعجزات الكونية التي لا تقع تحت حصر)، نقول إنما رداً على تحدي الأميين والكتابيين ذاك صاغ القرآن تحدياً مضاداً أطلق عليه لاحقاً اسم «الإعجاز القرآني». وليس لنا هنا أن نخوض في معنى هذا الإعجاز الذي يجمعه والمعجزة جذر واحد: فهل النص القرآني هو بحد ذاته المعجِز للناس عن أن يحاكوه ويضارعوه كما ذهب إلى ذلك أكثر أهل التأويل، أم أن اللّه هو المعجز للبشر عن إتيان مثله ـ مما يعني ضمنياً أن النص بحد ذاته قابل للمضارعة ـ كما ذهب إلى ذلك بعض المعتزلة ممن قال بمذهب الصُرفة؟ أياً يكن من أمر، فإن كلمة «إعجاز» لم ترد في القرآن، ولا كذلك كلمة «معجزة». وبالمقابل، إن تحدّي الإعجاز صاغته خمس آيات، اثنتان منها مكررتان بصورة شبه حرفية:

ـ ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون اللّه إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعِدَّت للكافرين﴾ (البقرة/ ٢٣-٢٤).

ـ ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون اللّه إن كنتم صادقين﴾ (يونس/ ٣٨).

ـ ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون اللّه إن كنتم صادقين﴾ (هود/ ١٣).

ـ ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ (الإسراء/ ٨٨).

ـ ﴿أم يقولون تقوَّله بل لا يؤمنون، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ (الطور/ ٢٣-٢٤).

ولا جدال في أن هذا التحدي أتى مفعوله: فعلاوة على أن فرضية

الإعجاز غدت عقيدة مركزية في جميع كتب التفسير وعلم الكلام، فقد بقي القرآن على امتداد أربعة عشر قرناً هجرياً فريد نوعه، لا محاكي له ولا مضارع معترفاً به[٢٠]، **وتم تكريسه بوصفه المعجزة الباقية على مدى الزمن لرسول ما أوتي معجزة غيره.**

---

(٢٠) تنسب كتب السيرة إلى مسيلمة الكذاب محاولة لمحاكاة القرآن، ولكن ما تضعه على لسانه في هذا الخصوص لا يعدو أن يكون هذراً وسخفاً. كما نسبت محاولة مماثلة إلى ابن المقفع، ولكنه لما حاول عدل وقال كما وضع على لسانه: «واللّه ما هذا من كلام البشر». وقد قيل أيضاً إن ممن حاول معارضة القرآن المتنبي والمعري، ولكن لم يصلنا من محاولتهما شيء ملموس. وبالمقابل وصلتنا نسخة ناجزة من «**مصحف المنفرد بذاته**»، وهو المصحف الذي لا تزال تعتمده إلى اليوم الطائفة الدرزية في عبادتها.

الفصل الثاني

نبيّ الثلاثة آلاف معجزة

تروي جميع كتب السيرة بلا استثناء قصة مفاوضة أشراف قريش محمداً بعد أن بدأ بالجهر بدعوته وتكاثر أتباعه. فبعد أن عرضوا المال والشرف والمُلْك ليتراجع عن دعوته قالوا له: «يا محمد، إن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقل ماء ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجّر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا، فنسألهم عما تقول أحقّ هو أم باطل؟ فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدّقناك وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول». فقال لهم: «ما بهذا بُعثت إليكم، إنما جئتكم من اللّه بما بعثني به، وقد بلّغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا وفي الآخرة، فإن تردّوه عليّ أصبر لأمر اللّه تعالى، حتى يحكم اللّه بيني وبينكم». فلما أبى أن يأتيهم بالمعجزات التي طلبوها لصالحهم عادوا يطالبونه، ودوماً كدليل على صدق نبوته، بأن يأتي بمعجزات لصالحه الشخصي، فقالوا: «فإن لم تفعل هذا فخذ لنفسك، سلْ ربك أن يبعث معك مَلَكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسلْه فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك

ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم». وبدوره عاد الرسول يرد بالسلب: «ما أنا بفاعل، وما أنا الذي يسأل ربه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا، ولكن اللّه بعثني بشيراً ونذيراً»(١).

ونحن لا نستطيع أن نشكك في الصحة التاريخية لهذه الرواية، إذ إن القرائن عليها في النص القرآني واضحة لا مراء فيها. ولكن من المباح لنا بالمقابل أن نفترض أن إخراجها بالصيغة المتداولة في كتب السيرة هو من فعل الكَتَبَة اللاحقين الذين صاغوها ابتداء من تلك القرائن. وأياً يكن من أمر فإن دلالة الرواية أهم بكثير من نصابها من الصحة التاريخية، وهذا على الأقل من المنظور الذي ننطلق منه هنا. فالرسول لم يرفض إتيان المعجزات فحسب ـ رغم أهمية الرهان: اهتداء قريش ـ بل أكد أيضاً لمرتين على التوالي أنه ما بعث لإتيان المعجزات، وأنه غير مستعد أصلاً لأن يسأل ربه ذلك. وهكذا تؤكد روايات السيرة ما كنا استخلصناه من منطوق العشرات من الآيات القرآنية: إن الرسول مبعوث ليبشّر وينذر، وكل مهمته مقصورة على تبليغ رسالات ربّه بدون سند من معجزة ـ خلافاً لمن تقدمه من الرسل والأنبياء ـ غير سند إعجاز القرآن حصراً.

والمفارقة ـ التي سنتوقف عندها مطولاً في هذا الفصل ـ أن نفس كتب السيرة التي تسوق تلك الرواية النافية على لسان الرسول لأي توظيف للمعجزات هي عينها التي تفرد باباً مفصّلاً لـ«معجزات النبي» قد لا يتعدى عند ابن سيد الناس في **عيون الأثر** الثلاث صفحات، ولكن الذي قد يمتد عند واضع **السيرة الحلبية** إلى خمس وعشرين صفحة، ويتطاول عند مصنّف **البداية والنهاية** إلى مئتين وخمس وثلاثين صفحة.

---

(١) **السيرة الهشامية**، ج ١، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨؛ **والسيرة الحلبية**، ج ١، ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦، **والبداية والنهاية** لابن كثير، ج ٣، ص ٥٠ ـ ٥١.

المعجزات النبوية طبقاً لابن هشام

ليس يصعب على مستقرئ كتب السيرة هذه أن يلاحظ أن باب معجزات النبي فيها يخضع خضوعاً شبه ميكانيكي لقانون التضخم طرداً مع مرور الزمن. فأقدم السير التي وصلتنا، وربما أقربها إلى الحقيقة التاريخية، أو أقلها بعداً عنها، وهي سيرة ابن هشام التي تعود إلى مطلع القرن الثالث الهجري، لم تذكر للرسول من معجزات سوى عشر حصراً، وهي على التوالي:

١ ـ **سلام الحجر والشجر عليه**. فهو ينقل عن ابن إسحاق عن «بعض أهل العلم» أن «رسول اللّه حين أراده اللّه بكرامته وابتدأه بالنبوة، كان إذا خرج لحاجته أبْعَدَ حتى تحسر عنه البيوت. فلا يمر رسول اللّه (ص) بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول اللّه»[٢].

٢ ـ **تحريك الشجرة**. فعن ابن إسحاق أيضاً أن رُكانة بن عبد يزيد كان «أشدَّ قريش، فخلا يوماً برسول اللّه (ص) في بعض شعاب مكة، فقال له رسول اللّه (ص): «يا ركانة، ألا تتقي اللّه وتقبل ما أدعوك إليه»، قال: لو أني أعلم أن الذي تقول حق لاتبعتك، فقال رسول اللّه (ص): «أفرأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقوله حق؟»، قال: نعم، قال: «فقم حتى أصارعك»، فقام ركانة إليه فصارعه، فلما بطش به رسول اللّه (ص) أضجعه، وهو لا يملك من نفسه شيئاً، ثم قال: عد يا محمد، فعاد فصرعه، ثم قال: يا محمد، واللّه إن هذا لعجب، أتصرعني؟ قال رسول اللّه (ص): «فأعجب من ذلك إن شئتَ أن أريكه إن اتقيت اللّه وتبعت أمري؟». قال: وما هو؟ قال: «أدعو لك هذه الشجرة التي ترى فتأتيني»، قال: ادعها، فدعاها حتى وقفت بين يدي رسول اللّه (ص)، فقال لها: «ارجعي إلى مكانك»، فرجعت إلى مكانها. (ج، ص ٣١).

---

(٢) ابن هشام: **السيرة النبوية**، تحقيق سعيد محمد اللحام، دار الفكر، بيروت ٢٠٠١، ج ١، ص ١٧٨.

٣ ـ **إعماء القرشيين**. فقد رماهم بحفنة من التراب فلم يروه وهو ينسل تحت أبصارهم ليلة هجر مكة واستخلف مكانه في فراشه علي بن أبي طالب (ج٢، ٢١٠).

٤ ـ **سيف عكاشة بن محصن**. فقد قاتل هذا الصحابي يوم بدر بسيفه «حتى انقطع في يده، فأتى رسول اللّه (ص)، فأعطاه جذلاً [= جذعاً] من حطب، فقال: قاتل بهذا يا عكاشة. فلما أخذه من رسول اللّه (ص) هزّه فعاد سيفاً في يده طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح اللّه على المسلمين» (ج٢، ص٢٢٧).

٥ ـ **عين قتادة بين النعمان**. ففي غزوة أحد أصيبت عين قتادة بن النعمان ووقعت على وجنته، فأخذها الرسول و«ردّها بيده فكانت أحسن عينيه وأَحَدَّهما» (ج٣، ص٣٦).

٦ ـ **معجزة الكُدْيَة**. فيوم حفر المسلمون الخندق لتحصين المدينة «اشتدت عليهم في بعض الخندق كدية» ـ أي أرض صلبة لا تعمل فيها الفأس ـ «فشكوها إلى رسول اللّه (ص)، فدعا بإناء من ماء فتَفَل فيه، ثم دعا بما شاء اللّه أن يدعو به، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية، فيقول من حضرها: فوالذي بعثه بالحق نبياً لانهالت حتى عادت كالكثيب، لا تردّ فأساً ولا مسحاة» (ج٣، ص١٤٦).

٧ ـ **معجزة تكثير التمر**. ففي وقعة الخندق أيضاً جاءت ابنة لبشير بن سعد بحفنة من التمر ليتغدى بها أبوها وخالها عبد اللّه بن رواحة، فمرت بالرسول فسألها: «تعالي يا بُنيّة، ما هذا معك؟»، فقالت: «هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي وخالي يتغديانه». قال: «هاتيه»، فصبّته في كفي الرسول «فما ملأتهما». و «أمر بثوب فبُسط له، ثم دحا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: «اصرخ في أهل الخندق أن هلمّ إلى الغداء»، فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد، حتى صَدَر أهل الخندق عنه وإنه ليسقط من أطراف الثوب» (ج٣، ص١٤٦).

٨ ـ **معجزة تكثير الطعام**. فقد روى جابر بن عبد اللّه أن امرأته شوت للرسول، في وقعة الخندق أيضاً، شاة صغيرة نحيفة وصنعت له أيضاً شيئاً من خبز الشعير، ولكن الرسول أبى أن يأتي للعشاء عندهما وحده وأصرّ على أن يصحبه كل من كان يعمل في حفر الخندق ـ وكانوا يعملون فيه من الصبح إلى المساء. وعلى دهش من جابر الذي كان يحسب أن ما عنده من الطعام لا يكفي لأكثر من أربعة أو خمسة أشخاص «أقبل الرسول وأقبل الناس معه، وبرَّكَ وسمّى ثم أكل، وتوارد الناس كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس، حتى صَدَر أهل الخندق عنها» (ج٣، ص١٤٧).

٩ ـ **معجزة تحطيم الأصنام**. قال ابن هشام: «حدثني من أثق به من أهل الرواية في إسناد له عن ابن شهاب الزهري عن عبيد اللّه بن عبد اللّه عن ابن عباس،[٣] قال: دخل رسول اللّه (ص) مكة يوم الفتح على راحلته فطاف عليها، وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص، فجعل النبي يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً». فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي منها صنم إلا وقع» (ج٤، ص٤٤).

١٠ ـ **معجزة نبع الماء**. فعندما قفل الرسول راجعاً من تبوك إلى المدينة مرّ في الطريق بوادٍ فيه ماء ضحل «لا يروي الراكب والراكبين والثلاثة»، فقال: «من سبقنا إلى ذلك الوادي فلا يستقين منه شيئاً حتى نأتيه». قال: فسبقه إليه نفر من المنافقين، فاستقوا ما فيه، فلما أتاه رسول اللّه (ص) وقف عليه، فلم يرَ شيئاً، فقال: «من سبقنا إلى هذا الماء؟ فقيل له: فلان وفلان، فقال: أوَ لم أنههم أن يستقوا منه شيئاً حتى آتيه؟، ثم لعنهم رسول اللّه (ص) ودعا عليهم،

(٣) لنلاحظ أن ابن هشام في حديثه عن معجزات النبي غالباً ما يعتمد إسناداً منقطعاً ويميل إلى «من له به ثقة». وهذا ما يفعله أيضاً أستاذه الذي ينقل عنه ابن إسحاق. ولهذا ما كان الاثنان يحظيان بتقدير أهل الحديث، ولا سيّما مالك بن أنس الذي قال عن ثانيهما، أي ابن إسحاق، «دجال من الدجاجلة».

ثم نزل فوضع يده تحت الوشل [= الماء الضحل]، فجعل يصب في يده ما شاء اللّه أن يصب، ثم نضحه به ومسح بيده ودعا . . . فانخرق من الماء، كما يقول من سمعه، ما له حسّ كحسّ الصواعق، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه» (ج ٤، ص١٣٤).

المعجزات النبوية طبقاً للماوردي

بعد قرنين بالضبط، أي في النصف الأول من القرن الخامس، كان عدد هذه المعجزات النبوية العشر قد تضاعف أربع مرات ليبلغ نحواً من أربعين لدى أبي الحسن الماوردي في **أعلام النبوة**، وهذا إذا حصرنا هذه المعجزات ـ أو الأعلام كما يؤثر الماوردي أن يقول ـ بمعجزات أفعال الرسول دون معجزات أقواله وتنبؤاته. وأكثر هذه المعجزات ينحصر بتكثير الطعام أو تفجير عيون الماء أو شفاء العيون المصابة أو إنطاق الحيوانات أو تحريك الجمادات. وبما أنها ستتكرر، بحرفها أحياناً، لدى كتاب السيرة اللاحقين، فلن نتوقف إلا عند ما انفرد به الماوردي دون من تقدمه أو تأخر عنه، أو ما أعطاه من غائية خاصة لم يصرح بها أحد غيره من مؤرخي المعجزات خلا ابن كثير الدمشقي كما سنرى(٤).

فمن هذه المعجزات أن الرسول لما أتى الحديبية «وهي جافة قال للناس: إنزلوا، فقالوا يا رسول اللّه ما بالوادي ماء ننزل عليه، فأخرج سهماً فدفعه إلى البراء بن عازب وقال: اغرز هذا السهم في بعض قلب الحديبية وهي جافة، ففعل فجاش الماء، ونادى الناس بعضهم بعضاً: من أراد الماء؟ فلما أمر رسول اللّه (ص) بالرحيل قال للناس خذوا حاجتكم من الماء، ثم قال للبراء:

(٤) حينما نقول: «ما انفرد به الماوردي»، فهذا لا يعني بالضرورة أنه قد انفرد به فعلاً. فهو بلا شك ينقل عن غيره. ولكننا نقول ذلك ونحن نحيل إلى المصادر التي وصلتنا والتي أمكننا الاطلاع عليها. والحال أنها كثيرة هي المصادر التي لم تصلنا أو التي لم يتأتَّ لنا الاطلاع عليها.

اذهب فردّ السهم». فلما فرغوا أو ارتحلوا أخذ البراء السهم، فجفّ الماء كأنه لم يكن هناك ماء به. وهنا يتدخل الماوردي ليعلق: «وهذا نظير ما أُعطي موسى من الحجر الذي تفجّرت منه اثنتا عشرة عيناً».

ومنها معجزة عبور الوادي التي تستحضر إلى ذهننا ـ كما استحضرت إلى ذهن الماوردي أصلاً ـ معجزة عبور البحر الأحمر التوراتية: «من أعلامه ما رواه علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه قال: لما غزونا خيبر ومعنا من يهود فدك جماعة فلما أشرفنا على القاع إذا نحن بالوادي والماء يقلع الأشجار ويهدهد الجبال، فقدَّرنا الماء فإذا هو أربع عشرة قامة. فقال بعض الناس: يا رسول اللّه، العدو من ورائنا والوادي قدامنا، فنزل رسول اللّه (ص) فسجد ودعا ثم قال: فسيروا على اسم اللّه، فعبرت الخيل والإبل والرجال، فكان الفتح والغلبة له». وهذا نظير فلق البحر لموسى(٥).

ومنها معجزة تحويل الماء المالح إلى زلال: فقد شكا قوم إلى الرسول «ملوحة مائهم فقام بأصحابه حتى أشرف على بئرهم، فتفل فيها ثم انصرف، فانفجرت بالماء الزلال، وكانت غائرة، وإنها على حالها اليوم ويتوارثها أهلها ويعدونها من أعظم مفاخرهم. ولما بلغ ذلك قوم مسيلمة سأله مثلها، فتفل فيها فصار ماؤها أجاجاً كبول الحمار، وهي إلى اليوم على حالها».

ومنها أخيراً أربع معجزات تناظر ـ بتصريح الماوردي ـ المعجزات المنسوبة إلى عيسى بن مريم، هذا إن لم تزد عليها بلاغة:

أولاها **معجزة تكثير الطعام**. ففي وقعة الخندق ـ التي عانى فيها أهل المدينة من الحصار وقلّت مؤونتهم ـ دعي الرسول إلى العشاء في بيت جابر بن عبد اللّه الذي كانت امرأته أعدت طعاماً لا يكفي لأكثر من أربعة رجال أو خمسة. ولكن لما قدم الرسول قدم معه مئات من الرجال ممن كانوا يعملون

(٥) لنا أن نلاحظ هنا أن كبرى الآيات المنسوبة إلى موسى قد انقلبت في القصة ضد قوم موسى أنفسهم، وهذا ما يُعطي المعجزة دلالة إضافية.

في حفر الخندق. وكان تعدادهم «ثمانمائة، أو مائتين أقل من الثمانمائة». فأكلوا جميعهم على دفعات، كل دفعة سبعة أو ثمانية، ثم قاموا فوجدوا التنور والبرمة [= القِدْر] «أملأ مما كانا» وكان ذلك، حسب تعبير الماوردي، «نظير معجزة عيسى عليه السلام في المائدة»(٦).

وثانيتهما **شفاء المجذومين**. فقد جاء طفيل العامري إلى النبي «فشكا له الجذام، فدعا بركوة ثم تفل فيها وأمره أن يغتسل بها، فاغتسل فقام صحيحاً. وأتاه قيس اللخمي، وهو من سادات قومه، وبه برص، فتفل عليه فما بقي عليه إلا مقدار الحبة. وهذا نظير ما كان من عيسى بن مريم عليه السلام في إبراء الأكمه والأبرص».

وثالثتهما **إحياء الموتى** . «فقد شكا له رجل موت ابنته، فانطلق معه إلى الوادي حيث دفنت فأحياها، ولكنه لما عرض عليها أن يردّها إلى أبويها بعد أن أسلما قالت: لا حاجة لي فيهما، وجدت اللّه خير أب منهما، وهذا نظير ما فعله عيسى عليه السلام من إحياء الموتى»(٧).

وأخيرتها **تسبيح الحصى**. «فمن آياته (ص) أن مكرزاً العامري أتاه فقال: هل عندك من برهان نعرف به أنك رسول اللّه؟ فدعا بتسع حصيات، فسبحن في يده، فسمع نغماتها من جمودتها، وهذا أبلغ من إحياء عيسى للموتى»(٨).

---

(٦) خبر هذه المعجزة كان ذكره ابن هشام في **السيرة** كما رأينا، ولكن بألفاظ مختلفة، وبدون توظيف غائي لمضارعة معجزات المسيح. وأما تفسير المعجزة فيعود ـ كما سيذكر القاضي عياض ـ إلى أن «رسول اللّه (ص) كان بصق في العجين والبرمة، وبارك».

(٧) سيأتي خبر هذه المعجزة بمزيد من التفصيل لدى القاضي عياض في **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**.

(٨) جميع شواهدنا من الماوردي مأخوذة من كتابه **أعلام النبوة** ، مكتبة مشكاة الإسلامية الالكترونية، ص ١٥٨ ـ ١٧١ .

المعجزات النبوية طبقاً للبيهقي

رغم الضخامة النسبية لكتاب **دلائل النبوة** للبيهقي، المعاصر زمنياً للماوردي، فإنه يكاد لا يأتي بجديد سوى أنه يتوسّع في ما ورد عند من تقدّمه موجزاً أو يأتي بروايات متعدّدة للمعجزة الواحدة مضيفاً إلى تفاصيلها تفاصيل. وعلى هذا النحو، فإن أولى المعجزات النبوية التي يوجزها ابن هشام في أربعة أسطر عن «سلام الحجر والشجر عليه(ص)» عند خروجه لقضاء حاجته، يفرد لها البيهقي، تحت عنوان «انقياد الشجر لنبينا محمد»، باباً بكامله يستغرق عدّة صفحات ويورد فيه لتلك المعجزة الأولى ثلاث روايات ينقل أولاها على لسان جابر بن عبد الله الأنصاري فيقول: «عن جابر بن عبد الله قال: سرنا مع رسول الله حتى نزلنا وادياً أفيح، فذهب رسول الله يقضي حاجته، وأتبعته بأداوة من ماء، فنظر رسول الله فلم ير شيئاً يستتر به، وإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله الى إحداهما، فأخذ بغصن من أغصانها فقال: انقادي عليّ بإذن الله، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصن من أغصانها فقال: انقادي عليّ بإذن الله، فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالمنصّف فيما بينهما لأم بينهما، يعني جمعهما، فقال: التئما عليّ بإذن الله، فالتأمتا. قال جابر: فخرجت أحفر مخافة أن يحسّ رسول الله بقربي فيبتعد، فجلست أحدّث نفسي فحانت مني لفتة، فإذا برسول الله مقبل، وإذا الشجرتان قد افترقتا فقامت كل واحدة منهما على ساق»[٩].

ومع أن الرواية الثانية منقولة هي الأخرى على لسان جابر بن عبد الله، فإنها تختلف عن الأولى في تفاصيلها اختلافاً بيّناً: «عن جابر قال: خرجت مع رسول الله في سفر، وكان رسول الله إذا أراد البراز تباعد حتى لا يراه أحد،

(٩) الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي: **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٥ هجرية، ج٦، ص ٨.

فنزلنا منزلاً بفلاة من الأرض ليس فيها علم ولا شجر، فقال لي: يا جابر، خذ الأداوة وانطلق بنا، فملأت الأداوة ماء، فانطلقنا فمشينا حتى لا نكاد نرى، فإذا شجرتان بينهما أذرع، فقال رسول الله: يا جابر انطلق فقل لهذه الشجرة يقول لك رسول الله إلحقي بصاحبتك حتى أجلس خلفكما، ففعلت، فرجعت حتى لحقت بصاحبتها، فجلس خلفهما حتى قضى حاجته» (ج٦، ص ١٨).

أما الرواية الثالثة فمروية هذه المرة على لسان يعلى بن مرّة بن أبي مرّة الثقفي، قال: «سافرت مع رسول الله سفراً فرأيت منه أشياء عجباً، نزلنا منزلاً فقال انطلق إلى هاتين الأشاءتين (=النخلتين) فقل إن رسول الله يقول لكما أن تجتمعا، فانطلقت فقلت لهما ذلك، فانتزعت كل واحدة منهما من أصلها فنزلت كل واحدة إلى صاحبتها فالتقتا جميعاً، فقضى رسول الله حاجته من ورائهما ثم قال: انطلق فقل لهما فلتعد كل واحدة إلى مكانها، فأتيتهما فقلت لهما ذلك، فنزلت كل واحدة حتى عادت إلى مكانها» (ج٦، ص٢١)(١٠)

كذلك يسوق البيهقي ثلاث روايات متباينة في أسانيدها وتفاصيلها عن القصة التي كان ساقها ابن هشام، نقلاً عن ابن إسحاق، عن مصارعة الرسول لركانة بن عبد يزيد رهاناً على إسلامه. وثالثة هذه الروايات هي أكثرها تفصيلاً، ولكن أكثرها اختلافاً أيضاً لأنها تنتهي، لا بإسلام ركانة، بل ببقائه على شركه. تقول هذه الرواية على لسان أبي الملك عليّ بن الشامي:

«كان رجل من بني هاشم يقال له ركانة وكان من أقتل الناس وأشدّهم، وكان مشركاً وكان يرعى غنماً له في واد يقال له إضم، فخرج نبي الله من بيت عائشة ذات يوم فتوجه قبَل ذلك الوادي فلقيه ركانة وليس مع النبي أحد،

---

(١٠) لنا أن نلاحظ أن فاعل المعجزة في هذه الرواية ليس الرسول نفسه، بل يعلى بن مرة بن أبي مرة بالوكالة عن الرسول وبأمر منه. وفي رواية أخرى يسوقها البيهقي أن هذا الفاعل بالوكالة ليس أحداً آخر سوى الصحابي أسامة بن زيد.

فقام إليه ركانة فقال يا محمد أنت الذي تشتم آلهتنا اللات والعزى وتدعو إلى إلهك العزيز الحكيم ولولا رحم بيني وبينك ما كلمتك الكلام، يعني أقتلك، ولكن ادع إلهك العزيز الحكيم ينجيك مني وسأعرض عليك أمراً: هل لك أن أصارعك وتدعو إلهك العزيز الحكيم يعينك عليّ فأنا أدعو اللات والعزى، فإن أنت صرعتني فلك عشر من غنمي هذه تختارها، فقال عند ذلك نبي الله: نعم إن شئت، فاتخذا، ودعا نبي الله إلهه العزيز الحكيم أن يعينه على ركانة ودعا ركانة اللات والعزى: أعنّي اليوم على محمد، فأخذه النبي فصرعه وجلس على صدره فقال ركانة: قم فلست أنت الذي فعلت بي هذا إنما فعله إلهك العزيز الحكيم، وخذله اللات والعزى، وما وضع جنبي أحد قبلك، وقال ركانة :عد فإن أنت صرعتني فلك عشر أخرى تختارها، فأخذه نبي الله، ودعا كل واحد منهما إلهه كما فعلا أول مرة، فصرعه نبي الله فجلس على كبده فقال له ركانة: قم فلست أنت الذي فعلت بي هذا إنما فعله إلهك العزيز الحكيم، وخذله اللات والعزى، وما وضع جنبي أحد قبلك، وقال له ركانة: عد فإن أنت صرعتني فلك عشر أخرى تختارها، فأخذه نبي الله ودعا كل واحد منهما إلهه فصرعه نبي الله الثالثة، فقال له ركانة لست أنت الذي فعلت بي هذه وإنما فعله إلهك العزيز الحكيم، وخذله اللات والعزى، فدونك ثلاثين شاة من غنمي فاخترها، فقال له النبي: ما أريد ذلك ولكني أدعوك إلى الإسلام يا ركانة وأنفس بك أن تصير إلى النار، إنك إن تسلم تسلم، فقال له ركانة: لا إلا أن تريني آية، فقال له نبي الله: الله عليك شهيد إن أنا دعوت ربي فأريتك آية لتجيبنني إلى ما أدعوك إليه، قال: نعم، وقريب منه شجرة سمر ذات فروع وقضبان، فأشار إليها نبي الله وقال لها أقبلي بإذن الله، فانشقت باثنتين فأقبلت على نصف شقها وقضبانها وفروعها حتى كانت بين يدي نبي الله وبين ركانة، فقال له ركانة: أريتني عظيماً فمرها فلترجع، فقال له نبي الله: عليك الله شهيد إن أنا دعوت ربي عز وجل أمر بها فرجعت لتجيبنني إلى ما أدعوك إليه، قال نعم، فأمرها فرجعت بقضبانها وفروعها حتى

التأمت بشقها، فقال له النبي: أسلم تسلم، فقال له ركانة: ما بي إلا أن أكون رأيت عظيماً ولكني أكره أن تتحدث نساء المدينة وصبيانهم أني إنما جئتك لرعب دخل قلبي منك، ولكن قد علمت نساء أهل المدينة وصبيانهم أنه لم يضع جنبي قط ولم يدخل قلبي رعب ساعة قط ليلاً ولا نهاراً، ولكن دونك فاختر غنمك، فقال له النبي: ليس لي حاجة إلى غنمك إذ أبيت أن تسلم، فانطلق نبي الله راجعاً، وأقبل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يلتمسانه في بيت عائشة فأخبرتهما أنه قد توجه قبَل وادي إضم وقد عرف أنه وادي ركانة لا يكاد يخطئه، فخرجا في طلبه وأشفقا أن يلقاه ركانة فيقتله، فجعلا يصعدان على كل شرف ويتشرفان مخرجاً له، وإذ نظرا إلى نبي الله فقالا: كيف تخرج إلى هذا الوادي وحدك وقد عرفت أنه جهة ركانة وأنه من أقتل الناس وأشدهم تكذيباً لك، فضحك إليهما النبي ثم قال: أليس يقول الله عز وجل لي (والله يعصمك من الناس)، إنه لم يكن يصل إلي والله معي، فأنشأ يحدثهما حديثه والذي فعل به والذي أراه، فعجبا من ذلك فقالا: يا رسول الله أصرعت ركانة فلا والذي بعثك بالحق ما نعلم أنه وضع جنبه إنسان قط، فقال النبي: إني دعوت ربي فأعانني عليه، وإن ربي عز وجل أعانني ببضع عشرة وقوة عشرة» (ج٦، ص ٢٥٢-٢٥٤).

ولئن كانت الضخامة النسبية لمصنّف البيهقي عن «**دلائل النبوة**» تعود في المقام الأول إلى كثرة تنويعاته على الموضوعة الواحدة، فلنذكر له أنه يتفرّد عن غيره بما يعزوه من معجزات لا إلى النبي حصراً، بل إلى بعض صحابته، سواء أكانوا من المعروفين أم من المجهولين، فكأن الصحبة كافية وحدها لاكتساب القدرة على «خرق العادة» باللغة الأشعرية، والقوانين الفيزيائية والبيولوجية والكسمولوجية بلغة العلم الحديث. ففيما يتعلق بخرق القوانين الفيزيائية-وهي أهون الخروق شأناً وأقربها الى ألعاب الخفة- ما يورده البيهقي، نقلاً عن البخاري في **صحيحه**، من روايات عن إضاءة أصابع بعض الصحابة أو إضاءة العصي بين أيديهم لتنير لهم الطريق في ظلماء الليالي. ونموذج هذه الروايات

الرواية التالية: «قال البخاري: حدثنا. . . عن. . . عن أنس بن مالك قال: كان عباد بن بشر وأسيد بن حضير عند رسول الله فتحدثا عنده حتى إذا خرجا أضاءت لهما عصا أحدهما فمشيا في ضوئها، فلما تفرّق بهما الطريق أضاءت لكل واحد منهما عصاه فمشى في ضوئها» (ج٦، ص٧٨).

وبالمقابل، إن الروايات عن خرق القوانين البيولوجية والكسمولوجية تقودنا مباشرة إلى الماورائيات السحرية لعالم ما بعد الموت. فمصنّف **دلائل النبوة** يفرد باباً مطوّلاً لمن عاش ولمن تكلّم بعد الموت بدون أن يكون لبطل أشباه هذه المعجزة من سلاح آخر لتحدي قوانين الحياة والموت سوى «الصحبة».

ففي باب «ما جاء في المهاجرة إلى النبي التي أحيا الله تعالى بدعائها ولدها بعد ما مات» يسوق ثلاث روايات موضوعة على لسان أنس بن مالك أنه قال: «كنا في الصفّة عند رسول الله فأتته امرأة مهاجرة ومعها ابن لها قد بلغ، فأضاف المرأة إلى النساء وأضاف ابنها إلينا، فلم يلبث أن أصابه وباء المدينة فمرض أياماً ثم قبض، فغمضه النبي وأمر بجهازه، فلما أردنا أن نغسله قال: يا أنس ائت أمه فأعلمها، قال فأعلمتها، فجاءت حتى جلست عند قدميه فأخذت بهما ثم قالت: اللهم إني أسلمت لك طوعاً وخلعت الأوثان زهداً وهاجرت إليك رغبة، اللهم لا تشمت بي عبدة الأوثان ولا تحملني من هذه المصيبة ما لا طاقة لي بحمله، قال فو الله ما تقضّى كلامها حتى حرك قدميه وألقى الثوب عن وجهه وعاش حتى قبض رسول الله وحتى هلكت أمه» (ج٦، ص ٥٢)[١١]

(١١) لنلاحظ أن البيهقي نفسه يضطر إلى إبداء بعض الحذر - بعضه لا أكثر - إذ يعلّق في نهاية الرواية كما ينقلها عن أبي الملك عليّ بن الشامي بقوله: «أبو الملك هذا، عليّ بن الشامي، ليس بقويّ، إلا أن معه ما يؤكد حديثه، والله أعلم». ولنلاحظ أيضاً أن البيهقي يتحفظ لا على مضمون الحديث، بل على سنده. وذلك هو العيب المكتوم في كل المعمار الابستمولوجي للمدوّنة الحديثية الهائلة الضخامة في التراث العربي الإسلامي.

وإذا كانت هذه الرواية لا تسمّي المرأة المهاجرة صاحبة المعجزة باسمها، فإن الرواية التالية عمن تكلّم بعد الموت تسمّي واحداً من أشهر صحابة الرسول: زيد بن خارجة الأنصاري. فعن سعيد بن المسيب في إسناد يصفه البيهقي بأنه «صحيح وله شواهد» أن «زيد بن خارجة الأنصاري توفي زمن عثمان بن عفان فسجّي في ثوبه ثم أنهم سمعوا جلجلة في صدره ثم تكلم ثم قال: أحمد أحمد في الكتاب الأول، صدق صدق أبو بكر الصديق الضعيف في نفسه القوي في أمر الله في الكتاب الأول، صدق صدق عمر بن الخطاب القوي الأمين في الكتاب الأول، صدق صدق عثمان بن عفان على منهاجهم، مضت أربع وبقيت اثنتان، أتت الفتن وأكل الشديد الضعيف وقامت الساعة» (ج٦، ص٥٥)[١٢].

بل إن العبارة التي نطق بها زيد بن خارجة بعد موته تنسب، في رواية أخرى موضوعة على لسان عليّ بن عاصم، إلى «رجل من الأنصار من القتلى يوم صفين أو يوم الجمل»، إذ «بينما هم يصورون القتلى يوم صفّين أو يوم الجمل إذ تكلم رجل من الأنصار من القتلى فقال: محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الشهيد، عثمان الرحيم، ثم سكت» (ج٦، ص ٥٨).

بل إن العبارة نفسها تنسب في رواية ثالثة، لا إلى زيد الأنصاري، ولا إلى رجل مجهول من الأنصار، بل إلى مشرك من «قتلى مسيلمة» طبقاً لرواية خالد الطحان الذي نُقل عنه أكثر من أثر في «التكلم بعد الموت». فقد روى عن «جماعة بأسانيد صحيحة» أن «رجلاً من قتلى مسيلمة تكلم فقال: محمد

(١٢) علاوة على التوظيف السياسي المباشر لقصّة هذه المعجزة، فلنلاحظ أن زيد بن خارجة، الذي توفي في السنة الرابعة من خلافة عثمان، لم يتكلم فقط بعد الموت، بل تنبأ أيضاً بـ «الفتنة» التي ستنشب بعد سنتين ويلقى فيها عثمان مصرعه. والجدير بالذكر أن البخاري كان تبنى الرواية نفسها في كتاب **التاريخ الكبير** بقوله: «زيد بن خارجة الخزرجي الأنصاري شهد بدراً، توفي في زمن عثمان، هو الذي تكلم بعد الموت».

رسول الله، أبو بكر الصديق، عثمان الأمين الرحيم، لا أدري أيش قال لعمر» (ج٦، ص ٥٨)[١٣].

لكن كبرى المعجزات المصنّفة في باب من عاش أو تكلّم بعد الموت تبقى هي تلك المنسوبة إلى العلاء بن الحضرمي، إذ «تُخرق فيها العادة» على المستوى الكسمولوجي فضلاً عن البيولوجي، وتقترن معجزة الحياة بعد الموت بمعجزة شق البحر على الطريقة الموسوية والمشي فوق الماء على الطريقة العيسوية. فعن أنس بن مالك أيضاً يروي البيهقي: «قال: ثم جهز عمر بن الخطاب يعني جيشاً، واستعمل عليه العلاء بن الحضرمي، قال وكنت في غزاته فأتينا مغازينا فوجدنا القوم قد نذروا بنا فعفوا آثار الماء، قال والحر شديد فجهدنا العطش ودوابنا وذلك يوم الجمعة، قال فلما مالت الشمس لغربها صلى بنا ركعتين ثم مد يده وما نرى في السماء شيئاً، قال فوالله ما حط يده حتى بعث الله ريحاً وأنشأ سحاباً فأفرغت حتى ملأت الغدر والشعاب فشربنا واستقينا وأسقينا ثم أتينا عدونا وقد جاوزوا خليجاً في البحر إلى جزيرة، فوقف على الخليج وقال يا علي يا عظيم يا حليم يا كريم، ثم قال أجيزوا باسم الله قال فأجزنا ما يبلّ الماء حوافر دوابنا، فأصبنا العدو غيلة فقتلنا وأسرنا وسبينا ثم أتينا الخليج فقال مثل مقالته، فأجزنا ما يبلّ الماء حوافر دوابنا، فلم نلبث إلا يسيراً حتى رؤي في دفنه، قال فحفرنا له وغسلناه ودفناه، فأتى رجل بعد فراغنا من دفنه فقال من هذا فقلنا: هذا خير البشر هذا ابن الحضرمي، فقال: إن هذه الأرض تلفظ الموتى فلو نقلتموه إلى ميل أو ميلين إلى أرض تقبل الموتى، فقلنا ما جزاء صاحبنا أن نعرضه للسباع تأكله، قال فاجتمعنا على نبشه، قال فلما وصلنا إلى اللحد إذا صاحبنا ليس فيه وإذا

(١٣) بما أن العبارة المنطوق بها في الروايتين واحدة، على عظَم فارق الإسلام والشرك، فقد رأى البيهقي لزاماً عليه أن يتدخل ليفصل - ولكن دوماً على صعيد الإسناد - فيقول: «خالد الطحان أحفظ من علي بن عاصم وأوثق، والله أعلم».

اللحد مد البصر نور يتلألأ، قال فأعدنا التراب إلى القبر ثم ارتحلنا» (ج٦، ص ٥٢-٥٤)[١٤].

يبقى أن نختم بملاحظتين:

أولاهما أن البيهقي كان من السباقين إلى القول بأن الرسول كان «أكثر الرسل آيات وبيّنات، وذكر بعض أهل العلم أن أعلام (=دلائل) نبوته تبلغ ألفاً» (ج١، ص١٠).

وثانيتهما أنه افتتح كتابه بالقول: «أما العَلم الذي اقترن بدعوته ولم يزل يتزايد أيام حياته ودام في أمته بعد وفاته فهو القرآن العظيم المعجز المبين وحبل الله المتين» (ج١، ص١٠).

وتوكيداً منه على أن القرآن هو من الله وليس من النبي البشر يحيل قارئه من فاتحة كتابه إلى نظريتي الإعجاز البياني للقرآن والتحدي التعجيزي للبشر عن الإتيان بمثله، أو حتى بسورة منه، ويخلص إلى الاستنتاج: «قال من أنزله: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)، فأبان جل جلاله أنه أنزله على وصف مباين لأوصاف كلام البشر، وأعلَمَ أن أحداً لا يستطيع أن يأتي بمثله، ثم أمره أن يتحداهم فقال (قل فائتوا بعشر سور مثله مفتريات) ثم نقصهم تسعاً فقال (فائتوا بسورةٍ من مثله) . . . فطالت المهلة والنظرة لهم في ذلك، وتواترت الوقائع والحروب بينه وبينهم، فقتلت صناديدهم وسبيت ذراريهم ونساؤهم وانتهبت أموالهم، ولم يتعرض أحدٌ لمعارضته، فلو قدروا عليها لافتدوا بها أنفسهم وأولادهم وأهاليهم وأموالهم، ولكان الأمر في ذلك قريباً سهلاً عليهم

(١٤) لابن الحضرمي عند البيهقي، ومن قبله عند البخاري، صنو أو نصف صنو، هو أبو مسلم الخولاني الذي شقّ هو الآخر البحر كما شقه ابن الحضرمي صنيع موسى، ولكن لم يقم من القبر كما قام ابن الحضرمي صنيع عيسى.

إذ كانوا أهل لسان وفصاحة وشعر وخطابة، فلما لم يأتوا بذلك ولا ادعوه صح أنهم كانوا عاجزين عنه.

وفي ظهور عجزهم بيان أنه في العجز مثلهم إذ كان بشراً مثلهم، لسانه لسانهم وعاداته عاداتهم وطباعه طباعهم وزمانه زمانه، وإذا كان كذلك وقد جاء بالقرآن وجب القطع بأنه من عند الله تعالى وحده لا من عند غيره» (ج١، ص ١٢)..

ولئن سوّدنا العبارة ما قبل الأخيرة فكي نلاحظ أن البيهقي يتخذ من **بشرية** الرسول دليلاً على **إلهية** القرآن. ولا شك أنه بهذا التأويل يقترب اقتراباً كبيراً من الصورة القرآنية للرسول كما تقدّم بيانها في أول فصول هذا الكتاب. ولكن البيهقي، الذي يفرد صفحة واحدة يتيمة من مصنّفه الكبير لتوكيد بشرية الرسول وللمعادلة بينها وبين بشرية سائر البشر من قومه في العجز كما في اللسان والعادات والطباع والزمان، هو نفسه بالمقابل من يخصص الثلاثة آلاف صفحة التالية من مصنّفه لينفي المثلية البشرية للرسول وليؤكد، من خلال استعراض الآيات والمعجزات المنسوبة إليه، مفارقته للشرط البشري وتمتعه بقوى وطاقات وقدرات هي فوق قوى البشر وطاقاتهم وقدراتهم بما لا يقاس. ومن هنا يحقّ التساؤل: ألا يكون مصنّف **دلائل النبوة** بذلك قد قوّض بنفسه استدلاله الافتتاحي عن إلهية القرآن بدالّة بشرية الرسول؟ ومن ثمّ ألا يكون قد حجب شمس المعجزة القرآنية وراء ستار كثيف من نحو مئة معجزة نبوية عرضها في طيّات ثلاثة آلاف صفحة ونيّف، علماً بأن البيهقي نفسه هو من يؤكد أن الإعجاز البياني للقرآن «أعجب في الآية وأوضح في الدلالة من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص»؟ (ج١، ص ١٦).

المعجزات النبوية طبقاً للقاضي عياض

بعد ثلاثة قرون من ابن هشام، وتحديداً في النصف الأول من القرن السادس، كان عدد المعجزات العشر عند صاحب **السيرة الهشامية** قد تضاعف

اثنتي عشرة مرة ليبلغ نحواً من مئة وعشرين لدى القاضي عياض في **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**. ولعل مقارنة إحصائية أخرى تفرض نفسها هنا. فالقاضي عياض، المتوفى سنة ٥٤٤ للهجرة، هو من أبرز مجتهدي المدرسة المالكية وممن ساهم في كتابه **ترتيب المدارك وتقريب المسالك** في تأسيس ما يشبه العبادة لإمام المذهب مالك بن أنس الذي لا يتردد في رفع **موطئه** إلى منزلة القرآن بعد القرآن مؤكداً على لسان ابن المهدي أنه «ما كتاب بعد كتاب الله أنفع للناس من كتاب **الموطأ**، ولا أعلم من علم الإسلام بعد القرآن أصح من **موطأ** مالك». والحال أن مالكاً نفسه لم ينسب الى الرسول في **الموطأ** سوى ثلاث معجزات، واحدة في تكثير الطعام، وثانية في تكثير ماء الشرب، وثالثة في تكثير ماء الوضوء، وهذا في سياق أحكام الطهارة والصلاة والطعام، وبدون أن يفرد باباً للمعجزات خاصاً بها. وهكذا، وبالمقارنة مع الأستاذ، يكون التلميذ قد ضاعف عدد المعجزات النبوية أربعين ضعفاً. وبالموازاة مع هذه المضاعفة، ازدادت المعجزات بقلمه غرائبية وطالت، فضلاً عن الظواهر الطبيعية، الحيوانات والجمادات. ولم تقتصر على تكثير الماء والطعام، ولا حتى على «إبراء المرضى وذوي العاهات» كما يقول عنوان أحد فصول **الشفا**، بل شملت كذلك «إحياء الموتى وكلامهم» كما يقول عنوان فصل آخر يكرر ما كان ذكره البيهقي ويزيد عليه. بل إن المعجزات الثلاث التي أوردها مالك في تكثير الماء والطعام يتضاعف عددها عند القاضي إلى ثلاثين. علاوة على ذلك نراه يفرد فصلاً بكامله «في كلام الشجرة وشهادتها له بالنبوة». وهكذا يروي على لسان ابن عمر أنه قال: «كنا مع رسول اللّه (ص) في سفره، فدنا منه أعرابي، فقال: يا أعرابي أين تريد؟ قال: إلى أهلي. قال: هل لك إلى خير؟ قال: وما هو؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا اللّه لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. قال: من يشهد لك على ما تقول؟ قال: هذه الشجرة السمرة، وهي بشاطئ الوادي، وادعها فإنها تجيبك. فأقبلت تخدّ الأرض حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً، فشهدت أنه كما قال: ثم رجعت إلى مكانها». وفي

رواية أخرى عن بريدة أن الشجرة عينها «مالت عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها، فتقطعت عروقها، ثم جاءت تخدّ الأرض حتى وقفت بين يدي رسول اللّه (ص)، فقالت السلام عليك يا رسول اللّه. قال الأعرابي: مرها فلترجع إلى منبتها، فرجعت: فقال الأعرابي: ائذن لي أسجد لك. قال: لو أمرت أحداً أن يسجد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها[١٥]. قال: فأذن لي أن أقبّل يديك ورجليك، فأذن له»[١٦].

وفي باب إنطاق الجمادات يورد القاضي نحواً من عشر معجزات للرسول، منها «تسبيح الطعام وهو يؤكل بين يديه، وتسبيح طبق فيه رمان وعنب، فأكل منه النبي (ص)، فسبح»، وتسبيح الشجر والحجر والحصى[١٧].

وفي فصل عن «الآيات في ضروب الحيوانات» يورد عدداً من المعجزات عن إنطاق الحيوانات من ذئب وحمار وبعير وغنم، وتجد نموذجها الأكثر تعبيراً في قصة الضب. فقد روى نقلاً عن ابن عمر أن الرسول «كان في محفل من أصحابه إذ جاء أعرابي قد صاد ضباً، فقال: من هذا؟ قالوا: نبي اللّه فقال: واللات والعزى، لا آمنت بك أو يؤمن هذا الضب، وطرحه بين يدي النبي (ص)، فقال النبي (ص): يا ضب، فأجابه بلسان مبين يسمعه القوم جميعاً: لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة قال: فمن أنا؟ قال: رسول

---

(١٥) لهذه الرواية صيغ شتى، ولكن جميع هذه الصيغ، التي تنطق فيها العجماوات كما الجمادات، تختم دوماً بالقول على لسان الرسول: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».

(١٦) القاضي عياض، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، مكتبة مشكاة الالكترونية، ص ١٠٦.

(١٧) قصّة تسبيح الحصى لا تخلو من صناعة سياسية بهدف إضفاء طابع معجز على عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل دون رابعهم علي. فقد روى القاضي عن أنس بن مالك أن النبي «أخذ كفاً من حصى، فسبحت في يد الرسول (ص) حتى سمعنا التسبيح، ثم صبّهن في يد أبي بكر رضي اللّه عنه فسبحن. وروى مثله أبو ذر وذكر أنهن سبَّحن في كف عمر وعثمان» (ص ١٠٩).

اللّه رب العالمين وخاتم النبيين، وقد أفلح من صدقك وخاب من كذبك. فأسلم الأعرابي» (ص١١٠).

وقد أشار القاضي إلى خلاف كبير دب في صفوف المتكلمين وأئمة النظر بخصوص كلام الجمادات. فهم لم يشككوا في صحة معجزة كلامها، ولكن انقسموا فريقين: فريق ذهب إلى أن اللّه هو الذي يخلق الكلام فيها دون تغيير أشكالها، وهو مذهب أبي الحسن الأشعري وأبي بكر الباقلاني، وفريق آخر ذهب إلى «إيجاد الحياة بها ثم الكلام بعده»، وبذلك تكون المعجزة معجزتين: معجزة خلق الحياة فيها أولاً، ثم معجزة خلق الكلام لها. وهذا ما ذهب إليه الجبائي من المعتزلة إذ أحال «وجود الكلام اللفظي إلا من حيّ مركّب يصح منه النطق بالحروف والأصوات، والتزم ذلك في الحصى والجذع والذراع[١٨]، وقال إن اللّه خلق فيها حياة وخلق لها فماً ولساناً وآلة أمكنها بها من الكلام» (ص ١١٤)[١٩]..

وفي هذا السياق عينه ـ نُطْق الجمادات والعجماوات ـ ينفرد القاضي برواية عن الواقدي مؤداها أن النبي «لما وجّه رسله إلى الملوك، خرج ستة نفر

---

(١٨) الجذع هو جذع النخل الذي كان يقوم إليه الرسول حين يخطب، فلما صنعوا له بدلاً منه منبراً أنّ الجذع وحنّ حتى أبكى أهل المسجد، وهذا طبقاً لحديث مشهور متواتر «رواه من الصحابة بضعة عشر» و «خرَّجه أهل الصحيح» بحسب تعبير القاضي عياض. أما الذراع فهي ذراع الشاة المشوية التي أخبرت الرسول بأنها مسمومة، وقد سمّتها ـ حسب الأحاديث المتواترة أيضاً ـ امرأة يهودية أرادت اغتياله.

(١٩) إذا كان الجبائي، وهو من متأخري المعتزلة نسبياً، يقرّ حسب ما يقوله القاضي عياض بمعجزات «الحصى والجذع والذراع»، فلنا أن نلاحظ أن متقدمي المعتزلة قد أنكروا بالمقابل المعجزات المنسوبة بخبر الواحد إلى النبي. فالنظّام مثلاً «أنكر ما روي في معجزات نبيّنا (ص) من انشقاق القمر وتسبيح الحصى في يده ونبوع الماء من بين أصابعه». بل «أنكر إعجاز القرآن في نظمه» (البغدادي: **الفرق بين الفرق**، ص١٧٦). كما أن ثمامة بن أشرس نفى أصلاً ضرورة المعجزة كدليل على النبوة وذهب إلى أنه «لا يحتاج النبي في الحجّة على نبوته إلى أكثر من سلامة شرعه» (البغدادي: **أصول الدين**، ص١١٤). ولكن من المؤسف أن أدبيات المعتزلة النفيية هذه لم تصلنا.

منهم في يوم واحد، فأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعث إليهم»[٢٠] (ص ١١٣).

ودوماً في سياق معجزات الكلام يورد القاضي عن وكيع أن «النبي (ص) أُتي بصبي قد شبّ لم يتكلم قط. فقال: من أنا؟ فقال: رسول اللّه. ثم إن الغلام لم يتكلم بعدها حتى شب، فكان يسمى مبارك اليمامة، وكانت هذه القصة في مكة في حجة الوداع» (ص ١١٤).

أما في سياق «إحياء الموتى وكلامهم» فيورد القاضي قصة أربع معجزات يتكلم فيها الأموات أو يعودون إلى الحياة، ومنها القصة التي كان أوردها الماوردي عن البنيّة التي جاء أبوها ـ وقد أسلم ـ إلى النبي ليطالبه بالتدخل بعد أن ماتت ودفنت «في وادي كذا، فانطلق معه إلى الوادي وناداها باسمها: يا فلانة، أجيبي بإذن اللّه، فخرجت وهي تقول لبيك وسعديك! فقال لها: إن أبويك قد أسلما، فإن أحببت أن أردك عليهما؟ قالت: لا حاجة لي فيهما، وجدت اللّه خيراً منهما»[٢١] (ص ١١٤).

---

(٢٠) لنلاحظ أن هذه المعجزة ـ النطق باللغات الأعجمية عن غير سابق علم ـ تجد نموذجها الأول في المأثور العجائبي المسيحي. فقد جاء في **أعمال الرسل**، وهي بمثابة إنجيل خامس بعد الأناجيل الأربعة، أن رسل المسيح في اليوم الخمسين لقيامته، كانوا مجتمعين كلهم في مكان واحد عندما دوّت السماء ونزل عليهم من الروح القدس لسان كأنه من نار على رأس كل واحد منهم، و«أخذوا يتكلمون بلغات غير لغتهم، فتجمهر الناس ـ وكانوا في أورشليم من أمم شتى ـ وقد أخذتهم الدهشة «لأن كلاً منهم كان يسمعهم يتكلمون بلغة بلده» (**الإنجيل وأعمال الرسل**، الطبعة السادسة، دار المشرق، بيروت ١٩٨٢، ص ٤٦٩. وستتكرّر معجزة اللغات في كل مرة يذهب فيها هؤلاء الرسل للتبشير في بلدان وأمم لا يتقنون لغتها.

(٢١) لنلاحظ أنه في قصة إحياء البنيّة وتكليمها هذه هناك على كل حال تدخل للرسول. ولكن في قصتين أخريين عن تكلّم الموتى تقع المعجزة حتى بدون تدخل الرسول كما في قصّة كلام زيد بن خارجة بعد موته، وكلام ثابت بن قيس بعد مقتله. ولنلاحظ أيضاً في الحالتين أن الموتى لا يتكلمون، عندما يتكلمون، إلا في السياسة. وهكذا روي عن عبد اللّه بن عبيد اللّه الأنصاري أنه كان «فيمن دفن ثابت بن قيس، فسمعناه حين أدخلناه القبر يقول: «محمد رسول اللّه، أبو بكر الصديق، عمر الشهيد، عثمان البرّ الرحيم».

وفي فصل تالٍ عن «إجابة دعائه صلى اللّه عليه وسلم» يورد القاضي عدداً من المعجزات التي تشهد على أن الرسول «كان إذا دعا لرجل أدركت الدعوة ولده وولد ولده». ولكن بالإضافة إلى المعجزات الإيجابية التي يوردها توكيداً لذلك، يورد أيضاً معجزات سلبية حدثت تلبية لتحول دعائه من «له» إلى «عليه». فقد «دعا على صبي قطع عليه الصلاة أن يقطع اللّه أثره، فأُقعد». وقال لعتبة بن أبي لهب: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك، فأكله الأسد. ودعا على محلم بن جثامة فمات لسبع، فلفظته الأرض، ثم ووري فلفظته مرات، فألقوه بين صدين [= الصد جانب الوادي] ورضموا عليه بالحجارة»(٢٢) (ص ١١٧).

ولئن لم يكن القاضي عياض هو أول من فتح باب المعجزات السالبة(٢٣)،

---

(٢٢) لا يملك المرء إلا أن يلاحظ أن بعض المعجزات المنسوبة إلى الرسول تكاد تكون أقرب إلى الدسيسة منها إلى المأثرة، إذ كيف كان للنبي أن يدعو على **ولد** أن يقعده الله لمجرد أنه قطع عليه صلاته ؟ فأين السماحة النبوية؟ وكيف كان لله نفسه أن يستجيب لدعائه؟ فأين العدل الإلهي؟ على أي حال، إن رواة متأخرين لنفس «المعجزة» انتبهوا على ما يبدو لما فيها من عيب في الصياغة، فجعلوا من الولد **رجلاً**؛ وهكذا **روى** الحلبي في **السيرة** أن «النبي(ص) وهو بتبوك صلى إلى نخلة فجاء شخص فمرّ بينه وبين تلك النخلة بنفسه، وفي رواية أنه على حمار، فدعا عليه فقال: قطَع صلاتنا، قطع الله أثره، فصار مقعداً». لكن حتى إذا كان قاطع صلاة الرسول رجلاً، لا ولداً، فما جريرته ما دام لم يفعل عن قصد؟ ثم أليس الرسول نفسه مأموراً في القرآن أن «خذ العفو وأمر بالعرف»؟

(٢٣) أول من فتح باب المعجزات السالبة من كتّاب السيرة هو ابن إسحاق، وذلك في معرض بيان العقوبات التي أنزلت بالمستهزئين بالرسول من وجهاء مشركي قريش. ولكن ابن إسحاق كان نسب هذه المعجزات الانتقامية إلى جبريل. وبالمقابل، إن أول من نسبها إلى الرسول نفسه، وإن بوساطة جبريلية، فهو على حد علمنا علي بن ربن الطبري في كتابه **الدين والدولة** الذي كتبه في عهد المتوكل في الربع الثاني من القرن الثالث. ومما رواه في هذا الباب أن «خمسة نفر من رؤساء المشركين كانوا يستهزئون به [= الرسول] ويؤذونه، فنزل عليه جبريل عليه السلام وقال له: إذا طافوا بالبيت فَسَل اللّه فيهم ما أحببتَ، فإني فاعله بهم. فمرّ به أحدهم وهو لهب (في الرواية أعلاه أنه عتبة) بن أبي لهب في الطواف، فقال النبي (ص) أكلك كلب اللّه، فأكله الأسد. ثم مرّ به الوليد بن المغيرة فأومأ النبي إلى جرح كان في باطن =

فقد أفرد بالمقابل فصلاً مطولاً لما سماه «انقلاب الأعيان له (ص) فيما لمسه وباشره». وفي هذا الفصل نجد أنفسنا أمام عملية تصنيم حقيقية لأشياء الرسول، ولكل ما يلمسه أو يلبسه، وعلى الأخص لتفله وبصاقه ونخامه ونفاثه ولعابه وماء وضوئه. وربما يكون ابن إسحاق هو من أعطى إشارة الانطلاق لهذا التصنيم حينما روى أن قريشاً بعثت عروة بن مسعود الثقفي لمفاوضة الرسول، فلما قابله و«رأى ما يصنع به أصحابه: لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه»، رجع إلى قريش وقال: «يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في مُلْكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني واللّه ما رأيت مَلِكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه»(٢٤).

وقد أحصى القاضي عياض ما لا يقل عن عشرين معجزة تتصل، لا «بأفعاله» ولا «بأقواله»، بل بإفرازاته وأشيائه، ومنها:

= رجله فانتقض عليه وقتله. ومرّ به الأسود بن عبد يغوث، فأومأ إلى بطنه فسُقي فمات. ثم مر به الأسود بن المطلب فرمى في وجهه ورقة [= شجرة] وقال: اللهم أعم بصره وأثكله ولده، فابتلي بذلك كله. ومرّ به العاص بن وائل، فأشار إلى أخمص رجلهِ، فدخلت في أخمصه شوكة فقتلته. ومر به الحارث بن الطلاطلة، فأومأ إليه فتفقأ قيحاً وهلك. وكُفي النبي (ص) أمر المستهزئين، وكانوا أجلّة القوم وأعلاهم (علي بن ربن الطبري: **الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد**، حققه عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٨٢، ص ٦٧ ـ ٦٩). (وهنا أيضاً سنلاحظ أن هذه الروح الانتقامية المعزوة إلى الرسول تتناقض والأمر القرآني للرسول بالعفو والعرف والصفح الجميل، على الأقل في الحقبة المكية التي فيها حصلت واقعة الاستهزاء. مثلما أنها تتناقض مع قاعدة قانونية عظيمة سنّها القرآن :«ولا تزر وازرة وزر أخرى» ؛ إذ كيف كان للرسول أن يدعو الله إلى أن يثكل الأسود بن المطلب في ابنه - فضلاً عن أن يعميه - علماً بأن من ارتكب الوازرة - الهزء من الرسول - هو الأب وليس الابن؟).

(٢٤) **السيرة الهشامية**، ج ٣، ص ٢٢٥. وقد تكرّست هذه القصّة في العديد من كتب الصحاح، وفي مقدمتها صحيح البخاري الذي روى أن «عروة جعل يرمق أصحاب النبي بعينيه قال: فواللّه ما تنخم رسول اللّه نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه» (الحديث رقم ٢٥٨٣).

- «مجّ في دلو من بئر، ثم صبّه فيها، ففاح منها ريح المسك» (ص ١٢٠).

- «وبزق في بئر كانت في دار أنس، فلم يكن بالمدينة أعذب منها» (ص ١١٨).

- «وأتي بدلو من ماء زمزم، فمج فيه، فصارت أطيب من المسك» (ص ١١٨).

- وأعطى الحسن والحسين لسانه فمصاه، وكانا يبكيان عطشاً، فسكتا» (ص ١١٨).

- «وكان يتفل في أفواه الصبيان المراضع فيجزئهم ريقه إلى الليل» (ص ١١٨).

- «وفي حديث حنش بن عقيل: سقاني رسول اللّه (ص) شربة من سويق شرب أولها وشربت آخرها، فما برحت أجد شبعها إذا جعت، وريها إذا عطشت، وبردها إذا ظمئت»(٢٥) (ص ١٢٠).

- «وقطع أبو جهل يوم بدر يد معوذ بن عفراء، فجاء يحمل يده، فبصق عليها رسول اللّه (ص)، وألصقها، فلصقت» (ص ١١٥).

- «وأتته امرأة من خثعم، معها صبي به بلاء لا يتكلم، فأُتي بماء

(٢٥) كثيرة هي أخبار المعجزات التي يظل مفعولها سارياً بعد حدوثها الأول، وحتى بعد وفاة الرسول نفسه، ومنها حديث أبي هريرة المشهور باسم حديث المزود [والمزْود وعاء للتمر يُعمل من أدم] الذي خرّجه الإمام أحمد والبيهقي والترمذي وآخرون: «قال أبو هريرة رضي اللّه عنه: أصاب الناس مخمصة [مجاعة]، فقال لي رسول اللّه (ص): هل من شيء؟ قلت: نعم، شيء من التمر في المزود. قال: فأتني به، فأدخل يده فأخرج قبضته، فبسطها ودعا بالبركة، ثم قال: ادعُ عشرة فأكلوا حتى شبعوا، ثم عشرة كذلك، حتى أطعم الجيش كلهم وشبعوا. قال: خذ ما جئت به، وأدخل يدك، واقبض منه ولا تكبّه. فقبضت على أكثر مما جئت به، فأكلت منه وأطعمت حياةَ رسول اللّه (ص) وأبي بكر وعمر، إلى أن قتل عثمان فانتهب مني وذهب».

فمضمض فاه وغسل يديه، ثم أعطاها إياه وأمرها بسقيه ومسه به، فبرأ الغلام، وعقل عقلاً يفضل عقول الناس» (ص ١١٦).

ـ ورُمي كلثوم بن الحصين يوم أحد في نحره، فبصق رسول اللّه (ص) عليه، فبرئ» (ص ١١٥).

ـ «ورُوي أن ابن الأسنة أصابه استسقاء، فبعث إلى النبي (ص)، فأخذ بيده حثوة من الأرض فتفل عليها، ثم أعطاها رسوله، فأخذها متعجباً، يرى أنه قد هزئ به، فأتاه بها، وهو على شفا (=الموت)، فشربها، فشفاه اللّه» (ص ١١٥).

ـ «وسكب من فضل وضوئه في بئر قباء فما نزفت بعد» (ص ١١٨).

ـ ونفث على ضربة بساق سلمة بن الأكوع يوم خيبر فبرئت، وفي رجل زيد بن معاذ حين أصابها السيف إلى الكعب فبرئت، وعلى ساق علي بن الحكم يوم الخندق إذ انكسرت، فبرئ مكانه، وما نزل عن فرسه» (ص ١١٥).

ـ «وأصيب خبيب بن يساف يوم بدر بضربة على عاتقه حتى مال شقه، فنفث عليه رسول اللّه (ص) حتى صح» (ص ١١٦).

وفضلاً عن هذه المعجزات التي كان الفاعل فيها لا الرسول بملء كيانه وإرادته، بل إفرازاته الجسدية من بصاق وتُفال ونفاث(٢٦)، يورد القاضي عياض معجزات أخرى للرسول كان الفاعل فيها أشياءه المادية، وكانت فاعليتها عن بعد بدون حضور شخصي للرسول، وقد استمرت تؤتي مفعولها

(٢٦) نستطيع أن نضيف إلى ذلك بوله ودمه. فممّن شرب بوله حسب ما يروي مصنف **السيرة الحلبية** حاضنته أم أيمن، وبركة بنت ثعلب خادمة زوجته أم حبيبة، فلم تعرفا منذ ذلك اليوم المرض. وممن شرب دمه علي بن أبي طالب، وعبد اللّه بن الزبير الذي غافل الرسول وشرب من دم حجامه، ومالك الخدري، والد أبي سعيد الخدري الذي امتص دم رسول اللّه ـ لما جرح في وقعة أحد ـ ثم ازدرده، فقال رسول اللّه (ص): «من مس دمي دمه لم تصبه النار» (**السيرة الحلبية** ج ٢، ص ٣١٩).

العجائبي حتى بعد وفاته. ففي روايتين موضوعتين على لسان أسماء بنت أبي بكر «أنها أخرجت جبة طيالسة، وقالت: كان رسول اللّه (ص) يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى، فيستشفون بها»، وكذلك: «كانت عندنا قصعة من قصاع النبي (ص)، فكنا نجعل فيها الماء للمرضى، فيستشفون بها»[٢٧].

المعجزات النبوية طبقاً لابن كثير

في القرن الثامن بقي عدد المعجزات ثابتاً لدى ابن كثير لم يتغير عما كان عليه لدى القاضي عياض في القرن السادس. ولكن مصنف **البداية والنهاية** ـ الذي جمع بين دفتيه أوسع سيرة نبوية معروفة لدينا ـ أحدث بالمقابل تغييراً منهجياً جذرياً في كيفية عرض المعجزات. فبدلاً من الاختصار بالعرض والاكتفاء بذكر معجزة واحدة مهما تعددت الروايات، عمد إلى فعل العكس، فذكر للمعجزة الواحدة شتى رواياتها حتى ولو بلغت عشراً.

وليس يخفى ما الغائية الكامنة وراء هذا الانقلاب في المنهج. فمعلوم أن

(٢٧) ستظل أشياء النبي، أو الأشياء التي يقال إنها أشياؤه، موضع تبجيل لأمد طويل بعد وفاته. ومشهورة من هذا المنظور قصة خاتمه الذي «لبسه بعده أبو بكر، ثم لبسه بعد أبي بكر عمر، ثم لبسه بعده عثمان حتى وقع في بئر أريس». ومشهورة أيضاً قصة بردته التي كان الرسول أعطاها أهل أيلة مع كتاب الأمان لهم، والتي يقال إن أبا العباس السفاح اشتراها منهم بثلثمائة دينار، فتوارثها سائر خلفاء بني العباس خلفاً عن سلف، إذ كان كل خليفة منهم «يلبسها يوم العيد على كتفيه، ويأخذ القضيب المنسوب إليه (صلوات اللّه عليه وسلامه) في إحدى يديه، فيخرج وعليه من السكينة والوقار ما يصدع به القلوب ويبهر به الأبصار» (ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج ٦، ص ٨). ولكن أقل شهرة من ذلك بكثير قصة نعله التي يفرد لها ابن كثير فصلاً بكامله من فصول باب «آثار النبي» ويروي فيه، مما يروي، إنه «اشتهر في حدود سنة ستمائة وما بعدها عند رجل من التجار يقال له ابن أبي الحدرد نعل مفردة ذكر أنها نعل النبي (ص)، فسامها الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل أبي بكر بن يعقوب منه بمال جزيل فأبى أن يبيعها، فاتفق موته بعد حين، فصارت إلى الملك الأشرف المذكور، فأخذها إليه وعظّمها، ثم لما بنى دار الحديث الأشرفية إلى جانب القلعة جعلها في خزانة منه، وجعل لها خادماً، وقُرر له من المعلوم كل شهر أربعون درهماً، وهي موجودة إلى الآن في الدار المذكورة» (**البداية والنهاية**، ج ٦، ص ٧).

قصص المعجزات قد جاءت كلها ـ كما يقر بذلك الماوردي في **أعلام النبوة** ـ عن طريق الأخبار الآحاد. والحال أن الأخبار الآحاد كانت على الدوام، في حقل نظرية المعرفة الإسلامية، موضع جدال وأخذ وردّ بصدد نصابها ودرجتها من المصداقية. ولكن عندما تتعدد الأخبار الآحاد عن الواقعة الواحدة ـ وهي هنا المعجزة ـ فإن تعددها هذا يوحي وكأنه يخفي وراءه إجماعاً، مما يرفع درجة الشك الذي يحيط بالخبر الواحد إلى درجة اليقين. وهذا هو الهدف الذي رمى إليه ابن كثير من وراء مراكمته الروايات المتعددة عن المعجزة الواحدة، وهذا ما صرّح به في أكثر من موضع من الفصل الطويل الذي عقده من **البداية والنهاية** وأفرده في كتاب مستقل تحت عنوان **كتاب دلائل النبوة**.

ومن ذلك على سبيل المثال ما فعله عند حديثه عن معجزة حنين الجذع عندما تحوَّل عنه الرسول إلى المنبر. ففي مطلع الباب الذي يفرده عن «حنين الجذع شوقاً إلى رسول اللّه وشغفاً من فراقه»، يقول: «وقد ورد من حديث جماعة من الصحابة بطرق متعددة تفيد القطع عند أئمة هذا الشأن وفرسان هذا الميدان»[(٢٨)]. ثم، بعد أن يورد تسعة أحاديث في هذا الشأن، ومن عشرين طريقاً ـ أي إسناداً ـ مختلفاً، ينتهي إلى الاستنتاج بحزم: «هذه الطريق من هذه الوجوه تفيد القطع بوقوع ذلك عند أئمة هذا الفن، وكذا من تأملها وأنعم فيها النظر والتأمل مع معرفته بأحوال الرجال»[(٢٩)].

---

(٢٨) ابن كثير: **البداية والنهاية** طبعة دار المعارف المصورة، بيروت ١٩٧٧، ج ٦ ص ١٢٥.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ١٣٢. ولنلاحظ مع ذلك أن هذه المنهجية القطعية، التي تتخذ من الكثرة معياراً لليقين، لا تمنع مصنِّف **البداية والنهاية** من توظيف كل طاقته النقدية ليطعن في صحة حديث من أحاديث المعجزات يعزو إلى الرسول آية رد الشمس بعد مغيبها. وهذا الحديث، المعزو في أكثر المصادر إلى أسماء بنت عميس الخثعمية، وفي بعضها إلى أبي هريرة وأبي سعيد الخدري، يقول في واحدة من صيغه المتداولة: «كان رسول اللّه (ص) يوحى إليه ورأسه في حجر عليّ، فلم يصلّ العصر حتى غربت الشمس: فقال رسول اللّه (ص): صليتَ العصر؟ قال: لا، فقال رسول اللّه (ص): اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة نبيك، فاردد عليه الشمس. قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعد ما غربت». =

وهذه المنهجية «القطعية» هي التي يعتمدها أيضاً عندما يتحدث عن معجزات تكثير الطعام أو إنباع الماء وتكثيره، وهي معجزات تكتسب أهمية خاصة في مجتمع القلة وشح الماء والطعام الذي كانه مجتمع المدينة ـ وشبه الجزيرة عموماً ـ قبل أن يتدفق عليه ناتج غنائم الفتوحات(٣٠). ففي باب «تكثيره عليه السلام الأطعمة» يورد نحواً من أربعين معجزة، ويورد أحياناً للمعجزة الواحدة وجوهاً وروايات متعددة تعتمد هذه الصيغة التي يكررها إلى ما لا نهاية: «حديث آخر في هذه القصة».

وقد كنا وجدنا نماذج من تكثير الطعام عند القاضي عياض، ولكنها عند ابن كثير أكثر تفصيلاً بكثير، وأكثر غرائبية أيضاً، ومنها:

ـ قصة قدح اللبن الذي أَشْرَبَ منه الرسول جميع أهل الصفّة، ثم أشرب منه أبا هريرة، فظل يشرب منه حتى لم يعد «يجد له فيه مسلكاً على حد تعبيره»، وهذا كله بينما بقي القدح ممتلئاً (ج٦، ص١٠١-١٠٢).

ـ قصة عكة السمن التي أهدتها أم سليم للرسول. فقد رُدَّت عليها «وهي مملوءة سمناً»، فظنت أن «رسول اللّه لم يقبلها، فجاءت ولها صراخ». ولكن الرسول، الذي كان قَبِل هديتها ثم أمر بردّ القلة إليها بعد أن «نفخ فيها ودعا

= ومع أن هذا الحديث تعدد رواته وتعددت رواياته وسلاسل إسناده وقبله فيمن قبله أحمد بن صالح والطحاوي والقاضي عياض، فقد ردّه ابن كثير غير متقيد بما كان قاله من أن «الطرق المتعددة تفيد القطع». ولا يخفى لماذا ردّه: فمعجزة رد الشمس بعد مغيبها تشهد لعلي بن أبي طالب بما لم يشهد به غيرها لأبي بكر أو لعمر بن الخطاب. ولهذا عدّ ابن الجوزي وناطقون آخرون باسم الإسلام السنّي هذا الحديث من الموضوعات. وبالفعل، يشير ابن كثير نفسه إلى أن الحديث قد استغل من قبل «الروافض قبّحهم اللّه». وقد طعن في سلسلة إسناده قائلاً: «هذا الحديث ضعيف ومنكر من جميع طرقه، فلا تخلو واحدة منها عن شيعي مجهول وشيعي متروك. . . وكل هذا يدل على أنه موضوع مصنوع مفتعل يسرقه هؤلاء الرافضة بعضهم من بعض» (**البداية والنهاية** ج ٦، ص ٧٧ ـ ٨٧).

(٣٠) ليس من قبيل الصدفة أن تكون كثرة من روايات تكثير الطعام وردت على لسان أبي هريرة وهو الذي كان يقول: «واللّه إن كنت لأشدّ الحجر على بطني من الجوع».

لها بالبركة»، علم أنه قد استجيب له، فقال: «اذهبوا فقولوا لها فلتأكل سمنها وتدعو بالبركة»(٣١). ونهاية القصة، كما ينقلها ابن كثير عن البيهقي، موضوعة على لسان أم سليم التي قالت: «فأكلت منها بقية عمر النبي (ص) وولاية أبي بكر وولاية عمر وولاية عثمان، حتى كان من أمر علي ومعاوية ما كان»(٣٢) (ج٦، ص١٠٤).

ـ قصة شاة جابر بن عبد اللّه التي تقدَّم ذكرها، ولكنها تتحوّل هنا إلى واحدة من أغرب ما يروى في باب معجزات تكثير الطعام، وهذا باعتراف ابن كثير نفسه الذي ينقلها عن كتاب لم يصلنا فيما يبدو، هو **كتاب العجائب الغريبة** للحافظ أبي عبد الرحمن الهروي المعروف بشكر. وقد جاء فيها بالحرف الواحد: «أتى جابر بن عبد اللّه إلى رسول اللّه (ص) فعرف في وجهه الجوع، فذكر أنه رجع إلى منزله فذبح داجناً كانت عندهم، وطبخها وثرد تحتها في جفنة وحملها إلى رسول اللّه (ص)، فأمره أن يدعو له الأنصار، فأدخلهم عليه أرسالاً، فأكلوا كلهم وبقي مثل ما كان. وكان رسول اللّه (ص) يأمرهم أن يأكلوا ولا يكسروا عظماً. ثم إنه جمع العظام في وسط الجفنة، فوضع عليها يده، ثم تكلم بكلام لا أسمعه [المتحدث هنا هو كعب بن مالك] إلا أني أرى شفتيه تتحرك، فإذا الشاة قد قامت تنفض أذنيها، فقال: خذ شاتك يا جابر بارك اللّه لك فيها. قال: فأخذتها ومضيت، وإنها لتنازعني أذنها حتى أتيت بها البيت، فقالت لي المرأة: ما هذا يا جابر؟ فقلت: هذه

---

(٣١) في إخراج آخر للقصة، وبالإسناد إلى مالك بن أنس، أن الرسول مسح بالقليل من السمن الذي كان في العكة قرصاً من عجين الشعير كانت أعدته أم سليم أيضاً، «فانتفخ القرص، فقال: بسم اللّه، فانتفخ القرص، فلم يزل يصنع كذلك والقرص ينتفخ»، ثم أمر بدعوة عشرة من أصحابه فأكلوا منه حتى شبعوا، ثم دعا بعشرة آخرين، وهكذا، «حتى أكل بضعة وثمانون من حوالي القرص حتى شبعوا، وإنّ وسط القرص حيث وضع رسول اللّه (ص) يده كما هو» (ج ٦، ص ١٠٥ ـ ١٠٦).

(٣٢) هنا أيضاً نلاحظ التوظيف السياسي للمعجزة على نحو ما كنا رأينا في حديث مزود أبي هريرة.

واللّه شاتنا التي ذبحناها لرسول اللّه، دعا اللّه فأحياها لنا فقالت: أشهد أنه رسول اللّه، أشهد أنه رسول اللّه، أشهد أنه رسول اللّه» (ج٦، ص١٠٩-١١٠).

وبعد معجزات تكثير الطعام يورد ابن كثير نحواً من عشرين معجزة في تكثير الماء. وبديهي أن المعجزات المائية في بيئة يمثل فيها الماء المادة الطبيعية الأكثر ندرة تتقدم على غيرها من المعجزات كدليل على النبوة[٣٣]. ولا غرو أن يكون ابن كثير قد ارتأى أن يعطيها الأولوية، إذ قال وهو يفتتح باب «المعجزات الأرضية»: «وأما المعجزات الأرضية فمنها ما هو متعلق بالجمادات ومنها ما هو متعلق بالحيوانات: فمن المتعلق بالجمادات تكثيره الماء في غير ما موطن على صفات متنوعة سنوردها بأسانيدها إن شاء اللّه، وبدأنا بذلك لأنه أنسب» (ج٦، ص٩٣). ومن المعجزات التي يوردها في هذا الباب:

- «عن البراء بن عازب قال: كنا يوم الحديبية أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها حتى لم نترك فيها قطرة، فجلس رسول اللّه (ص) على شفير البئر، فدعا بماء فمضمض ومجّ في البئر، فمكثنا غير بعيد ثم استقينا حتى روينا وروت ركابنا»[٣٤] (ج٦، ص٩٤).

- «عن جابر بن عبد اللّه الأنصاري قال: اشتكى أصحاب رسول اللّه (ص) إليه العطش، فدعا بعسّ [= قدح كبير] فصُبّ فيه شيء من الماء، ووضع رسول اللّه (ص) فيه يده وقال: استقوا، فاستقى الناس. قال: فكنت أرى العيون تنبع من بين أصابع رسول اللّه (ص)»[٣٥] (ج٦، ص ٩٥).

- «عن ابن عباس: أصبح رسول اللّه (ص) ذات يوم وليس في العسكر

---

(٣٣) لا ننسَ أن القرآن نفسه جعل من الماء مبدأ المبادئ: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ (الأنبياء/ ٣٠).

(٣٤) حديث «تفرد به البخاري إسناداً ومتناً» كما يلاحظ ابن كثير.

(٣٥) حديث تفرد به أحمد بن حنبل كما يلاحظ ابن كثير أيضاً.

ماء، فأتاه رجل فقال: يا رسول اللّه ليس في العسكر ماء، قال: هل عندك شيء؟ قال: نعم، قال: فأتني، قال: فأتاه بإناء فيه شيء من ماء قليل، قال: فجعل رسول اللّه (ص) أصابعه في فم الإناء وفتح أصابعه، قال: فانفجرت عيون، وأمر بلالاً فقال: ناد في الناس الوضوء المبارك» (ج٦، ص ٩٧).

والجملة الأخيرة في هذه القصة تسترعي الانتباه: فالحاجة إلى الماء كانت قد تعاظمت بالفعل مع فرض فريضة الوضوء. ومن هذا المنظور يسوق ابن كثير قصص عدة معجزات:

ـ «عن أنس بن مالك قال: رأيت رسول اللّه (ص) وحانت صلاة العصر، والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأُتي رسول اللّه (ص) بوضوء، فوضع رسول اللّه (ص) يده في ذلك الإناء، فأمر الناس أن يتوضأوا منه، فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضأوا من عند آخرهم» (ج٦، ص ٩٣).

ـ «عن جابر بن عبد اللّه قال: عطش الناس يوم الحديبية والنبي بين يديه ركوة يتوضأ، فجهش الناس نحوه، قال: ما لكم؟ قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يفور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة»[٣٦] (ج٦، ص ٩٦).

وفي باب تحريك الجمادات يورد ابن كثير معجزات تتصف بدرجة عالية

---

(٣٦) وما دمنا بصدد المعجزات الوضوئية فلنلاحظ أن وضوءالرسول كان أصبح ـ إذا ما صدقنا كتب السيرة ـ موضع عبادة شيئية حقيقية. هكذا يروي ابن كثير نفسه في باب «ذكر عبيده عليه الصلاة والسلام وإمائه وخدمه»: «ومنهم حنين مولى رسول اللّه (ص)، وروينا أنه كان يخدم النبي (ص) ويوضئه، فإذا فرغ النبي (ص) خرج بفضلة الوضوء إلى أصحابه، فمنهم من يشرب منه، ومنهم من يتمسح به، فاحتبسه حنين فخبأه عنده في جرة حتى شكوه إلى النبي (ص)، فقال له: ما تصنع به؟ فقال: أدخره عندي أشربه يا رسول اللّه» (ج ٥، ص ٣١٤).

من الغرائبية، ولا سيّما منها ما يتصل بـ «انقياد الشجر لرسول اللّه (ص)» الذي يفرد له باباً على حدة تحت هذا العنوان إياه. وقد ساق من هذا المنظور قصص خمس معجزات تكرر واحدتها الأخرى بصورة أو بأخرى، ونموذجها القصة التالية:

ـ «عن ابن عباس قال: جاء رجل من بني عامر إلى رسول اللّه (ص) فقال: إن عندي طباً وعلماً فما تشتكي؟ هل يريبك من نفسك شيء إلى ما تدعو؟ قال: أدعو إلى اللّه والإسلام، قال: فإنك لتقول قولاً، فهل لك من آية؟ قال: نعم، إن شئت أريتك آية، وبين يديه شجرة، فقال لغصن منها: تعال يا غصن، فانقطع الغصن من الشجرة ثم أقبل ينقز حتى قام بين يديه. فقال: ارجع إلى مكانك، فرجع، فقال العامري: يا آل عامر بن صعصعة، واللّه لا أكذّبه بشيء يقوله أبداً» (ج٦، ص ١٢٤ ـ ١٢٥).

وما يسترعي الانتباه في هذا السياق أن ابن كثير يورد قصة كان طالب المعجزة فيها الرسول نفسه، وهذا لأنه هو، وليس اللامصدقون من الكتابيين والأميين، من شكّ في رسالته، فطلب من مرسله برهاناً على إرساله إياه: فـ «عن عمر بن الخطاب أن رسول اللّه كان على الحجون [= مقبرة مكة] كئيباً لما آذاه المشركون، فقال: اللهم أرني اليوم آية لا أبالي من كذبني بعدها. قال: فأمر فنادى شجرة من قبل عقبة المدينة، فأقبلت تخدّ الأرض حتى انتهت إليه. قال: ثم أمرها فرجعت إلى موضعها. قال: فقال: ما أبالي من كذّبني بعدها من قومي» (ج٦، ص ١٢٤).

وفي باب شهادة الحيوانات بدلائل النبوة يورد شهادة الضب التي كان أوردها القاضي عياض، ولكن بإخراج مختلف. كما يورد بضع روايات عن شهادة الذئب. ولكنه يورد أيضاً شهادة غزالة أمر الرسول بإطلاق سراحها لترضع خشفيها، «فخرجت تدور في الصحراء فرحاً وهي تضرب برجليها في الأرض وتقول: أشهد أن لا إله إلا اللّه وأنك رسول اللّه» (ج٦، ص ١٤٨). كما يسوق سبع روايات عن «قصة البعير النادّ وسجوده له وشكواه إليه»،

ونموذجها رواية معزوة إلى أنس بن مالك: «كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل، فاستصعب عليهم فمنعهم ظهره، فجاؤوا إلى رسول اللّه (ص) فقالوا: لنا جمل استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع والنخل، فقال رسول اللّه لأصحابه: قوموا، فقاموا فدخل الحائط [= البستان] والجمل في ناحيته، فمشى النبي نحوه، فقالت الأنصار: يا رسول اللّه إنه قد صار مثل الكلب الكَلِب وإنّا نخاف عليك صولته، فقال: ليس عليّ منه بأس، فلما نظر الجمل إلى رسول اللّه (ص) أقبل نحوه حتى خرّ ساجداً بين يديه، فقال له أصحابه: يا رسول اللّه هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك، ونحن أحق أن نسجد لك، فقال: لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»[٣٧] (ج٦، ص ١٣٥).

ولن نتوقف هنا عند ما يورده ابن كثير من معجزات عن إحياء الموتى وعجائب كلامهم بعد الموت[٣٨]. أولاً لأن القاضي عياض قد ساق نماذج وافية منها، وثانياً لأن ابن كثير نفسه سيعود إلى الكلام عنها في معرض المقارنة التفاضلية بين معجزات الرسول ومعجزات من تقدمه من الأنبياء. وبالفعل، يفرد ابن كثير باباً مطولاً للمقارنة بين «ما أعطي رسول اللّه (ص) وما أعطي الأنبياء» ليخلص، بعد مقارنة المعجزات معجزةً معجزةً، إلى أنه «ما أعطى اللّه نبياً ما أعطى محمداً» (ج٦، ص ٢٧٦). وهو استنتاج كان قد انتهى إليه الشافعي قبله بستة قرون[٣٩]. ذلك أنه حتى عندما تكون معجزات الرسول

---

(٣٧) كنا رأينا في رواية ساقها القاضي عياض أن من سجد للرسول ليس البعير، بل الشجر. لكن لنلاحظ على كل حال أن الروايتين كلتيهما، تلك وهذه، توظفان قولة الرسول الجميلة عن عدم جواز سجود بشر لبشر لصالح نزعة ذكورية لا تخفي نفسها.

(٣٨) وقد أورد كثرة منها كتاب لأبي بكر بن أبي الدنيا يحمل هذا العنوان الدالّ: «**من عاش بعد الموت**».

(٣٩) هذا إذا صحت نسبة هذا القول إلى الشافعي علماً بأن أول من رواه عنه هو البيهقي الذي توفي بعده بقرنين ونصف.

«مماثلة لمعجزات جماعة من الأنبياء قبله»، فإنها تبقى «أعلى منها»، وهذا فضلاً «عما اختص به من المعجزات العظيمة التي لم تكن لأحد قبله منهم عليهم السلام» (ج٦، ص ٢٥٧). وهكذا، وبعد أن يقارن معجزة نوح في سفينته بـ«المعجزة المحمدية» في السير على الماء، يلاحظ أن هذه الأخيرة «أعجب» لأن «حمل الماء للناس من غير سفينة أعظم من السلوك عليه في السفينة» (ج٦، ص ٢٥٨). وكذلك، وبعد أن يقارن بين معجزة موسى في فلق البحر و «المعجزة المحمدية» في السير على النهر، يلاحظ أن هذه الأخيرة «أعجب. . . وأعظم وأغرب» من جهة أن ماء النهر جارٍ «والسير عليه أعجب من السير على الماء القارّ»[٤٠] (ج٦، ص ٢٦١).

وبديهي أن ابن كثير يولي أهمية خاصة لمعجزات موسى بوصفه أشهر أنبياء إسرائيل. فلئن توقف عند معجزة واحدة لكل من نوح وهود وداود وسليمان، فقد توقف عند عدة معجزات موسوية، وفي مقدمتها فلق البحر وإحياء العصا وإضاءة اليد وإنباع الماء. وهو يلاحظ أنه إن يكن اللّه أعطى موسى شق البحر، فقد أعطى محمداً انشقاق القمر، و«هذا أجل وأعظم وأبهر في المعجزات وأعم وأظهر وأبلغ» (ج٦، ص ٢٧٧).

ولئن تكن العصا انقلبت في يد موسى حية تسعى، «فقد سبح الحصى في كف رسول اللّه (ص) وهو جماد»، وسلم عليه الشجر والحجر، وحنّ إليه جذع النخل: «فهذه جمادات ونباتات قد حنت وتكلمت، وفي ذلك ما يقابل

(٤٠) الواقع أن الغريب في هذه المحاكمة ـ فضلاً عن افتعالها المنطقي ـ هو أنها تدرج في عداد «المعجزات المحمدية» معجزات تمت، لا على يد الرسول، بل على أيدي «أوليائه». فمن مشى على الماء في المعجزة الأولى ليس الرسول، بل العلاء بن الحضرمي الذي تنسب إليه بالمناسبة كرامات عديدة. كذلك فإن من اقتحم نهر دجلة وهو في حالة طوفان ليس الرسول، بل أبو مسلم الخولاني الذي تعزى إليه كرامات أكثر أسطورية بعد من تلك التي تعزى إلى علاء الحضرمي. ولا يتردد ابن كثير، بعد أن يورد أشباه هذه الأساطير، في أن يجزم: «هذه الكرامات لهؤلاء الأولياء هي معجزات لرسول اللّه (ص)، لأنهم إنما نالوها ببركة متابعته ويمن سفارته» (ج ٦، ص ٢٦١).

انقلاب العصا حية» (ج٦، ص ٢٧٦). ولئن يكن «موسى أعطي اليد البيضاء، فقد أعطي محمد (ص) ما هو أفضل من ذلك نوراً كان يضيء عن يمينه حيث ما جلس، وعن يساره حيث ما جلس وقام، يراه الناس كلهم، وقد بقي ذلك النور إلى قيام الساعة. ألا ترى أنه يُرى النور الساطع من قبره من مسيرة يوم وليلة؟» (ج٦، ص ٢٧٨). ولئن كان موسى «يضرب بعصاه الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً في التيه»، فقد «كان لمحمد (ص) مثله وأعجب، فإن نبع الماء من الحجر مشهور في العلوم والمعارف، ولكن أعجب من ذلك نبع الماء بين اللحم والدم والعظم»[(٤١)] (ج٦، ص ٢٨١).

ولكن على الأهمية التي يوليها للمعجزات الموسوية فإنه يولي أهمية أكبر بعد للمعجزات العيسوية، وهذا لسبب يمكن إدراكه بسهولة: فاليهود كانوا في محصلة الحساب أقلية في البلدان المفتوحة، ولكن النصارى كانوا فيها ـ ولا سيما في الشام والعراق ـ أكثرية. ولئن تحولوا لاحقاً إلى أقلية، فقد كانت هذه الأقلية لا تزال فاعلة إلى زمن ابن كثير، أي منتصف القرن الثامن الهجري على ما تشهد بذلك حادثة رواها هو نفسه[(٤٢)]. وهكذا راح يتعقب ما اشتهر من المعجزات العيسوية ويجد لها مقابلها المحمدي، ومنها بطبيعة الحال تكثير

---

(٤١) الإشارة هنا إلى المعجزات المتعدّدة المنسوبة إلى الرسول من «تكثيره الماء في غير ما موطن» إذ كان يضع يده في الإناء الصغير فيجعل الماء «ينبع من بين أصابعه أمثال العيون».

(٤٢) بعد أن يروي ابن كثير عن مسلم وعن الترمذي أن عيسى «سينزل قبل يوم القيامة على المنارة البيضاء الشرقية بدمشق ـ «معقل المسلمين عند وقوع الفتن» ـ فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، ويحكم بهذه الشريعة المحمدية، ثم يموت ويدفن بالحجرة النبوية»، يذكر أن «قد جُدِّدت هذه المنارة البيضاء الشرقية بجامع دمشق بعدما أحرقها النصارى من أيامنا هذه سنة أربعين وسبعمائة، فأقاموها من أموال النصارى مقاصّة على ما فعلوا من العدوان، وفي هذا حكمة عظيمة وهو أن ينزل على هذه المبنية من أموالهم عيسى بن مريم نبي الله، فيكذبهم فيما افتروه عليه وعلى الله ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ـ أي يتركها ـ ولا يقبل من أحد منهم ولا من غيرهم إلا الإسلام أو يقتل» (ج ٦، ص ٢٥٦ و ٢٩١).

الطعام وإبراء الأكمه والأبرص، ولكن في مقدمتها إحياء الموتى[٤٣]. وبما أننا كنا استعرضنا العديد من «المعجزات المحمدية» المناظرة «للمعجزات العيسوية» فلن نتوقف هنا إلا عند المحاكمة العقلية التي يجريها ابن كثير للمفاضلة بين الأولى والثانية، مستعيناً في ذلك برأي ابن الزملكاني، ثم مضيفاً رأيه الشخصي: «قال شيخنا العلامة ابن الزملكاني رحمه اللّه: وأما معجزات عيسى عليه السلام، فمنها إحياء الموتى، وللنبي (ص) من ذلك كثير، وإحياء الجماد أبلغ من إحياء الميت، وقد كلّم النبي (ص) الذراع المسمومة، وهذا الإحياء أبلغ من إحياء الإنسان الميت من وجوه، أحدها أنه إحياء جزء من الحيوان دون بقيته، والثاني أنه أحياه وحده منفصلاً عن بقية أجزاء ذلك الحيوان مع موت البقية، والثالث أنه أعاد عليه الحياة مع الإدراك والعقل، ولم يكن هذا الحيوان الذي هو جزؤه يعقل في حياته ولا مما يتكلم. قلتُ: وفي حلول الحياة والإدراك والعقل في الحجر الذي كان يخاطب النبي (ص) بالسلام عليه، كما روي في صحيح مسلم، من المعجز ما هو أبلغ من إحياء الحيوان في الجملة، لأنه كان محلاً للحياة في وقت ما، بخلاف هذا حيث لا حياة له بالكلية قبل ذلك»[٤٤] (ج٦، ص ٢٩١).

وليس يغيب عن الذهن ما هو **المسكوت الكبير عنه** في كل هذا التعداد والتضخيم للمعجزات النبوية المحمدية: ألا هو **صمت القرآن عن هذه المعجزات**، فضلاً عن المنطوق الصريح لعشرات من الآيات التي تحصر دور

(٤٣) كما نصت على ذلك في القرآن الآية ٤٩ من سورة آل عمران.

(٤٤) في سياق هذه المنافسة بين الأنبياء، أو بالأحرى بين أتباع الأنبياء، على تضخيم المعجزات المعزوة إليهم تكتسب قولة منسوبة إلى الرسول درجة عالية من المصداقية. فقد ذُكر أنه قال: «الأنبياء أولاد علاّت»، أي أولاد ضرائر. وقد قال أبو الفرج الحلبي في شرح هذا الحديث إن الأنبياء دينهم واحد، وهو التوحيد، ولكن فروع شرائعهم مختلفة. فهم إذن كالإخوة الذين من أب واحد وأمهات شتى (**السيرة الحلبية**، ج ١، ص ١٥٧). ولكن ما يغيب عن هذا التفسير، ذي النزعة التوفيقية، أن أولاد الضرائر ـ كالضرائر أنفسهن ـ هم في الغالب متحاسدون ومتعادون.

الرسول بتبليغ رسالة مرسله من دون تزويده ببرهان المعجزة، المُعْلَن مراراً وتكراراً ـ أصلاً ـ عن عدم نجاعتها وعدم فاعليتها في جدلية الإيمان واللاإيمان(٤٥).

ومع ذلك فإن هذه المناقضة **الضمنية** لمنطوق النص القرآني تنقلب إلى مناقضة **صريحة** مع انتقال ابن كثير من باب المعجزات الحسية إلى باب المعجزات القولية التي يمحورها كلها حول علم الغيب و «الإخبار بغيوب ماضية ومستقبلة» (ج٦، ص ١٩٠). ذلك أننا كنا رأينا أن القرآن يجزم جزماً لا يحتمل تأويلاً أن: ﴿إنما الغيب للّه﴾ (يونس/ ٢٠)، وأن ﴿للّه غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله﴾ (هود/ ١٢٣)، وأنه ﴿لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا اللّه﴾ (النمل/ ٦٥)، وأنه هو وحده ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً﴾ (الجن/ ٢٦)، وأن الرسول مأمور في كل ما له صلة بغيب فائت أو آت بأن يقول: ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن اللّه ولا أعلم الغيب﴾ (الأنعام/ ٥٠). ولكن جميع هذه الآيات القرآنية الجازمة القاطعة لم تمنع ابن كثير من أن يفتح باب: «ما أخبر به (ص) من الكائنات المستقبلة في حياته وبعده» بالقول: «وهذا باب عظيم لا يمكن استقصاء جميع ما فيه لكثرتها» (ج٦، ص ١٨٣)، ومن أن يدعم قوله بما «ثبت في صحيح البخاري» من أن حذيفة بن اليمان قال: «قام رسول اللّه (ص) فينا مقاماً ما

(٤٥) بديهي أن الحافظ ابن كثير، وهو من أقطاب مدرسة أهل الحديث، ما كان له إلا أن يصمت عن صمت القرآن ذاك، وإن أقر لفظاً بأن هذا القرآن هو «أعظم المعجزات وأبهر الآيات» (ج ٦، ص ٦٥). ونحن نصف هذا الإقرار بأنه لفظي، إذ لو كانت تترتب عليه نتيجة عملية فعلية لما كان ابن كثير كرّس للمعجزات النبوية **الحسية** مئتين وخمساً وعشرين صفحة من كتابه بينما لم يكرس للمعجزة القرآنية **المعنوية** سوى خمس صفحات. وفضلاً عن ذلك فإنه عندما يقول إن القرآن هو «الحجة المستمرة الدائمة القائمة في زمانه [الرسول] وبعده» في حين أن «البراهين التي كانت للأنبياء انقرض زمانها في حياتهم ولم يبق منها إلا الخبر عنها» (ج ٦، ص ٦٩)، فإنه لا يدور له في بال أن الحجّة نفسها يمكن أن ترتدّ عليه وعلى كل ما يخبر عنه من معجزات الرسول الحسية علماً بأنها مروية كلها، كما تقدم البيان، عن أخبار آحاد.

ترك فيه شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره»، وبما «ثبت في صحيح مسلم» من أن عمرو بن أخطب قال: «أخبرنا رسول اللّه (ص) بما كان وبما هو كائن إلى يوم القيامة» (ج٦، ص ١٩٢ ـ ١٩٣).

وفي الوقت الذي نستطيع أن نحصي فيه نحواً من مئة نبوءة في باب «الإخبار بالغيوب المستقبلة»، فإننا نلاحظ أن تسعة أعشار هذه النبوءات المنسوبة إلى الرسول تنحصر في مجال واحد: الحياة السياسية للأمة في عهود الخلافات الراشدية والأموية والعباسية، وما لازمها من فتن وحروب داخلية وانقسامات طائفية. ولا يخفى أن هذه النبوءات منتقاة ومؤوَّلة معاً من منظور **السلفية السنية** التي ينتمي إليها ابن كثير، ومع ذلك فإننا سنلاحظ أنها تفسح أحياناً مجالاً لصراع الآراء والمذاهب السياسية المتعارضة، وتعبر في الغالب عن الهوى «الفِرَقي»(٤٦) لراوية النبوءة أو مختلقها، **وهذا في فضاء عقلي مثالي كان يقرأ نفسه بلغة الدين وتحرص فيه كل سياسة على شرعنة نفسها بواسطة الدين، ولكن كذلك في فضاء واقعي ذرائعي كانت فيه كفة الهوى السياسي ترجح كفة الورع الديني ولا تتورع فيه الكلبية السياسية عن توظيف الدين في خدمتها من خلال ممارسة منهجية لسياسة الكذب على مؤسس هذا الدين**(٤٧).

ولعل أكثر ما يميز النبوءات السياسية من غيرها مما نسب إلى الرسول من نبوءات هو درجتها المباشرة والمفضوحة من الغائية. فما من نبوءة إلا وهي تتغيا الرفع أو الحطّ من شأن شخصية سياسية بعينها، أو التكريس الإيجابي أو السلبي لحدث سياسي بعينه(٤٨).

---

(٤٦) نسبة إلى الفرقة.

(٤٧) أو على المؤسس الثاني لهذا الدين الذي هو علي بن أبي طالب في نظر كبرى ثانية الفرق الإسلامية.

(٤٨) تطل هذه الغائية برأسها حتى عندما يكون مدار النبوءة حول شخصيات ليس لها صفة سياسية مباشرة. ومن هذا القبيل النبوءات التي تنتصر لمؤسسي المذاهب الفقهية، ومنها تلك التي

والواقع أن كل تاريخ الأمة الإسلامية، في القرنين الأول والثاني للهجرة، يمكن استقراؤه، في خطوطه العريضة، من النبوءات التي أُنْطق بها الرسول بحيث يأخذ هذا التاريخ طريقه إلى **الهضم الإيديولوجي**. ذلك أنه كان، إلى جانب الفتوحات الخارجية القابلة للوصف بأنها مدوِّخة وليس في التاريخ ما يضاهيها من قبلها سوى فتوحات الإسكندر ومن بعدها سوى فتوحات المغول، تاريخ صراعات واقتتالات داخلية هي أيضاً من أكثر ما شهده تاريخ الأمم دموية. وحسبنا أن نشير إلى أنه في وقعة صفين وحدها ـ ولم يكن قد مضى على وفاة الرسول سوى ٢٣ عاماً ـ وقع عشرات الآلاف من القتلى من أصحاب علي وأصحاب معاوية حتى قيل على لسان صفوان بن عمر: «كان أهل الشام ستين ألفاً، فقتل منهم عشرون ألفاً، وكان أهل العراق مائة وعشرين ألفاً، فقتل منهم أربعون ألفاً» (ج٦، ص ٢١٤). وفضلاً عن ذلك، فقد جرت عملية استئصال حقيقية ـ في وقت كان لا يزال فيه عود الإسلام طرياً ـ لسلالة الرسول من ابنته فاطمة، وهي أصلاً سلالته الوحيدة، أخذت أكثر أشكالها مأساوية في مقتل حفيده الحسين في كربلاء عام ٦١ للهجرة. وفضلاً عن اغتيال ثلاثة من الخلفاء الأربعة الموصوفين بالراشدين ـ بمن فيهم ساعد الرسول الأيمن ووزيره عمر بن الخطاب وزوج ابنتيه عثمان وابن عمه وختنه علي بن أبي طالب ـ فقد جرى اجتياح ونهب المدينتين المقدستين في الإسلام، المدينة ومكة، حيث قتل في الأولى «سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ووجوه الموالي وممن لا أعرف من حر وعبد وغيرهم عشرة آلاف» (ج٨، ص ٢٢١)، وحيث قتل في الثانية، ورمياً بالمنجنيق، «خلق كثير» ـ وفي مقدمتهم عبد اللّه بن الزبير حفيد أبي بكر ـ وحملت

= فيها ـ على حد تعبير ابن كثير ـ «إشارة إلى مالك بن أنس الإمام» في الحديث المشهور: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة»، أو التي فيها «إشارة إلى محمد بن إدريس الشافعي في الحديث الذي لا يقل شهرة: «لا تسبوا قريشاً فإن عالمها يملأ الأرض علماً» (ج ٦، ص ٢٥١).

رؤوسهم إلى الشام بعد أن صلبت جثثهم (ج٨، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٢).

هذه الوقائع الجارحة للوعي الديني، كما سيتكون لاحقاً، عن قدسية الصدر الأول، كان لا بد أن تجد انعكاساً «صادقاً» لها في نبوءات نبوية جرى اصطناعها لتتجرد تلك الوقائع من طابعها «الرجيم» **ولتندرج في ضرب من حتمية إلهية لا يمكن للبشر، من حيث هم بشر، إلا التسليم بها دون أن يضعوا الوعي الديني الذي يصدرون عنه والذي يعطي المعنى لوجودهم موضع تشكيك.**

هكذا، وبضرب من الفصل بين الديني والسياسي أو بين الأخروي والدنيوي(٤٩)، نسب إلى الرسول حديث لا يتنبأ فقط بمقتل حفيده الحسين، بل يفسر أيضاً لـِمَ حُرمت سلالته من الخلافة ولـِمَ لـَمْ يُقيّض لواحد من «أهل البيت» أن يتولى الإمامة. ففي رواية منقولة عن أم سلمة، خامسة زوجات الرسول، أن «رسول اللّه (ص) اضطجع ذات يوم فاستيقظ وهو حائر، ثم اضطجع فرقد، ثم استيقظ وهو حائر دون ما رأيت منه في المرة الأولى، ثم اضطجع واستيقظ وفي يده تربة حمراء وهو يقلبها، فقلت: ما هذه التربة يا رسول اللّه؟ فقال: أخبرني جبريل أن هذا مقتل بأرض العراق للحسين، قلت له: يا جبريل أرني تربة الأرض التي يقتل بها، فهذه تربتها». ودوماً في «باب الإخبار بمقتل الحسين بن علي» يورد ابن كثير رواية ثانية عن أم الفضل بنت الحارث، مرضع الحسين، جاء فيها أنها بعد أن أرضعت الحسين ووضعته في حجره «حانت منها التفاتة، فإذا عينا رسول اللّه (ص) تهريقان الدموع، فقالت: يا نبي اللّه، بأبي أنت وأمي، ما لك؟ قال: أتاني جبريل فأخبرني أن أمتي ستقتل ابني هذا. فقالت: هذا؟ قال: نعم، وأتاها بتربة من تربته حمراء» (ج٦، ص ٢٣٠). وفي تعليل هذه النبوءة يورد ابن كثير ـ نقلاً عن البيهقي في

---

(٤٩) وهو ما يمكن أن يمثل «بذوراً للعلمانية في الإسلام» على نحو ما أوضحنا في كتابنا: **هرطقات**، دار الساقي، الطبعة الثانية، بيروت ٢٠٠٨، ص ١٩ ـ ٣٨.

السنن الكبرى وعن الطيالسي في مسنده ـ أن «ابن عمر قدم المدينة فأُخبر أن الحسين بن علي قد توجه إلى العراق، فلحقه على مسيرة ليلتين أو ثلاث من المدينة، قال: أين تريد؟ قال: العراق ومعه طوامير وكتب، فقال: لا تأتهم، فقال: هذه كتبهم وبيعتهم، فقال: إن اللّه خيّر نبيه (ص) بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا، وإنكم بضعة من رسول اللّه (ص)، واللّه لا يليها أحد منكم أبداً، فارجعوا، فأبى، قال: فاعتنقه ابن عمر وقال: أستودعك اللّه من قتيل!»[٥٠] (ج٦، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢).

ولئن تكن النبوءة عن مقتل الحسين قد خُرِّجت بحيث يتعالى المقدس ولا يتلوث بالمدنس ـ مما استدعى استبعاد العترة الطاهرة من الإمامة الدنيوية ـ فإن نبوءة نبوية أخرى عن وقعتي الجمل وصفين ستُخرَّج تخريجاً مماثلاً، ولكن في اتجاه معاكس، تنزيلي لا تصعيدي: فالاقتتال هو في التحليل الأخير من السياسة، لا من الدين. والحال أنه مهما يكن المدنس السياسي جديراً، في انحطاطه، بالإدانة، فإنه يظل محتملاً وقابلاً للعقلنة ما دام لا يمس برفعة المقدس. وهكذا «ثبت في الصحيحين من حديث همام بن منبه عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه (ص): «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان

---

(٥٠) كما وجدنا ابن كثير يستنفر جهازه النقدي ليفند معجزة ردّ الرسول للشمس تمكيناً لعلي من أداء صلاة المغرب، كذلك نراه هنا يدلل على مقدرة أكيدة على ممارسة الحس النقدي ـ متى اقتضت الضرورة ـ ليفند من موقع انتمائه السلفي السني دعوى المعجزات التي وقعت لمقتل الحسين على نحو ما رواه إخباريّو الشيعة: «ذكروا في مقتله أشياء كثيرة أنها وقعت، من كسوف الشمس يومئذ، وتغيير آفاق السماء، ولم ينقلب حجر إلا وجد تحته دم، ومنهم من خصص ذلك بحجارة بيت المقدس، وأن الورس استحال رماداً، وأن اللحم صار مثل العلقم وفيه نار، إلى غير ذلك مما في بعضها نكارة، وفي بعضها احتمال، واللّه أعلم، وقد مات رسول اللّه (ص)، وهو سيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، ولم يقع شيء من هذه الأشياء، وكذلك الصديق بعده مات، ولم يكن شيء من هذا، وكذا عمر بن الخطاب قتل شهيداً وهو قائم يصلي في المحراب صلاة الفجر، وحصر عثمان في داره وقتل بعد ذلك شهيداً، وقتل علي بن أبي طالب شهيداً بعد صلاة الفجر، ولم يكن شيء من هذه الأشياء» (ج ٦، ص ٢٣١).

دعواهما واحدة». وهاتان الفئتان هما أصحاب الجمل وأصحاب صفين، فإنهما جميعاً يدعون إلى الإسلام، وإنما يتنازعون في شيء من أمور الملك... وكان ترك القتال أولى من فعله، كما هو مذهب جمهور الصحابة»[(٥١)]. (ج٦، ص ٢١٤).

وإنما من خلال التمييز بين الدين والمُلك نسبت إلى الرسول عدة نبوءات تستبق الانقلاب الأموي الذي لم يتردد في أن ينقل عاصمة الإسلام من المدينة إلى دمشق بغالبيتها النصرانية، وفي أن يقلب الخلافة إلى مَلَكية وراثية. وهكذا روي على لسان أبي هريرة أن الرسول قال: «الخلافة بالمدينة، والمُلك بالشام» (ج٦، ص ٢٢١). كما صيغت على لسان سفينة، مولى الرسول، نبوءة نبوية مؤداها أن «رسول اللّه (ص) قال: الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً»[(٥٢)]. وفي رواية: «ثم يؤتي اللّه ملكه من يشاء» (ج٦، ص ١٩٨). ولنلاحظ انقلابْ النبرة ما بين الروايتين. فبقدر ما أن الرواية الأولى تبدو وكأنها تتضمن انتقاداً وتقييماً سلبياً للانقلاب الأموي من النبوة إلى الملك، فقد كان لا بد أن تصححها الرواية الثانية لتجعل من ذلك الانقلاب مشيئة إلهية لا رادّ لها ولا يمكن للبشر إلا التسليم بها. والواقع أن موجة من الانتقادات انداحت إثر الانقلاب الأموي، ولا سيما في المدينة التي كان من

---

(٥١) كما أن حديث انقسام الأمة إلى «فئتين عظيمتين دعواهما واحدة» سيوظف لإدانة الاقتتال في حربي الجمل وصفين، كذلك سيوظف، في نبوءة أخرى منسوبة إلى الرسول، لتبرير الموقف المسالم لحفيده الحسن عندما وادع معاوية وخلع نفسه متنازلاً له عن الخلافة. فنقلاً عن البخاري يروي ابن كثير أن النبي وقف يوماً على المنبر وأصعد إليه الحسن وخاطب الناس متنبئاً: «إن ابني هذا سيد، ولعل اللّه أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» (ج ٦، ص ٢١٩).

(٥٢) في رواية أخرى لسفينة هذا، ولكن على لسان نفسه هذه المرة لا على لسان الرسول، أنه لما قيل له: «إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم، قال: كَذَب بنو الزرقاء، بل هم ملوك من أشد الملوك، وأول الملوك معاوية» (السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص ١٩٩).

حقها أن تعتبر نفسها الخاسرة الكبرى(٥٣). وفي مواجهة هذه الانتقادات كان لا بد لقائد الانقلاب معاوية، وللدولة الأموية من بعده، من تبني مذهب القضاء والقدر الذي ليس من شأنه إنكار الواقع، بل تبريره. وهكذا يقال إن معاوية لما بلغته فحوى النبوءة النبوية القائلة: «خلافة نبوة ثلاثون عاماً، ثم يؤتي اللّه ملكه من يشاء»، قال: «رضينا بالملك» (ج٦، ص ١٩٨).

وفي الحقيقة، إن حرب نبوءات متضادة قد نشبت في العهد الأموي. فمن جهة كان المتضررون من الانقلاب الأموي، أي أهل المدينة والحجاز عموماً، يجدون خير تعبير عن موقفهم التنديدي في النبوءة التالية المروية على لسان معاذ بن جبل: «قال: إن اللّه بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة، وكائناً خلافة ورحمة، وكائناً ملكاً عضوضاً، وكائناً عزة وجبرية وفساداً في الأمة يستحلون الفروج والخمور والحرير، ويُنصرون على ذلك ويرزقون أبداً حتى يلقوا اللّه عز وجل»(٥٤) (ج٦، ص ١٩٨). ومن الجهة الثانية كانت توضع على لسان الرسول نبوءات تشيد بمعاوية وتدعو إلى الالتفاف من حوله: «لا تذهب الأيام والليالي حتى تجتمع هذه الأمة على معاوية»(٥٥).

ولنا أن نلاحظ أن جدلية «خلافة النبوة والملك» **إذ تفصح عن منطوق به**

---

(٥٣) تجد هذه الانتقادات نموذجها في قولة مشهورة لعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق. فعندما عهد معاوية بالخلافة من بعده لابنه يزيد وكتب إلى مروان بن الحكم بالمدينة أن يأخذ البيعة، فخطب مروان في أهلها فقال: «إن أمير المؤمنين رأى أن يستخلف عليكم ولده يزيد سُنَّة أبي بكر وعمر»، فقام عبد الرحمن وقال: «بل سُنّة كسرى وقيصر، إن أبا بكر وعمر لم يجعلاها في أولادهما، ولا في أحد من أهل بيتهما» (**تاريخ الخلفاء**، ص ١٩٦). وموقف مروان هذا هو ما استتبع أن تُختلق بشأنه على لسان الرسول نبوءة تقول: «إن مروان بن الحكم لما وُلد دُفع إلى النبي (ص) ليدعو له، فأبى أن يفعل ثم قال: ابن الزرقاء، هلاك أمتي على يديه ويدي ذريته» (ج ٦، ص ٢٤٣).

(٥٤) لنلاحظ أن هذه النبوءة نفسها، على حمولتها من التنديد، تشي أيضاً بنزعة قدرية.

(٥٥) الواقع أن الأحاديث النبوية في فضائل معاوية عديدة، وأشهرها أن الرسول قال لمعاوية: «اللهم اجعله هادياً مهدياً»، وهو الحديث الذي كان ولا يزال إلى يومنا مدار تصديق وتكذيب متبادلين بين السلفيين السنيين والسلفيين الشيعيين.

تضمر مسكوتاً عنه. فلئن كانت تتعامل **بواقعية** مع مُلْك معاوية والسلالة الأموية من بعده، فقد كانت تكرِّس في الوقت نفسه **مثالية** الخلافة الراشدية[٥٦]. وهذا المضمر سيُصرح به عندما ستفرض نفسها ضرورة ضمّ خليفة خامس إلى الخلفاء الراشدين الأربعة، هو عمر بن عبد العزيز الذي سيقول فيه أهل السلف السنيون بلسان قيس بن جبير: «مَثَل عمر في بني أمية مَثَل مؤمن آل فرعون»[٥٧]. وعلى هذا النحو ستصاغ نبوءة نبوية استدراكية تؤكد على لسان الرسول أنه، بعد أن يكون مُلْك بعد النبوة، ستكون هناك «خلافة على منهاج النبوة»، وهذه، كما يؤكد ابن كثير، «إشارة نبوية إلى دولة عمر بن عبد العزيز تاج بني أمية» (ج٦، ص ٢٣٨).

والواقع أنه قبل تكريس خلافة «خامس الخلفاء الراشدين» كانت نبوءات نبوية عدة قد كرست خلافة الخلفاء الأربعة. ولكن ابن كثير ـ مدفوعاً في أرجح الظن بنزعته السلفية السنية المتطرفة ـ لا يذكر من تلك النبوءات سوى تلك التي تكرس خلافة الثلاثة الأوائل دون الرابع، علي بن أبي طالب[٥٨]. ومن هذه النبوءات ما جاء على لسان أنس بن مالك في صحيح البخاري: «قال: صعد رسول اللّه (ص) أُحُداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم الجبل، فضربه رسول اللّه (ص) برجله وقال: أثبت، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»[٥٩] (ج٦، ص ١٩٩).

---

(٥٦) الواقع أن صفة «الراشدية» تخفي هي نفسها مسكوتاً عنه. فعلى عكس ما توحي به هذه الصفة، فإن عهد الخلفاء الراشدين الأربعة كان ـ باستثناء خلافة عمر الذي عرف كيف يحوّل اتجاه الطاقات الداخلية المضطرمة نحو الفتوحات الخارجية ـ عهداً متواصلاً من اقتتالات وحروب أهلية دامية سقط فيها من المسلمين أكثر بكثير مما سقط في الحروب الخارجية.

(٥٧) الحق أن عمر بن عبد العزيز سيحظى أيضاً بتقدير أهل السلف الشيعيين لأنه أخذ المبادرة إلى ردّ فدك ـ التي كان صادرها أبو بكر ـ إلى ورثة فاطمة بنت الرسول.

(٥٨) علماً بأن ابن كثير نفسه يتخذ في موضع آخر موقفاً انتقادياً من «نواصب» أهل الشام الذين لا يعترفون بخلافة علي.

(٥٩) في روايات أخرى أن ما تحرك ليس أحداً، بل صخرة حراء.

ومنها أيضاً نبوءة تتكرر بصيغ شتى، ومفادها كما رويت على لسان زيد بن أرقم: «قال: بعثني رسول اللّه (ص) فقال: انطلق حتى تأتي أبا بكر فتجده في داره محتبياً فقل: إن رسول اللّه يقرأ عليك السلام ويقول: ابشر بالجنة، ثم انطلق حتى تأتي الثنية فتلقى عمر راكباً على حمار تلوح صلعته فقل: إن رسول اللّه يقرأ عليك السلام ويقول: ابشر بالجنة، ثم انصرف حتى تأتي عثمان فتجده في السوق يبيع ويبتاع، فقل: إن رسول اللّه يقرأ عليك السلام ويقول: ابشر بالجنة بعد بلاء شديد»[٦٠] (ج٦، ص ٢٠٥).

ولا شك أن مقتل عثمان ـ ذي النورين ـ كان مفجعاً للوعي الديني للمعاصرين، وعلى الأخص للاحقين، ولا سيما أنه جرى على أيدي فريق من الصحابة، في مقدمتهم محمد بن أبي بكر الصديق الذي سيلقى هو الآخر حتفه بصورة لا تقل بشاعة[٦١]. ولا سيما أيضاً أنه تلته مباشرة حرب أهلية ضارية كان بطلاها الرئيسان عائشة بنت أبي بكر الصديق، أحب زوجات الرسول إليه، وعلي بن أبي طالب، ابن عمه وزوج بنته فاطمة. وقد استطالت هذه الفتنة لتشمل الحرب بين علي ومعاوية، ثم حرب الأمويين ضد المدينة ومكة على التوالي. وهذه الفتنة المتتالية فصولاً هي التي استوجبت اصطناع نبوءات نبوية تنذر بها وتحذر منها وتدعو إلى الاستنكاف عنها، وعدم التورط فيها، ووقوف موقف الحياد من جميع الأطراف - وكلهم من الصحابيين ـ المتورطين فيها. ومما أورده ابن كثير في هذا الصدد:

ـ عن محمد بن مسلمة قال: «إن رسول اللّه (ص) قال: إنها ستكون فتنة وفرقة واختلاف، فإذا كان ذلك فأتِ بسيفك أُحُداً، فاضرب به عرضه، وكسِّر نبلك، واقطع وَتَرَك، واجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو يعافيك اللّه» (ج٦، ص ٢١٠)

(٦٠) وفي رواية أخرى أنه قال: «بشره بالجنة على بلوى تصيبه».

(٦١) ذكر أنه بعد أن قتل جُعل في جيفة حمار ثم أحرق بالنار، وفي بعض الروايات أنه لما أحرق كان لا يزال حياً.

ـ وعن حماد بن مسلمة أن علياً أتى أُهبان الغفاري فقال: «ما يمنعك أن تتبعنا؟ فقال: أوصاني خليلي وابن عمك (ص) أن ستكون فرقة وفتنة واختلاف، فإذا كان كذلك فاكسر سيفك واقعد في بيتك واتخذ سيفاً من خشب» (ج٦، ص ٢١٠).

ـ وعن أبي بكرة أن «رسول اللّه (ص) قال: «إنها ستكون فتنة ثم تكون فتنة، ألا فالماشي فيها خير من الساعي إليها، والقاعد فيها خير من القائم» (ج ٦، ص ٢١١).

يبقى أن نقول إن قائمة النبوءات النبوية المسيَّسة عند ابن كثير تتطاول لتغطي ليس فقط زمن الصحابة، بل كذلك زمن التابعين وتابعي التابعين، لتتنبأ ليس فقط بقيام الدولة الأموية وسقوطها، بل كذلك بمجيء آل عباس وقيام دولتهم وصولاً إلى عهد المأمون الذي يروي ابن كثير بصدده نقلاً عن ابن مسعود أن الرسول قال: «السابع من ولد عباس يدعو الناس إلى الكفر فلا يجيبونه، فيقتله عدو له من أهل بيته من بني هاشم. وهذا الحديث ينطبق على عبد اللّه المأمون الذي دعا الناس إلى القول بخلق القرآن» (ج٦، ص ٢٥٣).

المعجزات النبوية طبقاً للحلبي

لئن يكن ابن كثير قد قال عن معجزات الرسول «هذا باب عظيم لا يمكن استقصاء جميع ما فيها لكثرتها» وبيانها «يستدعي كلاماً طويلاً وتفصيلاً لا تسعه مجلدات عديدة»، ولئن يكن القاضي عياض قال من قبله إن النبي «أكثر الرسل معجزة» و«المعجزات التي ظهرت على يده هي ـ في كثرتها ـ لا يحيط بها ضبط»، ولئن كان البيهقي قال من قبلهما إن الرسول هو «أكثر الرسل آيات» وأن «أعلام نبوته تبلغ ألفاً»، فإن مصنف **السيرة الحلبية** لا يكتفي بالقول نقلاً عن «بعض العلماء بأن معجزاته (ص) لا تنحصر»، بل يضيف: «وفي كلام بعض آخر أنه (ص) أُعطي ثلاثة آلاف معجزة» (ج٣، ص ٣٩١).

وليس في الباب الذي يفرده الحلبي تحت عنوان: «ذكر نبذ من معجزاته

(ص)» جديد لم يسبقه إليه الماوردي أو عياض أو ابن كثير، ولكنه بالمقابل يتوسع أكثر بكثير مما توسعوا في ذكر الآيات والمعجزات التي سبقت مبعثه، بله مولده، بله الحمل به.

والواقع أن أكثر ما يلفت انتباه المتتبع لأدبيات السيرة هو أن النبي محمّداً، الذي أكد أكثر من أي نبي آخر على بشريته كما تشهد على ذلك آيات عديدة في القرآن ـ وهذا إلى حد أنه وصف نفسه بأنه **رسول** أكثر مما وصفها بأنه **نبي** في مئات من الآيات ـ قد أخضعت سيرته لعملية أَسْطَرة لم تخضع لها سيرة أي نبي آخر، ربما باستثناء عيسى الذي جرى تأليهه.

وليس من قبيل الصدفة أن يكون الرسول نفسه قد حذّر في حديث منسوب إليه من أن يعبده المسلمون كما «عبدت النصارى عيسى بن مريم»(٦٢). فكتب السيرة، ولا سيّما المتأخرة منها، وطرداً مع تأخرها، لم تكتف بتجاهل هذا التحذير، ولا بتجاهل مضمون الآية القرآنية التي يُربط بينه وبينها في كتب أسباب النزول(٦٣)، بل دخلت في منافسة فيما بينها لتغلو التالية منها أكثر مما غلت السابقة في إرساء عبادة حقيقية لشخص الرسول وفق النمودج العيسوي.

والحال أن **السيرة الحلبية**، المصنفة في القرن الحادي عشر الهجري، قد استفادت من كل التراكم في أدبيات السيرة لترقى بعملية الأسطرة إلى مستوى غير مسبوق، ولتحيط بهالتها لا الرسول وحده قبل مبعثه وبعده، بل كذلك قبيلته وجده وأمه ومرضعته.

فعن قبيلة قريش يروي أبو الفرج عن ابن عباس: «قال: إن قريشاً كانت

---

(٦٢) لم يرد هذا الحديث في الصحاح ومسانيد الحديث التسعة، وقد انفرد بإيراده من كتاب السيرة السهيلي في **الروض الأنف** وابن سيد الناس في **عيون الأثر**. وورد بصيغة مختلفة لدى الطبري والواحدي. وإذا صح أن الحديث موضوع فواضح أن واضعه أراد التصدي لظاهرة كانت قد غدت عامة في إسلام القرن الرابع فصاعداً.

(٦٣) وهي الآية ٧٩ من سورة آل عمران: ﴿وما كان لبشر أن يؤتيه اللّه الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون اللّه﴾.

نوراً بين يدي اللّه تعالى قبل أن يخلق آدم بألفي عام» (ج١، ص ٤٦).

وعن جده عبد المطلب يحكي الحكاية التالية التي ترفعه إلى مقام إبراهيم التوراة: «قيل إن عبد المطلب نذر أن ينحر بعض ولده إن سهّل اللّه له حفر بئر زمزم. فلما صاروا عشرة أُمِر في اليوم بالوفاء بنذره. . . فضرب القداح على أولاده وأحبهم إليه، فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة، ثم ألقاه على الأرض ووضع رجله على عنقه». ولكن كما لو بتدخل إلهي «جذب العباس عبد اللّه من تحت رجل أبيه حتى أثر في وجهه شجة لم تزل في وجه عبد اللّه إلى أن مات»[(٦٤)] (ج١، ص ٥٤).

وعن أمه آمنة بنت وهب من بني زهرة يروي أن «سودة بنت زهرة، عمة وهب والد آمنة، أمه (ص)، كان من أمرها أنها لما وُلدت رآها أبوها زرقاء شيماء أي سوداء، وكانوا يئدون من البنات من كانت على هذه الصفة. . . فأمر بوأدها. . فلما حَفَر لها الحافر وأراد دفنها سمع هاتفاً يقول: لا تئد الصبية وخلِّها في البرية. . . فرجع إلى أبيها وأخبره بما سمع، فقال: إن لها شأناً، وتركها، فكانت كاهنة قريش. فقالت يوماً لبني زهرة: فيكم نذيرة أو تلد نذيراً، فاعرضوا عليّ بناتكن، فعُرضن عليها. . . [ولما] عُرضت عليها آمنة بنت وهب قالت: هذه النذيرة تلد نذيراً، له شأن وبرهان، منيراً» (ج١، ص ٦٨).

وكما أسبغت على عبد المطلب هالة إبراهيم التوراة، كذلك ستسبغ على آمنة هالة مريم الإنجيل. فكما ظهر ملاك الرب ليبشر مريم بولادة يسوع، كذلك أتى آمنة، وهي «بين النائمة واليقظانة ، آتٍ من الملائكة، وقال: هل شعرت بأنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها؟» (ج١، ص ٦٩). وبالإضافة إلى هذه الرواية المروية عن كعب الأحبار يروي الحلبي عن ابن عباس قوله: «كان

---

(٦٤) لنلاحظ أن هذه الحكاية تؤسطر لا جد الرسول عبد المطلب وحده، بل كذلك عمه العباس الذي من سلالته ستقوم الدولة العباسية.

من دلالة حمل آمنة برسول اللّه (ص) أن كل دابة لقريش نطقت تلك الليلة. . . وقالت: «حُمل برسول اللّه ورب الكعبة». ولئن يكن ابن عباس قد قال: «ولم يبق سرير لملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً»، فإن كعب الأحبار أضاف القول، فيما يروي عنه الحلبي، أنه «في صبيحة تلك الليلة أصبحت أصنام الدنيا منكوسة» (ج١، ص ٧٠).

ومثله مثل عيسى، الذي «ولد في الشهر الثامن» وعاش رغم ما نص عليه «الحكماء والمنجمون من أن من ولد في الشهر الثامن لا يعيش»، كذلك ولد الرسول ـ طبقاً لإحدى الروايات ـ في الشهر الثامن، و «ذلك آية» له (ج١، ص٧١).

وكما «نقل عن عيسى عليه السلام أنه كان يكلم أمه وهو في رحمها، كذلك كان «صلى اللّه عليه وسلم يذكر اللّه في بطن أمه»[٦٥] (ج١، ص٧٢).

ولئن توفي أبوه «وأم رسول اللّه حامل به»، فإن رواية منقولة عن عائشة تقول «إن اللّه أحيا له أباه وآمن به». وفي رواية أخرى أن «اللّه أحيا أبويه حتى آمنا به»[٦٦] (ج١، ص٧٥).

وعندما وُلد الرسول «ولد مختوناً، أي مكحولاً ونظيفاً ما به من قذر»[٦٧]. وذكر أنس بن مالك على لسانه أنه قال: «من كرامتي على ربي أني ولدت مختوناً، ولم ير أحد سوأتي»[٦٨] (ج١، ص ٧٨ ـ ٧٩).

---

(٦٥) هنا يقر الحلبي بأن هذه الآية محكية على «ألسنة المداح» وأنه لم يقف لها على أثر في الكتب.

(٦٦) وجد كثيرون ممن شككوا في صحة هذا الخبر، ومنهم ابن كثير. ولكن الحلبي يثبِّته مؤكداً أن «هذا من جملة خصوصياته (ص)»، ومستشهداً بكلام القرطبي: «قد أحيا اللّه سبحانه وتعالى على يديه (ص) جماعة من الموتى» (ج ١، ص ٧٦).

(٦٧) وفي رواية أخرى أنه «ولد مسروراً، أي مقطوع السرة من بطن أمه».

(٦٨) بما أن هذه الرواية تتناقض مع ما يروى في كتب السيرة من أن جده عبد المطلب أمر بختانه سابع يوم ولادته وذبح عنه، فقد استدرك الحلبي بالقول: «يجوز أن يكون ولد مختوناً غير تام الختان، فتمّم جده ختانه» (ج ١، ص ٧٩).

وفي رواية عن الواقدي أن الرسول «لما ولد تكلم»، وروي أن «أول ما تكلّم به لما ولدته أمه حين خروجه من بطنها: اللّه أكبر كبيراً، والحمد للّه كثيراً، وسبحان اللّه بكرة وأصيلاً» (ج١، ص ٨٤).

وبما أن «زمان النبوة صالح للخوارق» فلا عجب أن يُروى عن أم عثمان بن أبي العاص أن النجوم سقطت لولادته، ولا يستبعد أن تكون سقطت نهاراً، إذا صحّت الرواية التي تقول إنه ولد نهاراً، لا ليلاً (ج١، ص ٨٥). ولا عجب أيضاً أن يروى عن عكرمة أن إبليس رأى بأم عينه تساقط النجوم، فقال لجنوده: «لقد ولد الليلة ولد يفسد علينا أمرنا» (ج١، ص١٠٠)، ولا عجب أخيراً أن يكون، ليلة ولادته، «ارتجس إيوان كسرى» وخمدت «بيوت نار فارس» و «تزلزلت الكعبة» و «تنكست الأصنام»(٦٩) (ج١، ص ١٠٣ ـ ١٠٧).

وتوالت بعد مولده المعجزات: منها ما يرتبط بتسميته، ومنها ما يرتبط برضاعه، ومنها ما يرتبط بفطامه.

ففي ما يتعلق بتسميته يروي الحلبي أنه «لما مات قشم بن عبد المطلب قبل مولد رسول اللّه (ص) بثلاث سنين، وهو ابن تسع سنين، وَجَد عليه وجداً شديداً، فلما ولد رسول اللّه (ص) سماه قشم، حتى أخبرته أمه آمنة أنها أُمرت في منامها أن تسميه محمداً، فسماه محمداً» (ج١، ص١١٨). وفي رواية أخرى أنه سمي بأحمد قبل أن يسمى بمحمد. وعلى أي حال، فـ «إن في هذين الاسمين محمد وأحمد من بدائع آياته، أي المصطفى، أن اللّه تعالى حماهما عن أن يسمى بهما أحد قبل زمانه» (ج١، ص ١١٨).

وعلى أي حال أيضاً فإن هذا الاسم، منذ أن سمّي به الرسول، باتت له

(٦٩) وضعت رواية تنكُّس الأصنام على لسان عبد المطلب: «وقال: كنت في الكعبة فرأيت الأصنام سقطت من أماكنها وخرَّت سجّداً». ولا شك أن هذه الرواية وضعت محاكاة لرواية مماثلة من مولد المسيح. فعن وهب بن منبه أنه قال: «لما كانت الليلة التي ولد فيها عيسى صلى اللّه على نبينا وعليه أصبحت الأصنام في جميع الأرض منكسة على رؤوسهم، وكلما ردوها على قوائمها انقلبت» (ج ١، ص ١٠٣).

قدرة عجائبية. فقد روي عن عطاء: «قال: ما سمي مولود في بطن أمه محمداً إلا كان ذكراً». وعن الحسين بن علي بن أبي طالب: «قال: من كان له حمل فنوى أن يسميه محمداً حوّله اللّه تعالى ذكراً وإن كان أنثى» (ج١، ص ١٢٢).

وفيما يتعلق برضاعه ينقل الحلبي عن ابن المحرث الآية التالية: فقد أرضعت الرسول، قبل حليمة، ثلاث نسوة **أبكار** من بني سليم: «أخرجن ثديهن فوضعنها في فمه، فدرّت في فيه، فرضع منهن» (ج١، ص ١٢٨).

وعندما أرضعته حليمة السعدية در لبنها مع أن ابنها نفسه ما كان ينام قبل ذلك من الجوع. وهكذا ينقل الحلبي عن الهمداني أن «أحد ثديي حليمة كان لا يدر اللبن منه، فلما وضعته في فم رسول اللّه (ص) در اللبن منه. قالت: وشرب معه أخوه حتى روي، ثم نام، وما كنا ننام معه قبل ذلك»[٧٠] (ج١، ص ١٣٢).

وفيما يتعلق بفطامه ينقل الحلبي عن ابن عباس: «قال: كان أول كلام تكلم به صلى اللّه عليه وسلم حين فطمته حليمة رضي اللّه تعالى عنها: اللّه أكبر كبيراً، والحمد للّه كثيراً، وسبحان اللّه بكرة وأصيلاً»[٧١] (ج١، ص ١٣٥).

ولن نتوقف هنا عند الفصل ـ وهو من أطول فصول **السيرة الحلبية** ـ الذي يعقده للنبوءات التي بشرت بمولده ومبعثه تحت هذا العنوان الدال بحد ذاته:

---

(٧٠) الواقع أن المخيال الميثي، الذي كان يقوم لتلك الأزمنة مقام المخيال الاجتماعي، ينسج حول حليمة، مرضع الرسول، حكايات ضاربة في الأسطورية، ومنها أنها لما حملت الرسول إلى مضاربها في بني سعد نطقت أتانها وقالت لها إنه سيكون لها شأن ثم شأن. ومنها أيضاً أن الرسول إذ كان في حجرها ذات يوم مرت به غنيماتها، «فأقبلت واحدة منهن حتى سجدت له وقبلت رأسه، ثم ذهبت إلى صواحبها» (ج ٢١، ص ١٣٢ ـ ١٣٣).

(٧١) هنا يلاحظ الحلبي نفسه أنه «قد تقدم أنه (ص) تكلم بهذا عند خروجه من بطن أمه». وعلى أي حال، إن حليمة هي أيضاً من قيل إنها قالت: «لما بلغ (ص) ثمانية أشهر كان يتكلم بحيث يسمع كلامه، ولما بلغ تسعة أشهر كان يتكلم الكلام الفصيح، ولما بلغ عشرة أشهر كان يرمي السهام مع الصبيان» (ج ١، ص ١٣٣).

«باب: ما جاء من أمر رسول اللّه (ص) عن أحبار اليهود وعن الرهبان من النصارى وعن الكهان من العرب على ألسنة الجان وعلى غير ألسنتهم، وما سمع من الهواتف ومن بعض الوحوش ومن بعض الأشجار، وطرد الشياطين من استراق السمع عند مبعثه بكثرة تساقط النجوم، وما وجد من ذكره مكتوباً من النبات والأحجار وغيرهما» (ج١، ص ٢٦٥). ولكن لنختم بإيراد آيتين من الآيات التي يقال لنا إنه أتاها لحمل أهل مكة على التصديق بنبوته. فعلى الرغم من أن الحلبي يورد ما كان أورده ابن هشام من أن الرسول حين طالبه المكيون اللامصدقون بإتيان معجزة باهرة تثبت مدعاه ردّ بأنه ما بعث إليهم لهذا، فإنه يورد في باب «خوارق العادات وغير العادات» التي سأله إياها القرشيون خبر هاتين المعجزتين:

١ ـ اجتمع المشركون فقالوا: إن كنت صادقاً فشقّ لنا القمر فرقتين، نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قعيقعان، وكانت ليلة أربعة عشر، أي ليلة البدر، فقال لهم رسول اللّه (ص): «إن فعلت تؤمنوا؟ قالوا: نعم، فسأل رسول اللّه (ص) ربه أن يعطيه ما سألوا، فانشق القمر»[(٧٢)] (ج١، ص ٤٣٢).

٢ ـ «قال أبو جهل، يا محمد إن أخرجت لنا طاوساً من صخرة في داري آمنت بك، فدعا (ص) ربه عز وجل فصارت الصخرة تئن كأنين المرأة الحبلى، ثم انشقت عن طاوس صدره من ذهب، ورأسه من زبرجد، وجناحاه من ياقوتة، ورجلاه من جوهر، فلما رأى ذلك أبو جهل أعرض ولم يؤمن»[(٧٣)] (ج١، ص ٤٣٢).

---

(٧٢) هذه الرواية محكية على لسان ابن عباس. وقد وردت بالفعل إشارة إلى انشقاق القمر في القرآن في الآية الأولى من سورة القمر، ولكن مقترناً باقتراب قيام الساعة: «اقتربت الساعة وانشق القمر». ولنلاحظ أن صيغة الماضي تفيد هنا الاستقبال، وهذا من «أسرار البلاغة» القرآنية: فعندما يراد التأكيد على أن ما سيقع سيقع لا محالة يصاغ بصيغة الماضي وكأنما وقع فعلاً.

(٧٣) أورد قصة هذه الآية جلال الدين السيوطي في فتاويه عن «جملة أسئلة رفعت إليه فأجاب عنها بأنها باطلة».

ولنا أن نلاحظ هنا، وعلى سبيل الختام، أن مصنف **السيرة الحلبية** إذ يلغي على هذا النحو كل مسافة فاصلة بين «خرق العادات» وخرق قوانين العقل بالذات فقد يكون في محصلة الحساب معذوراً: فهو ليس محكوماً فقط بنظام المعرفة [= الابستمي] الميثي الذي اشتدت قبضته على نحو غير مسبوق إليه في عصر الانحطاط الذي كان عصره، بل هو أيضاً مؤلف سيرة.

والحال أنه قد أقرّ بنفسه في مقدمة كتابه بأن السِّير تقدم مرتعاً خصباً لاشتغال العقلية الميثية ـ من حيث هي عقلية متحلِّلة من قيد الصحة التاريخية ـ وإن يكن قد عبّر عن ذلك بلغته ولغة عصره حينما قال: «لا يخفى أن السير تجمع الصحيح والسقيم، والضعيف والمرسل والمنقطع والمعضل. . . وقد قال الإمام أحمد بن حنبل وغيره من الأئمة: إذا روينا في الحلال والحرام شددنا، وإذا روينا في الفضائل ونحوها تساهلنا. وفي الأصل: والذي ذهب إليه كثير من أهل العلم الترخص في الرقائق وما لا حكم فيه من أخبار المغازي وما يجري مجرى ذلك، وأنه يقبل منها ما لا يقبل في الحلال والحرام، لعدم تعلق الأحكام بها» (ج١، ص ٥ ـ ٦).

المعجزات النبوية طبقاً للخصيبي

إذا كان الغائب الكبير عن المعجزات النبوية في الأدبيات السنية هو علي بن أبي طالب(٧٤)، فلنا أن نتوقع أن يكون هو الحاضر الكبير في الأدبيات الشيعية عنها. والواقع أن المقارنة بين هذه الأدبيات وتلك تقدم الدليل الكافي ليس فقط على أن **حدود العقل الديني تقف عند حدود العقول الدينية الأخرى، كما في مثال الديانات التوحيدية الثلاث التي يكاد يكون شغلها الشاغل تكذيب بعضها بعضاً، بل كذلك الدليل على أن حدود العقل الديني الواحد تقف أيضاً عند حدود كل طائفة من طوائفه التي تعتمد بدورها**

(٧٤) لنستذكر كيف جنّد ابن كثير كل طاقته النقدية لينفي حدوث المعجزة النبوية الوحيدة التي كان مدارها على عليّ: معجزة رد الشمس بعد مغيبها.

استراتيجية التكذيب المتبادل. بل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول: **لئن يكن العقل الديني هو أقل العقول الكونية عقلانية، فإن المقارنة نفسها تبيح لنا أن نستنتج أن العقل الطائفي هو بدوره أقل العقول الدينية عقلانية**. وقد يكون ذلك أبرز في الأدبيات الشيعية عن المعجزات منه في الأدبيات السنية. وربما كان ذلك يعود إلى أن استئثار الغالبية السنية بالسلطة السياسية على مدى القرون قد ترتب عليه التزام أكبر بقيد الواقعية، على حين أن استبعاد الأقلية الشيعية من حقل الفاعلية السياسية ـ إلا في حالات محدودة وجزئية ـ قد ألجأها إلى الإيغال ـ على سبيل التعويض ـ في عالم الخيال. **فالخيال هو واقع من لا واقع له. وهذا ما يمكن استقراؤه بسهولة من أدبيات المعجزات الشيعية التي تتسم ـ فضلاً عن مركزية الحضور العلوي فيها ـ بدرجة من الغرائبية أعلى بكثير**.

نموذج هذه المعجزات نجده لدى مصنف **الهداية الكبرى**، أبي عبد اللّه بن حمدان الخصيبي المتوفى عام ٣٣٤ هـ[(٧٥)]. فهو يورد للرسول تحت اسم **الدلائل**، وأحياناً تحت اسم **العجائب**، نحواً من ثلاثين معجزة. وبعض هذه المعجزات ـ ثلاث حصراً ـ يكرر بصورة شبه حرفية ما ورد عنها في الأدبيات السنية، ولكن بإسناد مختلف تتألف كل سلسلته من رواة شيعة أو معدودين من الشيعة، وفي مقدمتهم محمد الباقر وابنه جعفر الصادق. ومنها ما يتصل بتكثير الطعام، ولكن مع تغيير مسرح الحدث وهوية أبطاله. فقصة قصعة التمر التي أطعم منها الرسول المئات من أهل المدينة وبقي التمر فيها كما هو لم ينقص، يُنقل مسرحها في رواية الخصيبي إلى بيت أم سلمة زوجته، حيث عُقد زواج بنته فاطمة على علي. وإنما بمناسبة هذا الزواج دعا الرسول «بتمرات كانت له في قعب وفضلة سمن عربي فطرحه في قصعة وقال: قدموا يا أنصار الصحاف

(٧٥) هكذا ورد اسمه في هذا الكتاب كما لدى ابن النديم في **الفهرست**، ولكنه يرد في مصادر شيعية أخرى باسم الحضيني.

والقصاع واحملوا إلى سائر أهل المدينة وأبواب المهاجرين والأنصار، ثم سائر المسلمين، وأسرعوا للسابلة ما يأكلون ويتزودون، فلم تزل يده المباركة تنقل من القصعة إلى الصحاف وهي تمتلئ وتفيض حتى امتلأ منها منازل المسلمين في المدينة وتزودت السابلة وسائر الناس، وقصعته عليه السلام كهيئتها بحالها»(٧٦).

كذلك فإن ما اشتهر في الأدبيات السنية عن تكثير الطعام في بيت أم سليم، زوجة أبي طلحة الأنصاري ـ التي أعدت من الطعام ما يكفي أربعة رجال، فإذا بالعشرة بعد العشرة حتى أربوا على الثمانين يأكلون منه حتى الشبع، وهو، ببركة الرسول، لا ينفد ـ هو بعينه ما يتكرر في بيت أم مالك، زوجة سعد بن مالك الأنصاري، مع تغيير في قائمة المدعوين لتتألف حصراً من الصحابيين المعدودين من الشيعة من أمثال المقداد بن الأسود وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر، فضلاً عن علي بن أبي طالب. وتماماً كما في قصة شاة جابر عبد اللّه التي ذبحها ليطعم منها ضيفه الرسول وأرسالاً بعد الأرسال من الأنصار، والتي أحياها الرسول من عظامها بعد أن منعهم من تكسيرها،

---

(٧٦) أبو عبد اللّه بن حمدان الخصيبي: **الهداية الكبرى**، مؤسّسة البلاغ، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٩١، نقلاً عن مكتبة يعسوب الالكترونية، ص ١١٥. وسنلاحظ، بمناسبة الوليمة العجائبية التي أقامها الرسول يوم زفاف ابنته فاطمة، أن أدبيات المعجزة الشيعية يسري عليها، بمرور الزمن، نفس قانون التضخم الذي لاحظنا سريانه على أدبيات المعجزة السنية. وهكذا سيأخذ «خبر الوليمة» في الأدبيات الشيعية المتأخرة، كما في **دلائل الإمامة** لمحمد بن جرير الطبري الشيعي الصغير ـ وهو من علماء الإمامية في القرن الخامس الهجري ـ سيأخذ بعداً تراكمياً يتحول معه من مجرد خبر إلى قصة متعددة الحلقات. على هذا النحو يروي هذا المصنف عن جعفر الصادق أن اللّه بعث، يوم زواج فاطمة من علي، «سحابة فأمطرت الدر والياقوت واللؤلؤ والجوهر، ونثرت السنبل والقرنفل»، وأن القصعة التي أعدها الرسول تحولت إلى صحفة عظيمة ناء بحملها أربعون من الرجال، وأنها أطعمت ثلاثة آلاف من المسلمين وثلاثمئة من المنافقين على مدة ثلاثة أيام متتالية بدون أن «ينقص منها ولا خردلة واحدة» (محمد بن جرير الطبري: **دلائل الإمامة**، مؤسسة البعثة، قم ١٤١٣ هـ، ص ٩٥ ـ ٩٦).

كذلك فإن الرسول سيحيي في بيت اليهودي الذي دعاه للعشاء الخروف الذي أطعمه منه. ولكن تماماً كما في قصة ذراع الشاة المسمومة التي نطقت فحذرت الرسول من أكل اللحم المشوي الذي أعدته له امرأة يهودية، كذلك فإن الخروف المشوي سينطق ويحذر الرسول من أكله لأنه مسموم. ولكن على خلاف المرويات السنية التي يذهب أغلبها إلى أن الرسول أمر بقتل المرأة اليهودية التي أرادت سمّه، فإن قصة خروف اليهودي تنتهي بإسلام هذا الأخير بعد أن أقر للرسول بأن الخروف قص عليه قصة المؤامرة كما حيكت «ما نقص حرفاً ولا زاد حرفاً» (ص ٤٤-٤٥).

وكما في تكثير الطعام كذلك في إنباع الماء، ولكن مع توظيف المعجزة هذه المرة لصالح علي بن أبي طالب. ففي رواية عن جعفر الصادق قال: «خرج رسول اللّه (ص) إلى غزوة تبوك وخلف أمير المؤمنين عليه السلام وسائر من بها، فتكلم الناس فيه وقالوا: ما بال علي مقدم في كل غزوات رسول اللّه وقد أخره عن هذه الغزوة بالمدينة؟ فخرج إليه أمير المؤمنين حتى وافى معسكر رسول اللّه فقال له: فداك أبي وأمي يا علي ما الذي جاء بك؟ قال: إن الناس يقولون أنك ما خلّفتني بالمدينة إلا من بغضك لي. قال رسول اللّه: ليس الأمر كما يقولون يا علي، كيف وقد أمرني اللّه ـ حيث أسري بي إليه ـ أن أؤاخيك وأزوّجك بفاطمة بنتي سيدة نساء العالمين في الأرض بعد أن زوجك اللّه في السماء، وأمرني أن أعلمك جميع علمي ولا أتركك. . . وأنت أخي وأنا أخوك في الدنيا وفي الآخرة. . . فلما قال النبي ذلك رجع علي إلى المدينة مستبشراً مسروراً، وسار رسول اللّه والناس معه، فشكوا العطش. . . ومات بعضهم وبعض دوابهم، فلما رأوا ما نزل بهم قالوا: يا رسول اللّه ادع لنا ربك يسقينا رياً من الماء، فنزل جبريل فقال: «يا رسول اللّه ابحث بيدك هذا الصعيد وضع قدميك وإصبعيك المسبحتين فينفجر اثنتا عشرة عيناً كما انفجرت لموسى، فوضع النبي عشر أصابع رجليه وسبابتيه وسمى باسم اللّه ودعا فتفجرت من بين أصابعه اثنتا عشرة عيناً» (ص ٦٤).

وتماماً كما في معجزة تسبيح الحصى، سيسوق الخصيبي معجزة مماثلة ولكن في سياق أكثر غرائبية وأكثر «نثرية» معاً، ودوماً مع توظيفها لصالح علي. ففي رواية عن أبي عبد اللّه جعفر الصادق أن قوماً من المنافقين جاؤوا إلى الرسول وطلبوا منه برهاناً على نبوته يضارع البرهان الذي أوتيه داود عندما ألان اللّه له الحديد حتى عجنه بيده، فقال لهم: «هذا سيف من أسيافكم، فأعطونيه حتى أجعله ما شئتم بيدي فقالوا: هذا سيف من أسيافنا فقطّعه لنا إبراً مثقبة إلى الأسفل بلا نار. فأخذ رسول اللّه (ص) سيفاً من أسيافهم فلم يزل يقطعه بيده إبراً مثقبة إلى الأسفل بلا نار حتى أتى على آخره، وقال: أتحبون أن أقطع لكم حمائله إبراً؟ قالوا: هو من أديم يا محمد، قال: يجعلها اللّه حديداً. وضرب بيده المباركة إلى حصى رضراض كان جالساً عليه فقبض منه قبضة وقال: يا حصى سبِّح اللّه بكل لغة في كفي، فنطق ذلك الحصى بثلاث وسبعين لغة يثبتها من عرفها بتسبيح اللّه وتقديسه وتمجيده والشهادة لرسول اللّه بالرسالة ولعلي بالإمامة»(٧٧) (ص ٦٨).

والأمر بالمثل فيما يتعلق بتحريك الجمادات وتسكينها. ففي رواية عن أبي عبد اللّه الصادق أنه «لما ظهرت نبوة محمد بمكة عظم على قريش أمره» وقرّ رأيهم بزعامة أبي سفيان على قتله في مهبط وحيه في حراء. فلما «وافى رسول

(٧٧) تجدر هنا الإشارة إلى أن معجزة تسبيح الحصى توظف في الأدبيات السنية أيضاً لصالح الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل دون رابعهم علي. ففي رواية يوردها ابن كثير عن أبي هريرة قال: «كنت رجلاً أتبع خلوات رسول اللّه، فرأيته يوماً جالساً وحده، فاغتنمت خلوته فجئت حتى جلست إليه، فجاء أبو بكر فسلم عليه ثم جلس عن يمين رسول اللّه، ثم جاء عمر فسلم وجلس عن يمين أبي بكر، ثم جاء عثمان فسلم ثم جلس عن يمين عمر، وبين يدي رسول اللّه سبع حصيات، فأخذهن في كفه فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النخل، ثم أخذهن فوضعهن في كف أبي بكر فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النخل، ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النخل، ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النخل، فقال النبي (ص): هذه خلافة النبوة» (ج ٦، ص ١٣٢).

الله وأمير المؤمنين بين يديه وصعدا جبل حراء اهتز الجبل وماج ففزع أبو سفيان ومن معه وتباعدوا من الجبل وقالوا: قد كفينا مؤونة محمد وقد قذفه حراء وقد قطعه، فسمعوا النبي (ص) وهو يقول اسكن يا حراء، فما عليك إلا نبي ووصي»(٧٨) (ص ١٧٤).

وبديهي من هذا المنظور أن معجزة رد الشمس، التي طعن فيها ابن كثير ـ ومن قبله عديد من أهل السنة كالطنافسي والجوزجاني والدارقطني وابن عساكر وابن الجوزي وابن تيمية ـ تجد تبنِّياً لامشروطاً من قبل الخصيبي، وإن كان يرويها على لسان الإمام الخامس محمد بن علي، لا على لسان أسماء بنت عميس. بل إنه، بموجب الرواية نفسها، يؤكد أن الشمس رُدَّت لعلي ثلاث مرات: مرة في المدينة، ومرتين في العراق. وبالإضافة إلى ذلك يورد على لسان أبي جعفر الباقر رواية معجزة شمسية أخرى عندما أمر الرسول الشمس أن تشهد لصالح علي فنطقت «بلسان عربي مبين» وشهدت على مرأى ومسمع من جميع «حساده» ـ وفي مقدمتهم بطبيعة الحال أبو بكر وعمر وعثمان ـ بأن علياً «أخو رسول اللّه ووصيه» (ص ١١٩).

وتقدم لنا معجزة شق القمر مثالاً آخر على توظيف شيعي يجعل من علي بن أبي طالب فاعلاً مركزياً فيها. يروي الخصيبي عن أبي جعفر الباقر أيضاً: «قال: لما أظهر رسول اللّه (ص) الرسالة والوحي بمكة وأراهم الآيات العظيمة والبراهين المبهرة تحيّرت قبائل قريش من بني أمية وبني تيم وعدي(٧٩) فيما أتى به النبي... فقال بعضهم لبعض: اجمعوا على أن نسأله

---

(٧٨) لنلاحظ أن هذه الرواية تمارس نفس الاستبعاد الذي كانت مارسته، بصدد معجزة حراء، الرواية السنية. فكما كانت هذه الأخيرة استحضرت مع النبي «الصديق والشهيدين» واستبعدت الشهيد الثالث علياً، كذلك استبعدت الرواية الشيعية الثلاثة معاً واستحضرت مع النبي «الوصي» وحده.

(٧٩) لنلاحظ أن هذا التخصيص لثلاث من قبائل قريش البطاح لا يخلو من دلالة: فإلى هذه القبائل، أو البطون بالأحرى، كان ينتمي على التوالي كل من عثمان وأبي بكر وعمر بن الخطاب.

أن يشق لنا القمر في السماء وينزله إلى الأرض شعبتين... وقالوا له: يا محمد قد جعلنا بينك وبيننا آية إن أتيت بها آمنا بك وصدقناك... تقف على المشعرين [= عرفات ومشعر الحرام] فتسأل ربك الذي تقول إنه أرسلك رسولاً أن يشق لك القمر شعبتين وينزله من السماء حتى ينقسم قسمين، ويقع القسم الواحد على المشعرين، والقسم الثاني على الصفا. فقال النبي (ص): فهل أنتم مؤمنون بما قلتم إنكم تؤمنون باللّه ورسوله؟ قالوا: نعم يا محمد... فقال النبي (ص): قم يا أبا الحسن، قف بجانب الصفا، وهرول إلى المشعرين، ونادِ بهذا إظهاراً وقل في ندائك: «اللهم رب هذا البيت الحرام والبلد الحرام وزمزم والمقام ومرسل هذا الرسول التهامي، ائذن للقمر أن ينشق وينزل إلى الأرض، فيقع نصفه على الصفا ونصفه على المشعرين، وقد سمعت سرَّنا ونجوانا وأنت بكل شيء عليم». فتضاحكت قريش وقالوا إن محمداً استشفع بعلي لأنه لم يبلغ الحلم، ولا ذنب له... قال النبي (ص): امض يا علي فيما أمرتك واستعذ باللّه من الجاهلين، ثم هرول أمير المؤمنين عليه السلام من الصفا إلى المشعرين، ونادى وأسمع بالدعاء، فما استتم كلامه حتى كادت الأرض أن تسيخ بأهلها والسماء أن تقع.. ثم إن القمر انشق نصفين، نصفاً وقع على الصفا ونصفاً وقع على المشعرين، فأضاءت داخل مكة وأوديتها، وصاح المنافقون: أهلكنا محمد بسحره، يا محمد افعل ما شئت فلن نؤمن بك ولا بما جئتنا به» (ص ٧٢ ـ ٧٣).

وتقدم لنا معجزة إحياء الميت نموذجاً آخر لهذه الفاعلية المركزية لشخص علي بن أبي طالب في المعجزات المحمدية التي تبقى الآمرية فيها على كل حال للرسول. فعن أبي جعفر الصادق أيضاً أن منافقي قريش قالوا: يا محمد... زعمت أن اللّه أعطى لعيسى إحياء الميت وإبراء الأكمه والأبرص... ونحن نسألك أن تحيي لنا ميتاً، فدعا رسول اللّه (ص) علياً بن أبي طالب عليه السلام وقال له: ائتني ببردتي السحاب وقضيبي الممشوق، ثم

كلمه **بكلام خفي لا يفهم**(٨٠)، ثم قال: انطلق يا علي معهم إلى بلاطة من بلاطهم، فأحيِ لهم من أرادوا من الموتى، فلما انتهوا إلى البلاطة بظهر شعب بني سعد قالوا يا علي: هذا قبر سيد من ساداتنا من أكابر قريش، وقد دفناه بالأمس... أحيه لنا... فدنا أمير المؤمنين من القبر، **وتكلم بكلام خفي** ثم ركل القبر برجله فارتجت الأرض وزلزلت حتى خافوا على أنفسهم فقالوا: يا علي أقلنا أقالك اللّه، فقال علي: ليس الأمر لي، بل الأمر إلى رسول اللّه، وهذا ميتكم فكلموه، فإذا هم بالقبر قد انشق، وخرج الرجل من أكفانه بعينه واسمه ونسبه، فقال: يا ويلكم يا منافقي قريش، ما أجرأكم على ما أنا فيه من العذاب، أو لم أؤمن بمحمد حتى شهرتموني في الدنيا؟ فولوا هاربين» (ص ٦٩).

وما دمنا بصدد إحياء الموتى فلنقف عند معجزة أخرى ما أحيا فيها الرسول أحداً أقل من أهل الكهف أنفسهم ليشهدوا أن اللّه هو من فضّل عليّاً على الثلاثي أبي بكر وعمر وعثمان وأعطاه العهد والولاية إلى يوم الدين. فعن سلمان الفارسي أنه قال: «دخل أبو بكر وعمر وعثمان على رسول اللّه (ص) فقالوا: يا رسول اللّه ما لك تفضل عليّاً علينا في كل الأفعال والأشياء، ولا يرى لنا معه فضل؟ قال لهم: ما أنا فضّلته، بل اللّه فضّله، فقالوا: وما الدليل على ذلك؟ فقال: إذا لم تقبلوا مني فليس شيء عندكم أصدق من أهل الكهف، فمن أحيا اللّه أصحاب الكهف له وأجابوه كان الأفضل. قالوا: رضينا يا رسول اللّه، فأمر الرسول أن يُبسط بساط له، ودعا بعلي فأجلسه في البساط وأجلس كل واحد منهم قرنة، قال: سلمان: وأجلسني القرنة الرابعة، وقال: يا ريح احمليهم إلى أصحاب الكهف وردِّيهم إليّ، فدخلت الريح وسارت بنا، فإذا نحن في كهف عظيم فحطّت عليه. قال أمير المؤمنين: يا

---

(٨٠) التسويد منا ـ هنا وفي كل الشواهد المماثلة ـ للتنويه بأن أدبيات المعجزات الشيعية كثيراً ما تجعل من «الكلام الخفي» و«الهمهمة اللامفهومة» على ألسنة الأئمة مفتاحاً للمعجزة.

سلمان، هذا الكهف والرقيم فقل للقوم: يتقدمون أو أتقدم؟ فقالوا: نحن نتقدم، فقام كل واحد صلى ودعا وقال: السلام عليكم يا أصحاب الكهف، فلم يجبهم أحد، فقام بعدهم أمير المؤمنين صلى ركعتين ودعا **بدعوات خفيات** فصاح الكهف وصاح القوم من داخله بالتلبية، فقال أمير المؤمنين: السلام عليكم أيها الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى، فقالوا: وعليك السلام يا أخا رسول اللّه ووصيه، لقد أخذ اللّه العهد علينا، بعد إيماننا باللّه وبرسوله محمد، ولك يا أمير المؤمنين بالولاية إلى يوم الدين، قال: فسقط القوم لوجوههم»[(٨١)] (ص ١١٢).

ولا يعسر علينا بعد هذا كله أن نستنتج: ففي الروايات الشيعية عن المعجزات المحمدية لا يحضر **النبي** إلا ويحضر معه **الوصي**، كالشخص لا يفارقه ظله. وهذا هو على كل حال مؤدى المعجزة التالية المروية على لسان جعفر الصادق: «قال: خرج جدي رسول اللّه (ص) قابضاً على يد أمير المؤمنين متوجهاً نحو حدائق ظهر المدينة، فكل من لقيه استأذنه في صحبته ولم يأذن له رسول اللّه (ص) حتى انتهى إلى أول نخلة فصاحت إلى التي تليها: هذا آدم وشيث قد أقبلا، وصاحت الأخرى إلى التي تليها: يا أختي هذا نوح وسام قد أقبلا، وصاحت الأخرى التي تليها: يا أختي هذا يعقوب

(٨١) ستعرف قصة إحياء أهل الكهف هذه في الأدبيات الشيعية المتأخرة إخراجاً أكثر تفصيلاً وأنطق دلالة لصالح رابع الخلفاء الراشدين على حساب الثلاثة الأوائل منهم. فقد أورد البحراني ـ وهو من أعلام القرن الحادي عشر الهجري ـ رواية أخرى على لسان جعفر الصادق أن رسول اللّه أمر الثلاثة أن يأتوا الكهف، وينادوا أهله ثلاثاً، فإن أجابوهم وإلا فلينادهم علي. فمضوا وفعلوا ما أمرهم به رسول اللّه، فلم يجيبوهم. فقام علي وفعل ذلك فأجابوه وقالوا: «لبيك لبيك» ثلاثاً. فقال لهم: ما لكم لم تجيبوا أصحابي؟ فقالوا: إنّا أُمرنا ألا نجيب إلا نبياً أو وصي نبي. «ثم انصرفوا إلى النبي (ص) فسألهم ما فعلوا فأخبروه، فأخرج رسول اللّه (ص) صحيفة حمراء وقال لهم: اكتبوا شهادتكم بخطوطكم بما رأيتم وسمعتم، فأنزل اللّه عز وجل: «ستكتب شهادتهم ويسئلون يوم القيامة» (السيد هاشم البحراني: **مدينة المعاجز**، ج ١، ص ١٨٢).

ويوسف قد أقبلا، وصاحت الأخرى إلى التي تليها: يا أختي هذا سليمان وآصف قد أقبلا، وصاحت الأخرى إلى التي تليها: يا أختي هذا عيسى وشمعون الصفا قد أقبلا، وصاحت الأخرى إلى التي تليها: يا أختي، هذا محمد رسول اللّه وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب قد أقبلا، وصاح سائر النخل في الحدائق بعضه إلى بعض بهذا» (ص ٨٧).

يبقى أخيراً أن نشير إلى أن مصنف **الهداية الكبرى** ينسب هو أيضاً إلى الرسول نبوءات تتصل بوراثة من يرثه من بعده. ولئن تكن الروايات السنية، كما أوردها ابن كثير في **البداية والنهاية**، قد نسبت إلى الرسول نبوءات تتوقع أن تؤول الخلافة من بعده إلى الثلاثي الراشدي الأول، أبي بكر وعمر وعثمان، ومن بعدهم إلى بني أمية، ومن بعد بعدهم إلى بني العباس، فإن النبوءات النبوية في **كتاب الهداية الكبرى** تحصر الخلافة، كما لنا أن نتوقع، بعلي بن أبي طالب وذريته من فاطمة من بعده انتهاء إلى الإمام الثاني عشر محمد المهدي. وتجد هذه النبوءات نموذجها الأكثر تمثيلية في هذه الرواية الموضوعة على لسان سلمان الفارسي: «قال: دخلت على رسول اللّه (ص) فنظر إلي وقال: يا سلمان، اللّه تبارك وتعالى لم يبعث نبياً ولا رسولاً إلا جعل له اثني عشر نقيباً، قال: قلت له يا رسول اللّه قد عرفت هذا من أهل الكتابين التوراة والإنجيل، قال: يا سلمان فهل علمت مَنْ نقبائي ومَنْ الاثنا عشر الذين اختارهم اللّه للأمة من بعدي؟[٨٢]، فقلت: اللّه ورسوله أعلم، فقال: يا سلمان، خلقني اللّه من صفوة نوره ودعاني فأطعته، وخلق من نوري علياً ودعاه فأطاعه، وخلق من نوري ومن نور علي فاطمة ودعاها فأطاعته،

---

(٨٢) لنلاحظ استمرارية قدسية العدد اثني عشر بين الديانات التوحيدية الثلاث: أسباط بني إسرائيل الاثنا عشر، وتلاميذ المسيح الاثنا عشر، ونقباء الرسول الاثنا عشر، وأئمة الشيعة الاثنا عشر. ولعله من منطلق هذه القدسية عينها جرى تقسيم أشهر السنة اصطلاحاً وتواضعاً إلى اثني عشر. وفي القرآن: ﴿إن عدة الشهور عند اللّه اثنا عشر شهراً﴾ (التوبة/ ٣٦).

وخلق مني ومن علي وفاطمة الحسن ودعاه فأطاعه، وخلق مني ومن علي وفاطمة الحسين ودعاه فأطاعه، ثم خلق منا ومن صلب الحسين تسعة أئمة ودعاهم فأطاعوه»[٨٣] (ص ٣٧٥ _ ٣٧٦).

(٨٣) وفي رواية أخرى أنه سمّى أسماء التسعة بأسمائهم وصولاً إلى الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر.

الفصل الثالث

المعجزات الإمامية

لا نستطيع أن نغلق ملف المعجزات النبوية بدون أن نفتح ـ ولو استلحاقاً ـ ملف المعجزات الإمامية. ذلك أن هذه متممة لتلك وتندرج وإياها في سياق واحد وتتمتع بنفس المصداقية، على الأقل في نظر المؤمنين بها، كما هو الحال أصلاً في **كل عقل ديني المحدودة حدوده بإيمان المنتمين إليه**. وفضلاً عن **الهداية الكبرى** للخصيبي سنعتمد في بيان المعجزات الإمامية بصورة أساسية على كتاب **نوادر المعجزات في مناقب الأئمة الهداة** المنسوب إلى محمد بن جرير الطبري، الموصوف **بالشيعي** تمييزاً له عن سميِّه محمد بن جرير الطبري السني، والذي يعدّ من «أعاظم علماء الإمامة في المائة الرابعة» وإن يكن هناك اختلاف حول عصره كما حول هويته[١].

يحرص مصنف **نوادر المعجزات** على بيان وجه الاستمرارية بين المعجزات النبوية والمعجزات الإمامية في مقدمة كتابه فيقول: «إن اللّه سبحانه وتعالى لما أبدع العالم وذرّ الناس وبسط لهم أرزاقهم أوجبت حكمته أن يدعوهم إلى معرفة خالقهم وعبادة رازقهم، فأرسل إليهم رسله، وبعث فيهم

(١) علاوة على هذا التمييز بين الطبري السني والطبري الشيعي ينبغي أن نميز بالإحالة إلى هذا الأخير بين طبريين شيعيين: أولهما هو مصنف **نوادر المعجزات** (المائة الرابعة)، وثانيهما مصنف **دلائل الإمامة** (المائة الخامسة) الذي سبق لنا الاستشهاد به. ومن هنا جرى التقليد لدى الإماميين على وصف الأول بـ «الطبري الشيعي الكبير» والثاني بـ «الطبري الشيعي الصغير».

حججه والداعين إليه والناطقين عنه... وجعلهم كاملين معصومين، قادرين عالمين بما كان وبما يكون ليقيموا للناس البراهين الساطعة والدلائل الواضحة وليظهروا القدرة الباهرة والمعجزة التامة التي تشهد بصدق قولهم... وشاهد ذلك قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿فللّه الحجة البالغة﴾ والحجة البالغة هي الرسل والأئمة عليهم السلام... وهذا يوجب أن حججه والداعين إليه والناطقين عنه معصومون، **قادرون على كل شيء، عالمون بما كان وبما يكون إلى آخر الزمان**(٢). وإذا ثبت ولزم أن نبينا (ص) وآله بهذه الصفة في العصمة والكمال والقدرة لزم أن يكون الأئمة الذين يقومون مقام نبينا (ص) يشاكلونه في العصمة والكمال والقدرة، وأن لا فرق بينه وبينهم إلا رتبة النبوة... وإذا لزم وثبت أن الأئمة الطاهرة من عترة نبينا (ص)... هم الحجج البالغة للّه في أرضه، ثبت لهم صحة المعجزات التامة والقدرات الباهرة»(٣).

معجزات الإمام علي

لئن يكن **تضخم الخيال** كبديل تعويضي عن انكماش الواقع هو أول ما يميز أدبيات المعجزات الإمامية كما تقدم البيان، فإن أول ما يلفت النظر في أول معجزة يرويها الطبري الشيعي عن أول الأئمة علي بن أبي طالب هو انفلات الخيال من عقاله إلى حد يستحضر إلى الذهن غرائبيات **ألف ليلة وليلة** وخوارق **الإلياذة والأوذيسة**.

يقول الراوية(٤):

---

(٢) التسويد منا للإشارة إلى أن الأنبياء والأئمة هم في نظر مؤلِّفنا، تماماً كما في نظر اللاهوت المسيحي عن طبيعة عيسى، **مشاركون للّه في الجوهر**، وذلك ما دام القرآن قد حصر باللّه وحده القدرة على كل شيء والعلم بما كان وبما يكون. ولسوف تطالعنا لاحقاً نماذج أخرى من هذه المشاركة للّه في الجوهر.

(٣) محمد بن جرير الطبري الشيعي: **نوادر المعجزات في مناقب الائمة الهداة**، منشورات مؤسسة الإمام المهدي، قم ١٤١٠ هـ، نقلاً عن مكتبة يعسوب الالكترونية، ص ٩-١١.

(٤) هو هنا سلمان الفارسي، وهو يؤدي في الأدبيات المؤسطرة الشيعية نفس الدور الذي يؤديه =

«كنا مع أمير المؤمنين عليه السلام ونحن نذكر شيئاً من معجزات الأنبياء، فقلت له: يا سيدي أحب أن تريني ناقة ثمود وشيئاً من معجزاتك. قال: أفعلُ. ثم وثب فدخل منزله وخرج إليّ وتحته فرس أدهم، وعليه قباء أبيض وقلنسوة بيضاء، ونادى: يا قنبر [= أشهر مواليه] أخرجْ إليّ ذلك الفرس، فأخرجَ فرساً آخر أدهم. فقال لي: اركب يا أبا عبد اللّه. قال سلمان: فركبته، فإذا له جناحان ملتصقان إلى جنبه، فصاح به الإمام عليه السلام فحلق في الهواء، وكنت أسمع حفيف أجنحة الملائكة وتسبيحها تحت العرش، ثم حضرنا على ساحل بحر عجاج مغطمط [= مضطرب] الأمواج، فنظر إليه الإمام شزراً فسكن البحر. فقلت له: يا سيدي سكن البحر من غليانه من نظرك إليه! فقال: يا سلمان، خشي أن آمر فيه بأمر. ثم قبض على يدي وسار على وجه الماء، والفَرَسان يتبعاننا لا يقودهما أحد، فواللّه ما ابتلّت أقدامنا ولا حوافر الخيل، فعبرنا ذلك البحر، ودفعنا إلى جزيرة كثيرة الأشجار والأثمار والأخيار والأزهار، وإذا شجرة عظيمة بلا ثمر ولا ورد وزهر، فهزها بقضيب كان بيده، فانشقت وخرجت منها ناقة طولها ثمانون ذراعاً وعرضها أربعون ذراعاً، وخلفها قلوص [= ناقة فتية]. فقال لي: ادن منها واشرب من لبنها. قال سلمان: فدنوت منها وشربت حتى رويت، وكان لبنها أعذب من الشهد وألين من الزبد، وقد اكتفيت. قال صلوات اللّه عليه: هذا حسن؟ قلت: حسن يا سيدي! قال: تريد أن أريك أحسن منها؟ فقلت: نعم يا سيدي. قال: يا سلمان نادِ: اخرجي يا حسنا، فناديت، فخرجت ناقة طولها مائة وعشرون ذراعاً وعرضها ستون ذراعاً ورأسها من الياقوت الأحمر، وصدرها من العنبر الأشهب، وقوائمها من الزبرجد الأخضر، وزمامها من الياقوت الأصفر، وجنبها الأيمن من الذهب، وجنبها الأيسر من الفضة، وضرعها من اللؤلؤ الرطب. فقال لي: يا سلمان اشرب من لبنها. قال

= أبو مسلم الخولاني في الأدبيات المؤسطرة السنية، وربما أيضاً نفس الدور الذي يؤديه الخضر في الأدبيات المؤسطرة المسيحية.

سلمان: فالتقمت الضرع فإذا هي تحلب عسلاً صافياً محضاً. فقلت: يا سيدي هذه لمن؟ قال: هذه لك ولسائر الشيعة من أوليائي» (ص ١٥ ـ ١٦).

أما ثانية المعجزات التي يوردها الطبري الشيعي لرابع أمراء المؤمنين فيقترن فيها الطابع العجائبي المؤسطر بطابع سياسي مباشر يتصل بالصراع على الخلافة. فعن جعفر الصادق عن أبيه مرفوعاً إلى أمير المؤمنين عليه السلام أن جبرائيل نزل على النبي (ص) بجام [= إناء من الفضة] فيه فاكهة الجنة فرفعه إلى النبي (ص) فسبّح الجام وكبّر وهلّل في يده، ثم دفعه إلى أبي بكر فسكت الجام، ثم دفعه إلى عمر فسكت الجام، ثم دفعه إلى أمير المؤمنين، فسبح الجام وكبر وهلل في يده، ثم قال الجام: «إني أمرت ألا أتكلم إلا في يد نبي أو وصي نبي»[(٥)] (ص ٢٠ ـ ٢١). وفي الواقع، منذ ذلك الحين بات الإمام علي يعرف في الأدبيات الشيعية باسم «كليم الجام».

وفي الواقع أيضاً، إن الطابع السياسي، سواء ما اتصل بالمنافسة مع أبي بكر وعمر وعثمان أو بالصراع مع معاوية، يغلب على عدد من نحو الأربعين معجزة المنسوبة إلى علي. ولن نتوقف هنا عند المعجزات التي تشهد فيها الجمادات والعجماوات له وحده بإمارة المؤمنين ـ ومنها شهادة الشمس وشهادة الجمجمة وشهادة النخلة وشهادة الحوت. بل سنكتفي بإيراد المعجزة التي هي بلا ريب أبهرها وأجرأها معاً في اقتحام حرمة التابو الإسلامي، إذ سيتم فيها إحياء الرسول نفسه للشهادة لابن عمه وختنه بتلك الإمارة. فقد روى الخصيبي في **الهداية الكبرى** أن «أبا بكر لقي [علياً] في سكة بني النجار في المدينة، وكان قد استخلف الناسُ أبا بكر، فسلم أبو بكر عليه وصافحه وقال له: يا أبا الحسن عسى في نفسك شيء من استخلاف الناس إياي وما

---

(٥) وفي إضافة في **الهداية الكبرى** أن عمر لمّا تملكته الغيرة وطلب من الرسول أن تكون له حصة في الجام أجابه قائلاً: «ما أجرأك على اللّه، يا عمر! أما سمعت الجام حتى تسألني أن أعطيك ما ليس لك؟» (ص ١٦٥).

كان في السقيفة وإكراهك على البيعة. . . والله يا عليّ لو شهد عندي مَن أثق به أنك أحق بهذا الأمر مني لسلمته إليك، رضي من رضي، وسخط من سخط، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: بالله يا أبا بكر هل أنت بأحد أوثق منك برسول الله؟ قال أبو بكر: لا والله، قال له: يا أبا بكر، إن رأيت رسول الله حياً ويقول لك: إنك ظالم في أخذ حقي الذي جعله الله لي ولرسوله دونك ودون المسلمين، إنك تسلم هذا الأمر إليّ وتخلع نفسك منه؟ قال أبو بكر: هذا ما لا يكون إلا أن أرى رسول الله بعد موته حياً يقول لي ويأمرني بذلك. قال له أمير المؤمنين: الله ورسوله عليك من الشاهدين أنك تفي بما قلت، قال أبو بكر: نعم، فضرب أمير المؤمنين على يده ومال يسعى به إلى مسجد قباء، فلما ورداه تقدم أمير المؤمنين فدخل المسجد وأبو بكر من ورائه، فإذا هما برسول الله جالس في قبلة المسجد، فلما رآه أبو بكر سقط لوجهه كالمغشى عليه فبادره رسول الله: أيها الضليل المفتون ارفع رأسك، فرفعه وقال: لبيك يا رسول الله، أحياة بعد الموت؟ قال: نعم، ويحك يا أبا بكر أنسيت ما عاهدت الله ورسوله عليك لعليّ، فما بالك تناشد علياً فيها؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله هل من توبة؟ وهل يعفو الله عني إذا سلّمت هذا الأمر إلى أمير المؤمنين؟ فقال: نعم يا أبا بكر، وأنا الضامن لك على الله ذلك إن وفيت، قال: وغاب رسول الله، فثبت أبو بكر إلى أمير المؤمنين وقال: الله الله سر معي حتى أعلو المنبر فأقص على الناس ما شاهدت وما رأيت من أمر رسول الله، وما قال لي وما قلت له، وأخلع نفسي من هذا الأمر وأسلمه إليك، قال أمير المؤمنين: أنا معك يا أبا بكر إن تركك شيطانك»[٦] (ص ١٠٢ ـ ١٠٥).

---

(٦) والقصة تطول، ولكن في نهايتها يمتنع أبو بكر عن خلع نفسه لأن «شيطانه»، كما حدس عليّ، لم يتركه. وبديهي أن هذا الشيطان ليس أحداً آخر سوى عمر بن الخطاب الذي كثيراً ما يصور لنا في المرويات الشيعية عن «مؤامرة» السقيفة على أنه هو اللاعب، بينما الملعوب به أبو بكر.

وإذا استثنينا المعجزات ذات الغائية السياسية التي يراد من ورائها الشهادة للإمام علي بالحق في الإمارة وبالأفضلية في الخلافة، فإن باقي المعجزات تبدو مجانية لا غرض لها سوى إثارة دهشة القارئ وانتزاع تصديقه بإمكانية الخرق الفظ لمبدأ المعقولية وقانون الواقع، تماماً كما الشأن في ألعاب الخفة والسحر وحكايات العجائب والغرائب التي تكمن مصداقيتها لا في ذاتها، بل **في الرهان على الحاجة القهرية للعقل البشري إلى الإلغاء المؤقت لنفسه بين الحين والآخر، فضلاً عن دغدغتها للنرجسية البشرية التي يطيب لها تخيل أبطال بشر محبوّين بقدرات إلهية خارقة**.

في هذا السياق الغرائبي المحض تندرج معجزات الامّساخات، سواء منها ما تعلق بامساخ البشر أو الجماد. فمما يرويه مصنف **الهداية الكبرى** أنه «اختصم إليه عليه السلام رجلان فعجل أحدهما بالكلام وزاد فيه، فالتفت إليه أمير المؤمنين وقال له: اخسأ يا كلب، فإذا رأسه رأس كلب، فبهت مَنْ حوله، وأقبل الرجل بإصبعه المسبِّحة يتضرع إلى أمير المؤمنين ويسأله الإقالة، فنظر إليه **وحرك شفتيه**، فعاد خلقاً سوياً»[(٧)] (ص ١٢٥).

وبدوره يروي مصنف **نوادر المعجزات** أن أمير المؤمنين أُتي برجل غصب زوجة رجل آخر، فأمر عمار بن ياسر أن يجرده من ثيابه، «ثم قرعه بالقضيب

---

(٧) هذه المعجزة الامّساخية الغرائبية سيعاد إخراجها في الأدبيات المتأخرة بحيث تكتسب دلالة سياسية مباشرة. وهكذا تروى، أو تعاد روايتها بالأحرى، بالصيغة التالية: «كان عليه السلام جالساً في المسجد، إذ دخل عليه رجلان فاختصما إليه، وكان أحدهما من الخوارج، فتوجه الحكم على الخارجي، فحكم عليه أمير المؤمنين، فقال له الخارجي: «واللّه ما حكمت بالسوية، ولا عدلت في القضية، وما قضيتك عند اللّه بمرضية، فقال له أمير المؤمنين: اخسأ عدو اللّه، فاستحال كلباً أسود. فقال من حضر: فواللّه لقد رأينا ثيابه تتطاير عنه في الهواء، وجعل يبصبص لأمير المؤمنين، ودمعت عيناه في وجهه، ورأينا أمير المؤمنين وقد رقّ له، فلحظ السماء **وحرّك شفتيه بكلام لم نسمعه**، فواللّه لقد رأيناه وقد عاد إلى حال الإنسانية» (الطبري الصغير: **مدينة المعاجز**، ج ١، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩).

على كبده وقال: اخسأ لعنك اللّه. قال عمار: فرأيته ـ واللّه ـ قد مسخه اللّه سلحفاة» (ص ٤٩).

بل إن الطبري الشيعي يذهب إلى أبعد من ذلك عندما يروي على لسان عمر بن الخطاب بالذات أنه شاهد بأم عينه «كثيراً من عجائب علي»، ومنها: «استقبلني [أمير المؤمنين] يوماً، وأخذ بيدي ومضى بي إلى الجبانة، فكنا نتحدث بالطريق، وكان بيده قوس، فلما خلصنا إلى الجبانة، رمى بقوسه من يده، فصار ثعباناً عظيماً مثل ثعبان عصا موسى، ففغر فاه وأقبل نحوي ليبلعني، فلما رأيت ذلك طارت روحي من الخوف وتنحيت، وقلت: الأمان، اذكر ما كان بيني وبينك من الجميل، فلما سمع هذا القول مني ضرب بيده إلى الثعبان وأخذه، فإذا هو قوسه التي كانت في يده»(٨) (ص ٥٢).

ويروي الطبري الكبير أيضاً: «اعتل صعصعة بن صوحان العبدي، فعاده مولانا أمير المؤمنين في جماعة من أصحابه، فلما استقر بهم المجلس فرح صعصعة، فقال أمير المؤمنين: لا تفتخرن على إخوانك بعيادتي إياك، ثم نظر إلى فهر [= حجر رقيق تسحق به الأدوية] في وسط داره، فقال لأحد أصحابه: ناولنيه، فأخذه منه وأداره في كفه، فإذا به سفرجلة رطبة، فدفعها إلى أحد أصحابه وقال: قطِّعها قطعاً وادفع إلى كل واحد منا قطعة، ففعل ذلك، فأدار مولانا عليه السلام القطعة من السفرجلة في كفه، فإذا بها تفاحة، فرفعها إلى ذاك الرجل وقال له: اقطعها وادفع إلى كل واحد قطعة، ففعل

---

(٨) قصة امساخ الجماد هذه ستعاد هي الأخرى صياغتها في الأدبيات اللاحقة لكي تعطي دلالة أبلغ وأشد قطعاً بعد. فامساخ القوس في يد علي إلى ثعبان لم يحدث عبثاً وجزافاً كما في رواية الطبري، بل عن قصد وعمد لأن الإمام بلغه أن عمر يتقوّل على شيعته، فنهاه فلم ينته، فقال له عندئذ: «إنها لك هنا، ثم رمى بالقوس على الأرض، فإذا هي ثعبان كالبعير فاغر فاه، وقد أقبل نحو عمر ليبتلعه، فصاح عمر: اللّه اللّه يا أبا الحسن، لا عدت بعدها في شيء، وجعل يتضرع إليه، فضرب على يده إلى الثعبان فعادت القوس كما كانت، فمضى عمر إلى بيته مرعوباً... ثم قال عليه السلام: إن رعب الثعبان في قلبه إلى أن يموت به» (**مدينة المعاجز**، م٣، ص ٢٠٩ ـ ٢١١).

ذلك فأدار مولانا (ص) قطعة التفاحة في كفه، فإذا هي حجر فهر، فرمى به إلى وسط الدار. فأكل صعصعة قطعتين واستوى جالساً وقال: شفيتني وزدت في إيماني وإيمان أصحابك، صلوات اللّه عليك يا أمير المؤمنين»[٩] (ص ٥٧).

وفي هذا السياق الغرائبي أيضاً تندرج معجزات إنطاق الحيوانات العجماوات. فعن عمار بن ياسر: «قال: كنت بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام إذا بصوت قد أخذ جامع الكوفة، فقال: يا عمار إئتِ بذي الفقار [= سيف الإمام علي]، فجئته بذي الفقار، فقال: اخرج يا عمار وامنع الرجل عن ظلامة المرأة، فإن تركها وإلا منعته بذي الفقار. قال عمار: فخرجت فإذا أنا برجل وامرأة قد تعلقا بزمام جمل، والمرأة تقول: الجمل لي، والرجل يقول: الجمل لي. فقلت: إن أمير المؤمنين ينهاك عن ظلم هذه المرأة، فقال: يشتغل علي بشغله ويغسل يده من دماء المسلمين الذين قتلهم بالبصرة، أيريد أن يأخذ جملي ويرفعه إلى هذه المرأة الكاذبة؟ قال عمار: فرجعت لأخبر مولاي، فإذا به قد خرج ولاح الغضب في وجهه فقال: ويلك خلِّ جمل هذه المرأة! فقال: هو لي، فقال أمير المؤمنين: كذبت يا لعين، قال: فمن يشهد للمرأة يا علي؟ إذا شهد شاهد وكان صادقاً سلمته إلى المرأة. فقال علي عليه

(٩) في سياق معجزات الامساخ هذه يورد الطبري الشيعي الكبير قصة امساخ آخر حدث حتى بدون تدخل مباشر للإمام علي، ولكن «بمناسبته» على حد التعبير الذي كان يحبذه المتكلمون الأشاعرة. والقصة مروية على لسان الأعمش: «قال: نظرت ذات يوم وأنا في المسجد الحرام إلى رجل كان يصلي فأطال، وجلس يدعو: يا رب إن ذنبي عظيم وأنت أعظم منه، فلا يغفر الذنب العظيم إلا أنت يا عظيم! ثم انكب على الأرض يستغفر ويبكي، وأنا أسمع وأريد أن يرفع رأسه فأقائله وأسأله عن ذنبه العظيم. فلما رفع رأسه نظرت في وجهه، فإذا وجهه وجه كلب، ووبره وبر كلب، وبدنه بدن إنسان. فقلت: يا عبد اللّه، ما ذنبك الذي استوجبت أن يغيّر به اللّه خلقك؟ قال: إن ذنبي عظيم، كنت رجلاً ناصبياً أبغض أمير المؤمنين وأظهر عداوته، فاجتاز بي ذات يوم رجل وأنا أذكر أمير المؤمنين بغير الواجب، قال: ما لك! إن كنت كاذباً فلا أخرجك اللّه من الدنيا حتى يشوه خلقك فيكون شهرة في الدنيا قبل الآخرة، فبتُّ معافاً، فأصبحت فإذا وجهي وجه كلب، فندمت على ما كان مني، فتبت إلى اللّه مما كنت عليه، وأسأل اللّه الإقالة والمغفرة» (ص ٥٦).

السلام: أيها الجمل، لمن أنت؟ فقال: بلسان فصيح: يا أمير المؤمنين ويا سيد الوصيين، أنا لهذه المرأة منذ بضع عشرة سنة. فقال عليه السلام: خذي جملك، وعارض الرجل بضربة فقسمه نصفين»[١٠] (ص ٣٧).

وفي هذا السياق الغرائبي أخيراً تندرج معجزات تطويع قوى الطبيعة واختراق مقولات المكان والزمان، وهي معجزات تتكرر حكاياتها في الكثير من القصص التي رويت عن إسراء الإمام إلى سدرة المنتهى، ولكنها تجد نموذجها الألف ليليّ وليليّ في القصة التالية المروية على لسان ميثم التمار عن امتطاء السحابة وجوب الآفاق بها كما لو أنها بساط ريح: ففي جامع الكوفة، وعلى مرأى ومسمع من آلاف المصلين، وعلى سبيل التحدي الإعجازي لخصمه السياسي معاوية، ارتقى الإمام علي المنبر «ثم حمد اللّه وأثنى عليه وصلى على النبي وآله، وأشار بيده اليمنى إلى الجو فدمدم، فأقبلت غمامة وعلت سحابة، وسمعنا منها قائلاً يقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين ويا سيد الوصيين، ويا إمام المتقين ويا غياث المستغيثين، ويا كنز الطالبين ومعدن الراغبين، فأشار إلى السحابة فدنت، فرفع رجله وركب السحابة وقال لعمار: اركب معي وقل: بسم اللّه مجريها ومرسيها، فركب عمار، وغابا عن أعيننا، فلما كان بعد ساعة أقبلت السحابة حتى أظلت جامع الكوفة، فالتفتُّ فإذا مولاي عليه السلام جالس على دكة القضاء، وعمار بن يديه، والناس حافّون به، ثم قام وصعد المنبر وأخذ بالخطبة المعروفة بـ «الشقشقية»، فلما فرغ منها

(١٠) رويت قصة استنطاق الجمل هذه في كتب شيعية أخرى عن المعجزات الإمامية، ومنها **عيون المعجزات** لحسين بن عبد الوهاب **ومدينة المعاجز** للبحراني. ولنلاحظ أنه في ثنايا هذه المعجزة تكمن معجزة أخرى، وهي علم الإمام علي بالغيب ومعرفته المسبقة ليس فقط بظلم الرجل للمرأة، بل كذلك بقصة هذا الظلم حتى قبل أن يترافعا إليه. ولكن لنلاحظ أيضاً أن مصنف الكتاب يسكت سكوتاً تاماً عن الظلم الذي حاق بالرجل: فبدلاً من أن يقام عليه الحد الذي يستحقه، وهو حد السرقة، قُتل وشُقَّ نصفين. وهكذا يكون أمر المعجزة المنطوق به قد غلب أمر العدالة المسكوت عنه.

اضطرب الناس وقالوا فيه أقاويل مختلفة، فمنهم من زاده اللّه إيماناً ويقيناً، ومنهم من ازداد كفراً وطغياناً. قال عمار: قد طارت بنا السحابة في الجو، فما كان إلا هنيهة حتى أشرفنا على بلد كبير حواليه أشجار وأنهار، فنزلت بنا السحابة، وإذا نحن في مدينة كبيرة، كثيرة الناس يتكلمون بكلام غير العربية، فاجتمعوا عليه ولاذوا به، فوعظهم وأنذرهم بمثل كلامهم، ثم قال: يا عمار اركب، ففعلت ما أمرني به، فأدركنا جامع الكوفة، ثم قال لي: يا عمار تعرف البلدة التي كنت فيها؟ قلت: اللّه أعلم ورسوله ووليه، قال: كنا في الجزيرة السابعة من الصين»[١١] (ص ٤٦).

وما دامت المعجزة الأخيرة قد أحالتنا من جديد إلى التحديات السياسية التي كان على الإمام علي أن يواجهها فلنطرح هذا السؤال: لئن يكن الإمام قد أوتي القدرة على إتيان مثل تلك المعجزات والخوارق الباهرة، فلمَ لم يوظف هذه القدرة في صراعه مع خصمه الأكبر معاوية؟ الواقع أننا لسنا بحاجة إلى طرح هذا السؤال لأنه قد سبقنا إلى طرحه أنصاره وأهل شيعته بالذات، وهذا في أكثر من مرة. فعندما امتطى السحابة بصحبة عمار ثم عاد عليها بعد غياب ساعة على مرأى ومسمع من الآلاف بادر الناس يسألونه: «قد أعطاك اللّه هذه القدرة الباهرة وأنت تستنهض الناس على قتال معاوية؟» (ص ٤٧). كذلك عندما اختصم إليه الرجلان وهو «متجهز إلى معاوية ويحرِّض الناس على قتاله»، فنهر المتطاول منهما: «اخسأ يا كلب» فـ «إذا رأسه رأس كلب»، فبهت أصحابه ووثبوا يسألونه: «يا أمير المؤمنين، هذه القدرة لك أريتنا إياها وأنت تجهزنا إلى قتال معاوية، فما لك لا تكفينا ببعض ما أعطاك اللّه من هذه القدرة؟». (**الهداية الكبرى**، ص ١٢٥).

---

(١١) لنلاحظ أن المعجزة بحد ذاتها بقيت غير ذات مفعول ولم تقنع أحداً ممن لم يكن مقتنعاً. وهذه اللافاعلية تنهض دليلاً من داخل القصة ذاتها على أن المعجزة المتخيلة أضيفت في زمن متأخر على الخطبة الواقعية التي هي الخطبة الشقشقية التي شكا فيها عليّ من أمر الخلافة وأعلن عن تبرّمه بها وصبره عنها لولا مبايعة أكثر الناس له في النهاية.

وبديهي أنه، من منظور الواقع التاريخي، لا المعجزة حدثت، ولا السؤال طرح. ولنا أن نقطع بأن مصنفي المعجزات هم الذين تعمدوا طرحه وإخراجه ذلك الإخراج. فعلى هذا النحو أكسبوا ما اختلقوه من معجزات ظاهراً من مصداقية. فلو لم يطرحوا السؤال لطرحه ضمنياً كل قارئ لتصانيفهم. ومن هنا فقد صاغوه لا على سبيل الاستباق فحسب، بل كذلك ليعطوه الجواب الأكثر استساغة من الجهة المنطقية. وبالفعل، وفي كل مرة كان يُسأل فيها الإمام لماذا لا يوظف بعض القدرة التي أوتيها إلهياً ليسدد ضربة قاضية إلى معاوية، كان يجيب: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو شئت لضربت برجلي هذه القصيرة في طول هذه الفيافي والفلوات والجبال والأودية حتى أضرب صدر معاوية على سريره فأقلبه على أم رأسه لفعلت، ولو أقسمت على اللّه عزّ وجلّ أن آتي به قبل أن أقوم من مجلسي هذا ومن قبل أن يرتد إلى أحدكم طرفه لفعلت» (هـ. ك، ص ١٢٥).

لكن «لو» هذه تبقى هنا مجرد حرف امتناع لامتناع، لأن في تفعيلها ـ رغم أنه في القدرة ـ استباقاً لحكم اللّه واستعجالاً لقضائه وقدره. ومن هنا كان الإمام يعلل في كل مرة موقفه الامتناعي بالرجوع إلى الآية ٤٢ من سورة الأنفال: ﴿ولكن ليقضي اللّه أمراً كان مفعولاً﴾ (هـ. ك، ص ١٢٦)، أو إلى الآية ٢٧ من سورة الأنبياء: «لو شئتُ. . . لفعلتُ، ولكننا كما وصف اللّه عز من قائل: ﴿عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ (هـ. ك، ص ١٢٥).

ولكن هنا ينهض سؤال ختامي: فالاحتكام إلى نص القرآن يمثل بلا ريب سقفاً أعلى للعقلانية في الإسلام، ولكن هذا المخرج هو ما يسده مصنفو كتب المعجزات عندما ينسبون في مواضع أخرى إلى علي بن أبي طالب ليس فقط معجزات، بل كذلك أقوالاً تدخل في تناقض صريح مع نص القرآن. ومن هذا القبيل ما ينسبه مصنف **نوادر المعجزات** إلى الإمام من علم بما في الأرحام. فقد جيء إليه بفتاة بكر ولكنها حامل ليحكم في أمرها ويقيم عليها حد الزنا إن

ثبت جرمها. ولكنه أدرك للحال أن ما في رحمها علقة متضخمة وليس جنيناً، فأبرأ ساحتها، فقال له أبوها الذي كان همّ بقتلها لأنها فضحته في عشيرته: «أشهد أنك تعلم ما في الأرحام وما في الضمائر» (ص ٣٠). وكذلك ما جاء في قصة الرجل الذي لعنه الإمام فمسخه اللّه سلحفاة. وتفصيل القصة كما يرويها عمار بن ياسر: «قال: مكثت بين يدي مولاي إذ دخل عليه رجل وقال: يا أمير المؤمنين، إليك المفزع والمشتكى. فقال عليه السلام: ما قصتك؟؟ فقال: ابن علي بن دوالب الصيرفي غصبني زوجتي وفرّق بيني وبين حليلتي، وأنا من حزبك وشيعتك. فقال: ائتني بالفاسق الفاجر، فخرجت إليه وهو في سوق يعرف بسوق بني الحاضر فقلت: أجب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام. فنهض وهو يقول: إذا نزل التقدير بطل التدبير. فجاء معي حتى أوقفته بين يدي مولاي عليه السلام ورأيت بيده قضيباً من العوسج. فلما وقف الصيرفي بين يديه قال: يا من يعلم مكنون الأشياء وما في الضمائر والأرحام، ها أنذا واقف بين يديك وقوف المستسلم الذليل. فقال: يا لعين ابن اللعين والزنيم ابن الزنيم، أما تعلم أني أعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؟ وأني حجة اللّه في أرضه وبين عباده، تفتك بحريم المؤمنين؟ يا عمار جرده من ثيابه، ففعلت ما أمرني به. فقام إليه فقرعه بالقضيب على كبده وقال: اخسأ لعنك اللّه. قال عمار: فرأيته ـ واللّه ـ وقد مسخه اللّه سلحفاة» (ص ٤٩).

ولئن تكن قصة المعجزة الأولى قد كسرت الاحتكار الإلهي لعلم الأرحام كما نصت عليه الآية ٣٤ من سورة لقمان: ﴿إن اللّه عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾، فإن قصّة المعجزة الثانية تقوّل الإمام علياً عن نفسه، وبالحرف الواحد، ما يقوله القرآن عن اللّه: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾. والاستنتاج يفرض هنا نفسه: فلو تقيدنا بمعجم علم الكلام الإسلامي الذي يعتبر علم الأرحام وعلم الصدور والضمائر من صفات اللّه حصراً، وهذا بموجب نصّ القرآن بالذات، فلنا أن نعدّل ما كنا قلناه آنفاً ـ ونحن نستوحي معجم اللاهوت المسيحي ـ عن المشاركة الإمامية للّه في

الجوهر لنقول إن الإمام علياً، كما تصوره أدبيات المعجزات على الأقل، هو مشارك للّه في **الصفة**.

معجزات الأئمة الأحد عشر

إذا استثنينا أدبيات الكرامات الصوفية، التي تنتمي إلى مضمار قائم بذاته من مضامين الحساسية الدينية للقرون الوسطى، الإسلامية كما المسيحية، فإن أدبيات المعجزات السنية تتوقف كما رأينا عند المعجزات النبوية دون أن تجاوزها ـ إلا في مرويات نادرة للغاية ـ إلى معجزات منسوبة إلى صحابة النبي، وفي مقدمتهم الخلفاء الثلاثة الأوائل المكتفى تعميدهم بأنهم «راشدون» أو منسوبة أيضاً إلى أئمة المذاهب الكبرى من أمثال الشافعي وابن حنبل[١٢]. وبالمقابل، إن أدبيات المعجزات الشيعية لا تتوقف عند المعجزات المنسوبة إلى الرسول كمؤسّس أول للإسلام، ولا حتى عند علي بن أبي طالب كمؤسس ثانٍ، بل تمتد على مدى ثلاثة قرون لتعمم المعجزات على الأئمة الأحد عشر المتحدّرين ـ على ما تفترضه شجرة الأنساب الإمامية ـ من صلب فاطمة، بنت الرسول وزوجة ابن عمه علي بن أبي طالب. والواقع أن كتاب محمد بن جرير الطبري «الشيعي» يحمل في عنوانه بالذات ما يشير إلى شمولية «نوادره» لمعجزات سلسلة الأئمّة الاثني عشر: **نوادر المعجزات في مناقب الأئمة الهداة**، فضلاً عن بعض المعجزات المنسوبة إلى فاطمة نفسها أو حتى إلى سلمان الفارسي. ولقد رأيناه يؤكد بالفعل أن «الأئمة يقومون مقام النبي» وأنهم هم من بعده «الحجج البالغة للّه سبحانه في أرضه». وبما أنهم «يشاكلونه في العصمة والكمال والقدرة» فقد «ثبت لهم صحة المعجزات التامة والقدرات الباهرة والبراهين الواضحة التي كانوا يحتجون بها على عباد اللّه» (ص ١١).

---

(١٢) من المعجزات التي نُسبت إلى الإمام مالك أن أمه حملت به ثلاث سنوات، وإلى الشافعي أن أمه لما حملت به رأت المشتري يخرج من فرجها.

والواقع أن مركزية فكرة **الإمامة** في الإسلام الشيعي كانت كافية بحد ذاتها لتمديد لائحة صانعي المعجزات لتشمل الأئمة الاثني عشر. **ولكن بالإضافة إلى هذا الجانب اللاهوتي، فإن هناك جانباً تاريخياً.** فالإسلام الشيعي تكوّن وتبلور كديانة مضطَهدة. وقد تمثل هذا الاضطهاد في مقتلة دائمة ـ عن طريق التسميم في الغالب ـ للأئمة خصوصاً، وللطالبيين عموماً[١٣]. وفي مواجهة هذا الواقع الاضطهادي والرزوح ـ جيلاً بعد جيل ـ تحت وطأة الشعور باختلال دائم وغير قابل للتعديل في ميزان القوى، ما كان لمنطق آخر أن يصمد غير منطق المعجزة. **فالمعجزة هي سلاح من لا سلاح له.**

ولئن لم يطور الإسلام السني ـ إلا فيما ندر ـ معجزات إضافية على المعجزات النبوية **فلأنه لم يكن بحاجة إلى إنجاز قفزة سحرية فوق الواقع الذي كانه واقعه**، وهذا على العكس من الإسلام الشيعي الذي ما كان له أن يستمر **لولا رهانه على المعجزة التي من شأنها أن تقلب ميزان القوى وأن تخترق الجدار الفولاذي لواقع غير قابل للاختراق**. وبمعنى من المعاني، وبقدر ما أن المعجزة هي خرق لقوانين العقل والواقع، وبقدر ما أن العقلانية هي ـ في مظهر رئيسي من مظاهرها ـ قدرة على التكيف مع الواقع، فقد كان في مستطاع الإسلام السني، المتوافق مع واقعه كأكثرية غالبة، أن يجيز لنفسه، حتى وهو يمارس منطق المعجزة، التقيد بدرجة من العقلانية لا يستطيع أن يقيِّد بها نفسه الإسلام الشيعي غير المتوافق مع واقعه كأقلية مغلوبة. ومن هنا كانت قصص المعجزات الإمامية الشيعية أكثر إيغالاً في الغرائبية وفي النزعة السحرية من قصص المعجزات النبوية السنية[١٤].

---

(١٣) أحصى منهم أبو الفرج الأصفهاني المئات في كتابه **مقاتل الطالبيين**.

(١٤) كان أحمد أمين قد لاحظ من موقع انتقادي، في **ضحى الإسلام**، علو سقف اللاعقلانية في الإسلام الشيعي، وحكَمَ أن « **عقيدة الشيعة** تشل العقل وتميت الفكر» (ج ٣، ص ٢٢١). لكنه إذ رصد الظاهرة لم يتخطّها إلى التعليل. ومع أنه حبّر صفحات طوالاً في بيان الاضطهاد المزمن الذي تعرض له الشيعة، فإنه لم يربط **سببياً** بين هذا الاضطهاد وبين علو =

أضف إلى ذلك أن الحاجة إلى التوظيف السياسي لمنطق المعجزة كانت أشد إلحاحاً بكثير في الإسلام الشيعي منها في الإسلام السني. ففي حالة هذا الأخير، المستأثر بزمام السلطة الخلافية، لم يكن مطلوباً أكثر من تبرير **ماضي الخلافة** بثلاثيّه الراشدي الأول كما تقرر ابتداء من **اجتماع** السقيفة. أما بالنسبة إلى الإسلام الشيعي فكان موضوع الرهان ليس فقط ماضي الخلافة كما حددته **مؤامرة** السقيفة التي تأدت إلى إقصاء علي، بل كذلك حاضر الخلافة ومستقبلها. ثم إن الصراع على الخلافة في الإسلام السني كان محض **صراع سياسي** مرتكزه العصبية القبلية. أما في الإسلام الشيعي فكان، فوق ذلك وقبل ذلك، **صراعاً لاهوتياً** أيضاً، إذ إن الإمامة ليست من أركان الدين الخمسة في الإسلام السني بينما هي ركنه الأول في الإسلام الشيعي(١٥).

نموذج هذا التوظيف السياسي المباشر لمنطق المعجزة نجده في ما يعرف في أدبيات المعجزات الشيعية بـ «معجزة الخيط»، وهي معجزة متسلسلة الحلقات وتبقى قصتها طويلة حتى لو أوردناها باختصار. قال راويها جابر الجعفي:

«لما أفضت الخلافة إلى بني أمية سفكوا في أيامهم الدم الحرام ولعنوا أمير المؤمنين عليه السلام على منابرهم ألف شهر، واغتالوا شيعته في البلدان،

= ذلك السقف. وعلى أي حال، وباستعارة تعبير أحمد أمين، فإن الحكم بشل العقل وإماتة الفكر يصدق على أدبيات المعجزات كلها، السنية منها والشيعية على السواء، وإن بدت الأخيرة أكثر غلواً.

(١٥) الحقيقة أن التوظيف السياسي ـ اللاهوتي لمنطق المعجزة سيعرف ساعة مجد له في الإسلام السني أيضاً، وذلك في حالة تاريخية محددة واحدة، هي تلك التي مثلها المشروع الانقلابي للإمام **المعصوم** ابن تومرت للاستيلاء على السلطة. فعلاوة على مسعاه، في تنظيمه لأنصاره، إلى محاكاة عمل الرسول في المدينة، فقد داور أيضاً سلاح المعجزات ـ أي في الحقيقة الشعوذات ـ التي نسبها إلى نفسه لتعبئة محازبيه، ممارساً عليهم سلطة شبه تنويمية. ولكن لا ننسَ على كل حال أن التومرتية هي، في التحليل الأخير، طبعة شيعية داخل الإسلام السني المغربي.

وقتلوهم واستأصلوا شأفتهم، ومالأهم على ذلك علماء السوء رغبة في حطام الدنيا، وصارت محنتهم على الشيعة لعن أمير المؤمنين عليه السلام، فمن لم يلعنه قتلوه، فلما فشا ذلك في الشيعة وكثر وطال اشتكت الشيعة إلى زين العابدين(١٦) عليه السلام، وقالوا: يا ابن رسول اللّه (ص) أجلونا عن البلدان وأفنونا بالقتل الذريع، وقد أعلنوا لعن أمير المؤمنين عليه السلام في البلدان وفي مسجد رسول اللّه (ص) وعلى منبره، ولا ينكِر عليهم منكِر ولا يغير عليهم مغير، فإن أنكر واحد منا على لعنه قالوا هذا ترابيّ(١٧)، ورُفع ذلك إلى سلطانهم وكُتب إليه أن هذا ذكر أبا تراب بخير، فضُرب وحبس ثم قتل. فلما سمع ذلك عليه السلام نظر إلى السماء فقال: سبحانك ما أعظم شأنك، إنك أمهلت عبادك حتى ظنوا أنك أهملتهم. . . ثم دعا بابنه محمد بن علي الباقر عليه السلام فقال: يا محمد، إذا كان غد فاغدُ إلى مسجد رسول اللّه (ص) وخذ الخيط الذي نزل به جبرئيل على رسول اللّه فحركه تحريكاً ليناً، ولا تحركه تحريكاً شديداً فيهلكوا جميعاً، قال جابر: فلما كان من الغد جئته وقد كان طال عليّ ليلي حرصاً لأنظر ما يكون من أمر الخيط، فبينما أنا بالباب إذ خرج عليه السلام وقال: ما غدا بك يا جابر ولم تكن تأتينا في هذا الوقت؟ فقلت: لقول الإمام عليه السلام بالأمس: خذ الخيط الذي أتى به جبرئيل وصر إلى مسجد جدك وحركه تحريكاً ليناً ولا تحركه تحريكاً شديداً فتهلك الناس جميعاً. قال الباقر عليه السلام: واللّه لولا الوقت المعلوم والأجل المحتوم والقدر المقدور لخسفت بهذا الخلق المنكوس في طرفة عين، ولكنا عباد مكرمون لا نسبقه بالقول وبأمره نعمل(١٨). فقلت: يا سيدي ومولاي ولمَ

---

(١٦) هو رابع الأئمة، علي بن الحسين الذي نجا من مذبحة كربلاء ولقب بزين العابدين وبالسجّاد، ويروى أنه تزوج من شهربانويه، بنت يزدجرد الثالث آخر ملوك الفرس. ومن هنا الحظوة الكبيرة التي يتمتع بها لدى شيعة إيران.

(١٧) نسبة إلى أبي تراب، لقب علي بن أبي طالب.

(١٨) هكذا وردت لدى مصنف **عيون المعجزات** الذي ننقل عنه هنا، ولكنها كانت وردت لدى مصنف **نوادر المعجزات** كآية قرآنية: ولكنا «عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره =

تفعل بهم هذا؟ فقال: أما حضرت بالأمس والشيعة تشكو إلى أبي ما يلقون من الملاعين؟ أمرني أن أرعبهم لعلهم ينتهون. فقلت: كيف ترعبهم وهم أكثر من أن يحصوا؟ فقال: امضِ بنا إلى مسجد رسول اللّه لأريك قدرة من قدرة اللّه التي خصنا بها وما منّ به علينا من دون الناس. قال جابر: فمضيت معه إلى المسجد فصلى ركعتين، **ثم تكلم بكلام**، ثم أخرج من كمه خيطاً دقيقاً أدقّ من سم الخياط، ثم حركه تحريكاً خفيفاً ما ظننت أنه حرَّكه من لينه.. فقلت: ما فعلت به يا سيدي؟ قال: ويحك أخرج فانظر ما حال الناس. قال جابر: فخرجت من المسجد وإذا الناس في صياح واحد والصائحة من كل جانب، فإذا بالمدينة قد زلزلت زلزلة شديدة وقد خربت أكثر دور المدينة وهلك منها أكثر من ثلاثين ألفاً رجالاً ونساء دون الولدان، وإذا الناس في صياح وبكاء وعويل وهم يقولون: إنا للّه وإنا إليه راجعون، كيف لا نخسف وقد ظهر فينا الفسق والفجور وظلم آل الرسول؟ واللّه ليتزلزل بنا أشد من هذا وأعظم.. فانصرفت إلى الباقر فقال لي: ما حال الناس؟ قلت: لا تسأل يا ابن رسول اللّه، خربت الدور والمساكن وهلك الناس، فقال: لا رحمهم اللّه، واللّه لولا مخالفة والدي لزدت في التحريك وأهلكتهم أجمعين، ولكن أمرني مولاي أن أحركه تحريكاً ساكناً.. فقلت: يا ابن رسول اللّه، ما هذا الخيط الذي فيه العجب؟ قال: بقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة وينصبه جبرئيل، ويحك يا جابر، إنا من اللّه تعالى بمنزلة رفيعة، فلولا نحن لم يخلق اللّه سماء ولا أرضاً ولا جنة ولا ناراً ولا شمساً ولا قمراً ولا جناً ولا إنساً، ويحك يا جابر لا يقاس بنا أحد»(١٩) [وفي إضافة في **نوادر المعجزات**: «ومن قاس بنا أحداً من البشر فقد كفر»].

= يعملون». وهي نفس الآية التي كان احتج بها علي بن أبي طالب ليعلل امتناعه عن توظيف القدرة التي أتاه اللّه ليمحق معاوية وأنصاره، حرصاً منه على عدم استباق «القدر المقدور».

(١٩) حسين بن عبد الوهاب: **عيون المعجزات**، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف ١٣٦٩ هـ، نقلاً عن مكتبة يعسوب الالكترونية، ص ٦٩ ـ ٧٣.

ولكن علاوة على هذا التوظيف السياسي المباشر لمنطق المعجزة، تنفرد المعجزات الإمامية عن المعجزات المحمدية والعلوية معاً بسمات ثلاث متعيّنة بالإشكاليات الخاصة التي حكمت تطور الإمامية الإثني عشرية في القرون الثلاثة الأولى:

١ ـ إشكالية الشك والبرهان.

٢ ـ إشكالية الانشقاقات الداخلية.

٣ ـ إشكالية التصفية الجسدية.

فمنذ مقتل الحسين في كربلاء والقمع الاستئصالي الذي مارسته السلطة الأموية اضطر الإماميون عموماً إلى الدخول في طور الدعوة السرية. وقد اقتضى العمل في الخفاء إخفاء هوية الأئمة أنفسهم، واللجوء إلى سياسة التقية. ورغم أن الإمامة باتت، بعد مصرع الحسين، وراثية يتناقلها بصورة آلية الابن عن الأب، فإنها ما كانت تكتسب صفة الشرعية ما لم يوصِ بها الأب للابن بالنص وما لم يسلمه بالمناسبة «اسم اللّه الأعظم» الذي بدونه لن يفتح له باب عالم الغيب والخوارق. ولكن بما أن هذا التعيين بالنص كان يتم في الغالب سراً في صغر الإمام الوارث، وربما في طفولته الأولى، فقد كان لا بد أن تثور الشكوك لاحقاً حول مصداقية هذا التعيين أو حول هوية الإمام نفسه. ولم يكن من سبيل إلى إثبات ذلك التعيين أو هذه الهوية إلا عن طريق المعجزة. ومن هذا المنظور كان كل إمام مطالباً بأن يأتي ببرهانه، وربما من ساعة مولده. وكثيرة هي، في أدبيات المعجزات الإمامية، الإشارات إلى جدلية الشك والبرهان هذه والتي لا سبيل أصلاً إلى حسمها إلا بشهادة الفعل الخارق للعادة، أي المعجزة. هكذا يروي مصنف **نوادر المعجزات** على لسان مهلب بن قيس: «قلت للصادق عليه السلام[٢٠]: بأي شيء يعرف العبد إمامه؟

(٢٠) سادس الأئمة، جعفر بن محمد الباقر، لُقِّب بالصادق تمييزاً له من جعفر الكاذب، حفيده الذي سينافس أخاه الإمام الحادي عشر الحسن الزكي على الإمامة، والذي ستقف عنده إحدى فرق الشيعة، فتعرف باسم الواقفية.

قال: أن يفعل كذا، ووضع يده على الحائط، فإذا الحائط ذهباً، ثم وضع يده على اسطوانة فورّقت من ساعتها، فقال: هنا معرفة الإمام» (ص ١٤١).

ويبدو أن الشكوك حول هوية الأئمة بدأت تثور منذ الإمام السابع موسى الكاظم. ومن هنا نسبت إليه معجزة منذ لحظة مولده. فقد روى مصنف **عيون المعجزات** على لسان أبيه جعفر الصادق أن والدته ـ وتدعى حميدة ـ «ذكرت أنه لما سقط رأته واضعاً على الأرض رافعاً رأسه يسبح اللّه ويهلله ويصلي على رسول اللّه»، فأكد لها الإمام الصادق «أن تلك أمارة رسول اللّه وأمير المؤمنين وأمارة الإمام» ودليل على أن «اللّه أعطاه العلم الأول والعلم الآخر» (ص ٨٥). ويروي المصنف نفسه على لسان علي بن حمزة الثمالي أنه دخل يوماً على الإمام الكاظم، فسأله: «جعلت فداك، بمَ يعرف الإمام؟»، فقال: «بخصال، أولها النص من أبيه عليه ونصبه للناس علماً حتى يكون عليهم حجة. . ويخبر الناس بما يكون في غد ويكلم الناس بكل لسان ويعرف منطق الطير والساعة». وتدليلاً على هذه المعجزة اللغوية التي لا بد أن يؤتاها كل أمام، يضيف الثمالي راوياً أن الإمام قال له: «أعطيك العلامة قبل أن تقوم من مقامك، فما برحت حتى دخل علينا رجل من أهل خراسان فتكلّم بالعربية، فأجابه عليه السلام بالفارسية، قال الخراساني: ما معنى أن لا أكلمك بكلامي إلا ظني بأنك لا تحسنه، فقال عليه السلام: سبحان اللّه، إن كنت لا أحسن أجيبك، فما فضلي عليك؟ ثم قال لي: يا أبا محمد، إن الإمام لا يخفى عليه كلام أحد من الناس، ولا منطق الطير والبهائم، فمن لم يكن فيه هذه الخصال، فليس بإمام»[٢١] (ص ٨٩).

---

(٢١) المعجزات اللغوية في الأدبيات الشيعية كثيرة، ومنها ـ على سبيل المثال ـ أن الإمام العاشر علي الهادي ما كان يتقن ثلاثاً وسبعين لغة فحسب، بل كان يقدر أيضاً أن يودع سرها في حصاة، فمن أعطاه هذه الحصاة من أتباعه امتلك بدوره القدرة على النطق بثلاثة وسبعين لساناً (**مدينة المعاجز**، ج ٧، ص ٤٥٢). والواقع أن هذا الرقم، ثلاثة وسبعين، له بذاته دلالة عرفانية ما. فطبقاً للأدبيات الشيعية فإن اسم اللّه الأعظم ـ الذي يودعه كل إمام وصيَّه =

ولكن يبدو أن الشكوك قد تعاظمت، أكثر ما تعاظمت، حول هوية ابن موسى الكاظم، الإمام الثامن علي الرضا. ويبدو أيضاً أن مصدر هذه الشكوك يعود إلى أن علي الرضا أُنجب من أَمَة نوبية اشتراها والده من نخاس بثمانين ديناراً، كانت «أم ولد» تدعى «سكن»، وإن تكن بعض المصادر قد سمتها بـ «أم البنين». وقد تعاظمت هذه الشكوك مع تحالف علي الرضا مع المأمون، المتهم بقتل أبيه، وزواجه من ابنته. وقد أورد مصنف **نوادر المعجزات** عدة أخبار عن شكوك حاصرت الإمام الثامن، فدحضها وهدمها بمعول المعجزات. ومنها الخبر التالي الذي ساقه على لسان سعد بن سلام: «قال: أتيت علي بن موسى الرضا عليه السلام وقد جاش الناس فيه وقالوا: لا يصلح للإمامة، فإن أباه لم يوصِ إليه، فقعد منا عشرة رجال فكلّموه، فسمعت الجدار الذي كنا فيه يقول: هو إمام كل شيء» (ص ١٦٧). ومنها خبر ساقه على لسان إبراهيم بن سهل: «قال: لقيت علي بن موسى عليه السلام وهو على حماره، فقلت له: من أركبك هذا؟ وتزعم **أكثر شيعتك**(٢٢) أن أباك لم يوصك ولم يقعدك هذا المقعد، وادعيت لنفسك ما لم يكن لك فيه شيء؟ فقال: وما دلالة الإمام عندك؟ قلت: أن يتكلم بما وراء الغيب(٢٣) وأن يحيي ويميت. فقال: أنا أفعل. أما الذي معك فخمسة دنانير، وأما أهلك فإنها ماتت منذ سنة، وقد أحييتها الساعة وأتركها معك سنة أخرى، ثم أقبضها إليَّ ليُعلم أني إمام بلا خلاف.. فانطلقت إلى منزلي، فإذا بأهلي جالسة، فقلت لها: ما الذي جاء بك؟ قالت: كنت نائمة إذ أتاني آتٍ ضخم **شديد**

= ليكون وسيلته لإتيان المعجزات ـ يتألف من ثلاثة وسبعين حرفاً. ولا ننسَ بهذا الصدد أن الأدبيات السنية نفسها تعطي ذلك الرقم دلالة مميزة، كما في حديث الفرقة الناجية المشهور المنسوب إلى الرسول: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة».

(٢٢) التسويد منا للتأكيد على سعة نطاق الشكوك وشمولها «أكثر الشيعة».

(٢٣) في الأصل كلمة غير مفهومة، وقد ذهب خيار المحقق إلى أنها «البيت»، وتأولناها نحن على أنها «الغيب» بدلالة الجملة التي ستلي (حزر الإمام بما مع سائله من مال).

السمرة[٢٤] فقال لي: يا هذه قومي وارجعي إلى زوجك، فإنك ترزقين بعد الموت ولداً. فرزقت واللّه» (ص ١٦٨ ـ ١٦٩). ومنها، ختاماً، خبر ساقه على لسان ابن يسار المدائني: «قال: سألني ابن قيام الصيرفي[٢٥] أن أستأذن له علي الرضا عليه السلام ففعلت، فلما صار بين يديه قال له: أنت إمام؟ قال: نعم، قال: إني أشهِد اللّه أنك لست بإمام، قال له: وما علمك؟ قال: إني رُويت عن أبي عبد اللّه[٢٦] عليه السلام أنه قال: الإمام لا يكون عقيماً، وقد بلغت هذا السن وليس لك ولد[٢٧]. فرفع الرضا عليه السلام رأسه إلى السماء ثم قال: اللهم إني أشهِدك أنه لا تمضي الأيام والليالي حتى أرزق ولداً يكون لك حجة على عبادك. فعددنا الوقت فكان بينه وبين ولادة أبي جعفر عليه السلام شهور» (ص ١٧٢ ـ ١٧٣).

والواقع أن قصة عقم الإمام الثامن هذه كان لا بد أن تثير الشكوك حول نسب الإمام التاسع أبي جعفر محمد بن علي الملقب بالتقي والجواد. وفي ذلك يروي مصنف **نوادر المعجزات** على لسان حفيده الحسن بن علي، الملقب بالزكي: «قال: كان أبو جعفر عليه السلام شديد الأدمة، ولقد قال فيه الشاكون المرتابون ـ وسنه خمسة وعشرون شهراً ـ إنه ليس من ولد الرضا عليه السلام، وقالوا ـ لعنهم اللّه ـ: سعيد الأسود مولاه، وقالوا: من لؤلؤ، وأنهم أخذوه فحملوه إلى القافّة[٢٨] وهو طفل بمكة في مجمع من الناس بالمسجد الحرام فعرضوه عليهم. فلما نظروا إليه وزرقوه بأعينهم خرّوا

(٢٤) هذه صفة علي الرضا وراثةً عن أمه النوبية.

(٢٥) ورد اسمه في مصادر شيعية أخرى باسم ابن قياما.

(٢٦) هو جعفر الصادق.

(٢٧) هذه التهمة خطيرة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن انقطاع نسل الإمام الثامن معناه انقطاع سلسلة الإمامة نفسها.

(٢٨) القافّة: جمع «القائف الذي يتتبع الآثار ويعرفها ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه» (**لسان العرب**).

لوجوههم سجّداً، ثم قاموا فقالوا: ويحكم! إن مثل هذا الكوكب الدري والنور المنير يُعرض على أمثالنا؟ وهذا واللّه الحسب الزكي، والنسب المهذب الطاهر، واللّه ما تردد إلا في أصلاب زاكية وأرحام طاهرة، واللّه ما هو إلا من ذرية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ورسول اللّه (ص) فارجعوا واستقيلوا اللّه واستغفروه ولا تشكّوا في مثله. وكان في ذلك الوقت سنّه خمسة وعشرين شهراً، فنطق بلسان أرهف من السيف، وأفصح من الفصاحة، يقول: الحمد للّه الذي خلقنا من نوره بيده، واصطفانا من بريته، وجعلنا أمناء على خلقه ووحيه. معاشرَ الناس، أنا محمد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أنا ابن فاطمة الزهراء بنت محمد رسول اللّه، ففي مثلي يشكون ويرتابون؟». (ص ١٧٣ ـ ١٧٥).

وليس من قبيل الصدفة أن يكون الإمام التاسع قد نطق، وهو في السنتين من العمر، بأسماء سلسلة الأئمة ـ إلى عهده ـ كاملة. فهده السلسلة كانت موضع صراع داخلي بين شتى الفرق التي توزَّع بينها أتباع المذهب الإمامي. وبالفعل، كادت السلسلة تعرف انحرافها الأول مع محمد بن الحنفية، شقيق الحسن والحسين من الأب، لا من الأم. فقد قاد تمرداً حقيقياً، بالتعاون مع المختار، ضد السلطة الأموية في نحو العام ٦٨٤م، وادعى لنفسه الحق في الإمامة بعد مقتل الحسين، وإن يكن في نهاية الأمر قد تنازل عنها لصالح ابن الحسين، علي زين العابدين، قبل أن يأخذ طريقه إلى «الغيبة»، بحسب ما تفيد المصادر الإمامية غير الاثني عشرية.

وكادت السلسلة تعرف انحرافها الثاني مع زيد بن علي زين العابدين الذي نافس أخاه غير الشقيق، محمد الباقر، على الإمامة وقاد شيعة الكوفة إلى ثورة انتهت بمقتله عام ٧٤٠م[٢٩]. ثم كادت السلسلة تعرف انحرافها الثالث مع

(٢٩) في الواقع مثلت الزيدية انشقاقاً حقيقياً داخل المعسكر الشيعي، وإن بقي محصوراً جغرافياً =

محمد النفس الزكية الذي دخل في منافسة مع الإمام السادس جعفر الصادق بصفته سليلاً للإمام الثاني الحسن بن علي. والواقع أنه في زمن إمامة الصادق حدث انكسار حقيقي في السلسلة. فالإمام السادس كان سمّى وريثاً له ابنه البكر إسماعيل ـ وكان هو الآخر سليلاً للحسن بن علي من طرف أمه. ولكن إسماعيل مات قبل أبيه جعفر. كما أن شقيقه من أمه عبد اللّه توفي بدوره بُعيد أبيه بقليل. وهذا ما أحدث البلبلة في صفوف الإماميين. فقد وقع اختيار غالبيتهم على موسى الكاظم، وكان ابن جارية. ولكن أقلية منهم رفضت هذا الخيار وتمسكت بإمامة إسماعيل ـ الذي «غاب» ولم يمت ـ كإمام سابع وأخير، وأعلنت اختتام سلك الإمامة بانتظار رجعته(٣٠). وما كان لمثل هذا الصدع الخطير في سلسلة الأئمة أن يرأب إلا بمنطق المعجزة. وتلك هي غائية المعجزة التالية التي تنسب إلى حبابة الوالبية. يروي الخصيبي في **الهداية الكبرى** أن حبابة هذه ـ وهي في الأغلب شخصية أسطورية جرى اختلاقها برسم هذه المعجزة ـ دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وهو في المدينة، «وعلى رأسها كوز شبيه بالسيف، وعليها أطمار سابغة متقلدة مصحفاً، وبين أناملها مسباح من حصى، فسلمت وبكت، وقالت: آه يا أمير المؤمنين، آه من فقدك وأسفاه على غيبتك، واحسرتاه على ما يفوت من الغيبة منك. . . وإرادة من أمري معك على يقين وبيان وحقيقة. . . إني أتيتك وأنت تعلم ما أريد، فمد يده اليمنى إليها فأخذ من يدها حصاة بيضاء تلمع وترى من صفائها، وأخذ خاتمه من يده وطبع به في الحصاة فانطبعت، فقال لها: يا حبابة، هذا كان مرادك مني؟ فقالت: أي واللّه يا أمير المؤمنين، هذا أريد لما سمعناه من تقوّل شيعتك، واختلافهم بعدك، فأردت بهذا برهاناً يكون معي إن

= بطبرستان حتى عام ١٠٣٣م، ثم باليمن حتى عام ١٩٦٢. وكان آخر أئمة الزيدية الإمام بدر الذي أطاح به انقلاب ناصري.

(٣٠) بالنظر إلى هذا الوقوف عند الإمام السابع، إسماعيل، سميت شيعته باسم الإسماعيلية والسبعية.

عمرت بعدك ـ ولا عمرت ـ ويا ليتني وقومي لك الفداء، فإذا وقعت الإشارة فمن يقوم مقامك أتيته بهذه الحصاة، فإذا فعل فعلك علمت أنه الخليفة، وأرجو ألا أوجد لذلك. قال: بلى، واللّه يا حبابة، لتلقين بهذه الحصاة ابني الحسن والحسين، وعلي بن حسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى(٣١)، وكلاً إذا أتيته استدعى بالحصاة منك وطبعها بهذا الخاتم لك، وفي عهد علي بن موسى ترين في نفسك برهاناً عظيماً تعجبين منه فتختارين الموت فتموتين، ويتولى أمرك ويقوم على حفرتك ويصلي عليك، وأنا مبشرك بأنك مع المكرورات مع المهدي من ذريتي إذا أظهر اللّه أمره... قالت حبابة: فلما قبض أمير المؤمنين عليه السلام أتيت مولاي الحسن، فلما رآني قال لي: أهلاً وسهلاً بك يا حبابة، هاتي الحصاة، فمد يده إليها كما مد أمير المؤمنين يده، فأخذ الحصاة فطبعها كما طبعها أمير المؤمنين، وخرج ذلك الخاتم بعينه، فلما قبض الحسن بالسم أتيت الحسين فلما رآني قال: مرحباً بك يا حبابة، هاتي الحصاة، فأخذها وختم عليها ذلك الخاتم، فلما استشهد أتيت علياً ابن الحسين، **وقد شك الناس فيه ومالت شيعة الحجاز إلى محمد بن الحنفية من شكهم في زين العابدين**(٣٢) فقالوا: يا حبابة، اللّه اللّه فينا اقصدي إلى علي بن الحسين حتى يتبيّن الحقّ، فصرت إليه فلما رآني رحّب بي ومدّ يده وقال: هاتي الحصاة، فأخذها وطبعها بذلك

(٣١) لنلاحظ هنا أن علي بن أبي طالب لا يتنبأ فقط بالأئمة السبعة الذين سيخلفونه من ذريته، ولا يسميهم فقط بأسمائهم قبل مولد آخرهم بنحو مئة وخمسين سنة، بل يمدّد أيضاً السلسلة إلى الإمام الثامن، علي الرضا بن موسى الكاظم، مما يؤكد أن القصة صُنعت للرد على الفريق المنشق: الإسماعيليين الذين أوقفوا الإمامة عند إسماعيل، الإمام السابع الغائب، ولم يعترفوا بالتالي بإمامة أخيه غير الشقيق موسى وابنه علي.

(٣٢) سنلاحظ تواً أن المصادر الإمامية تجمع على أن جميع الأئمة ـ خلا الثالث الحسين الذي قتل صبراً والثاني عشر محمد المهدي الذي نجا بأعجوبة ـ قد قتلوا بالسم، بمن فيهم الحسن نفسه رغم أنه كان تنازل لصالح معاوية حتى رماه بعض شيعته بأنه «مسوِّد وجوه المؤمنين» (**البداية والنهاية**، ج ٦، ص ٢٤٣) ـ التسويد منا.

الخاتم، ثم صرت بذاك الخاتم إلى محمد الباقر وإلى جعفر بن محمد [= الصادق] وإلى موسى بن جعفر [= الكاظم]، وإلى علي بن موسى [= الرضا]، فكل يفعل كفعل أمير المؤمنين. . . وكبر سني ورقّ جلدي ودق عظمي وحال سواد شعري بياضاً(٣٣)، وكنت بكثرة نظري إليهم صحيحة العقل والبصر والفهم، فلما صرت إلى علي الرضا بن موسى عليه السلام ورأيت شخصه الكريم ضحكت ضحكاً، فقال من حضر: قد خرفت يا حبابة، وإلا نقص عقلك، فقال لهم علي الرضا: ما خرفت حبابة ولا نقص عقلها، ولكن جدي أمير المؤمنين أخبرها بأنها تكون معي وأنها تكون مع المكرورات مع المهدي من ولدي(٣٤)، فضحكت تشوقاً إلى ذلك وسروراً وفرحاً بقربها منه، فقال القوم: استغفر لنا يا سيدنا، فما علمنا هذا، قال: يا حبابة ما الذي قال لك جدي؟ قالت: قال تُرين برهاناً عظيماً، قال: يا حبابة ترين بياض شعرك؟ قلت: بلى يا مولاي، قال: يا حبابة أتحبين أن تريه أسود حالكاً كما كان في عنفوان شبابك؟ قلت: نعم، يا مولاي. . . قال: أتحبين أن تكوني مع سواد شعرك شابة؟ فقلت: يا مولاي، هذا البرهان عظيم. . . **فدعا بدعوات خفية** حرك بها شفتيه فعدت واللّه شابة طرية غضة سوداء الشعر حالكاً، ثم دخلت خلوة في جانب الدار ففتشت نفسي فوجدتها بكراً، فرجعت وخررت بين يديه ساجدة» (ص ١٦٧ ـ ١٦٩). وغني عن البيان أنها في اليوم نفسه الذي ارتدّت

---

(٣٣) لا ندري كم كان عمر حبابة عندما دخلت لأول مرة على علي بن أبي طالب. ولكن لنا أن نفترض أن عمرها كان لا يقل عن الخمسين لأنها تمنت في حينه ألا تعمر بعده. وإذا علمنا أن علي الرضا ـ وكان آخر من قابلتهم من الأئمة ـ قد توفي بعد جده الأول علي بمئة وسبع وخمسين سنة، فهذا معناه أنها عمرت أكثر من مئتي سنة.

(٣٤) لنلاحظ أن النبوءة تتطاول هنا لتغطي تتمة السلسلة وصولاً إلى المهدي، الإمام الثاني عشر، المولود من جارية بيزنطية [يقال إنها ابنة إمبراطور بيزنطة، مما يعقد بينها وبين جدتها شهربانويه، بنت يزدجرد، صلة رمزية: فتماماً كما أن علي الرضا حقق المصالحة الكبرى بين إيران المجوسية المهزومة والإسلام العربي المنتصر، كذلك فإن رجعة المهدي ـ بعد الغيبة ـ ستحقق المصالحة بين الوراثتين الروحيتين الكبريين: المسيحية والإسلام].

فيه شابة وبكراً اختارت أن تموت، تماماً كما كانت توقعت لها نبوءة الإمام الأول.

هذا الاختيار لساعة الموت في سياق من الحتمية التنبؤية يحيلنا إلى الإشكالية الثالثة في أدبيات المعجزات الإمامية: التوفيق بين القدرة الإلهية المعزوة إلى الأئمة وبين سريان مفعول التصفية الجسدية عليهم جميعاً، وفي الغالب الأغلب عن طريق القتل بالسم. والحال أن أدبيات المعجزات الإمامية تجمع على أن الأئمة كانوا جميعهم يتنبؤون متى وكيف يقتلون. وليس تخفى وظيفة هذه التنبؤات. فما دامت الأعمار بيد اللّه، وما دام ﴿ما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ (فاطر/ ١١)، فإن الأئمة، بعلمهم المسبق بموعد موتهم ـ فضلاً عن كيفيته ـ إنما يثبتون أن عندهم «علم الكتاب» و «علم الساعة» معاً. **وهكذا يتحول موتهم بالذات إلى دليل من دلائلهم وبرهان من براهينهم**. وفضلاً عن ذلك فإنهم يحرمون قاتلهم من حرية الإرادة ومن القدرة التي يتوهمها لنفسه: فهو مقدور لا قادر، وهو لا يفعل شيئاً في خاتمة المطاف سوى أنه ينفذ إرادتهم ويسوق الدليل على سابق علمهم. فهو إذن كما الأداة بين أيديهم، وهذا في الوقت الذي سيدفع فيه ثمناً غالياً ـ عذاب الآخرة، وربما عذاب الدنيا أيضاً ـ جزاء لما ستقترفه يداه. وعلى أي حال، إن وفاة الإمام، ولو قتلاً بالسم، لا بد أن تقترن بمعجزة أو أكثر. والنموذج تقدمه لنا ههنا قصة تسميم المأمون لعلي الرضا بعد أن كان زوّجه من ابنته وضرب السكة باسمه وكتب له بالولاية من بعده قبل أن ينقلب عليه في خاتمة المطاف نزولاً عند مطلب العامة في بغداد وسائر العراق. فقد حاول المأمون أولاً أن يقتله بالسيف، ولكن سيوف الغلمان الذين أمرهم بقتله ارتدت كليلة، لأن الإمام الثامن كان تنبأ بأنه لا يقتل إلا مسموماً. وكان ذلك مقلباً حقيقياً كاد معه المأمون يتحول إلى هزأة للناس. وتفاصيل القصة ـ كما وردت في **عيون المعجزات** ـ مروية على لسان صبيح الديلمي، غلام المأمون وموضع ثقته «في سره وعلانيته». فقد دعا المأمون «في الثلث الأول من الليل»

نفراً من «تقاة غلمانه» وسلم كل واحد منهم سيفاً وقال لهم: «ادخلوا على علي بن موسى في حجرته، وإن وجدتموه قاعداً أو قائماً فلا تكلموه، واجعلوا سيوفكم عليه واضربوه حتى تخلطوا لحمه بدمه وعظمه، ثم ألقوا عليه بساطه، وامسحوا أسيافكم، وصيروا إليّ، فقد جعلت لكل منكم عشر ضياع». ففعلوا ما أمرهم به، وأنشبوا أسيافهم بعلي الرضا، ثم مسحوها، وعادوا إلى المأمون يبلغونه بتنفيذهم أمره. فلما «تبلج الفجر خرج المأمون وجلس في مجلسه مكشوف الرأس محلل الإزار وأظهر وفاته عليه السلام وجلس للتعزية». ولكنه لما سمع همهمة من حجرته أرسل صبيحاً ليستعلم، فدخل على الرضا فوجده «جالساً في حجرته» يسبِّح. فعاد إلى المأمون يخبره بما رأى وسمع، فاربدّ وجه هذا الأخير «كقطع الليل المظلم»، ثم قام وشد إزاره وقال: «قولوا قد غشي عليه وقد أفاق من غشوته». ولكن بعد بضعة أيام عاود المأمون الكرة، لاجئاً هذه المرة إلى السم، تماماً كما تنبأ علي الرضا، فحصلت وفاته. والقصة مروية هذه المرة على لسان هرثمة بن أعين، ومسرحها مدينة طوس التي كان المأمون اتخذها عاصمة له. قال: «كنت بين يدي المأمون ليلة إلى أن مضى من الليل أربع ساعات، وبعد الأربع ساعات قرع إنسان بابي، فكلمه بعض غلماني، فقال له: قل لهرثمة أجب سيدنا الرضا عليه السلام فقمت مسرعاً وأخذت ثيابي وأسرعت إليه... فإذا بسيدنا الرضا في صحن الدار جالساً، فقال لي: يا هرثمة اجلس واسمع وعِ هذا، فإن رحيلي إلى اللّه عز وجل ولحوقي بآبائي وجدي رسول اللّه قرب، وبلغ الكتاب أجله، وقد عزم هذا الطاغية على سمّي في عنب ورمان مفروك، وإنه سيدعوني في يومنا هذا المقبل ويقدم إلي العنب والرمان ويسألني أكله فآكله، ثم ينفذ الحكم ويتم القضاء، فإذا أنا متّ فسيقول لك المأمون: أنا أغسله بيدي، فإذا قال ذلك فقل له إني قد قلت لا يتعرض لغسلي ولا لتكفيني ولا لدفني، فإنه إن فعل ذلك عاجله اللّه من العذاب ما أُخِّر عنه... ولا تتعرض يا هرثمة لشيء من غسلي حتى ترى فسطاطاً قد ضرب في جانب الدار

أبيض. . . فإذا رأيت ذلك فأدخلني في ثوبي الذي أنا فيه من ورائه ولا تكشف الفسطاط فتهلك، فإنه سيشرف عليك ويقول لك: يا هرثمة أليس زعمتم أن الإمام لا يغسله إلا إمام مثله؟ فمن يغسل علي بن موسى وابنه محمد[(٣٥)] بالمدينة ونحن بطوس وهو بها ميت؟ فإذا قال لك فأجبه: ما يغسله أحد غير الذي ذكرته، فإذا ارتفع الفسطاط فسوف تراني مدروجاً في أكفاني، فضعني على نعشي واحملني، فإذا أراد أن يحفر قبري فإنه سيجعل قبر أبيه هارون قبلة لقبري، ولكن لا يكون ذلك واللّه أبداً، فإذا ضربوا المعاول فإنها ستنبو عن الأرض ولا يحفر لهم منها شيء ولا كقلامة ظفر، فإذا اجتهدوا في ذلك وصعب عليهم فقل لهم عني: أمرني أن أضرب معولاً واحداً في قبلة قبر هارون، فإذا ضربت رأيت قبراً محفوراً في وسطه ضريح، فإذا انفرج لك ذلك القبر فلا تنزلني حتى يفور من ضريحه ماء أبيض يمتلئ به ذلك القبر إلى وجه الأرض، ثم يضطرب فيه حوت بطوله. . . حتى إذا غاب الحوت وغار الماء فأنزلني في قبري[(٣٦)]. ولا تدعهم يحثون عليّ تراباً، فإن القبر ينطبق من نفسه ويمتلئ». وتماماً كما توقع ـ أو تنبأ بالأحرى ـ علي الرضا، دعاه المأمون في ضحوة النهار التالي إلى مجلسه واستقبله قائماً «وعانقه وقبّله بين عينيه وأجلسه إلى جانبه على سريره، وأقبل يحادثه ساعة طويلة ثم قال لبعض غلمانه يأتي بعنب ورمان. . .». ويتتابع السيناريو كما رسمه الإمام المسموم، بدءاً بغسله وتكفينه على يد ابنه بالمدينة ـ حيث طار به الفسطاط وعاد ـ ومروراً بنبوّ

---

(٣٥) هو محمد الجواد الملقب بالتقي الذي سيخلف أباه بصفته إماماً تاسعاً وسيلقى مصرعه مثله مسموماً ـ كما يقال ـ على يد زوجته أم الفضل بنت المأمون أيضاً.

(٣٦) قصة هذا الحوت، الغامضة في **عيون المعجزات**، تضيء بدلالتها في **الهداية الكبرى**، حيث وردت كما يلي: «فإذا انحفر ذلك القبر يظهر فيه حيتان صغار، فخذ لقمة من خبز ففتّها فإنهن يأكلنها، ثم يظهر حوت ويطول فيأكل تلك الحيتان الصغار، فيقول لك: ما هذا؟ فقل له إن مَثَل هذه الحيتان الصغار مَثَل بني العباس، فإنهم يأكلون مدتهم من الدنيا، ومَثَل الحوت الذي أكلهم مثل القائم المهدي من ولدي، فإنه إذا ظهر أفنى بني العباس» (ص ٢٨٣).

المعاول عن الأرض التي أبت أن تنحفر في قبلة قبر هارون الرشيد، وانتهاء بانحفار القبر من تلقاء نفسه ثم بانطباقه ـ بعد أن غاب عنه الحوت وغار الماء ـ من تلقاء نفسه أيضاً. وإزاء كل هذه الآيات التي تتالت تباعاً لم يجد المأمون مناصاً من الاختلاء بهرثمة لاستنطاقه، فلما علم بما أسرّه علي الرضا له قبل ليلة من خبر العنب والرمان المسممين والغسل والكفن والحوت والقبر، «أقبل يتلوّن ألواناً بصفرة وحمرة وسواد ثم مدّ بنفسه كالمغشي عليه... ويقول في غشوته: «ويل للمأمون من اللّه!» (ص ١٠٠ ـ ١٠٦).

وكما أمر المأمون بقتل الإمام الثامن سيأمر المعتصم بقتل الإمام التاسع محمد الجواد، وسيأمر المعتز بقتل الإمام العاشر علي الهادي، وسيأمر المعتمد بقتل الإمام الحادي عشر الحسن الزكي[(٣٧)]، ودوماً بالسم طبقاً للمصادر الإمامية. وإزاء هذه السياسة العباسية الاستئصالية ـ التي أخذت بُعداً أكثر مأساوية كونها تلت مباشرة سياسة الانفتاح المأمونية على الشيعة - فرضت نفسها فكرة تغييب الإمام الثاني عشر محمد المهدي الملقب بالحجة والمنتظَر وصاحب الزمان حتى لا تطوله يد الاغتيال الذي كان أمر به الخليفة المعتمد. وهكذا توقفت سلسلة الأئمة مع غيبة المهدي وهو في الثامنة من العمر، وكانت غيبته هذه هي بحد ذاتها المعجزة الصغرى التي لا بد أن تليها المعجزة الكبرى التي ستتمثل برجعته «ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً» (ص ١٣٠).

(٣٧) الملقب بالعسكري لأنه سجن ومات في «عسكر» سر من رأى (= سامراء).

الفصل الرابع

المسار التضخّمي للمعجزات الإمامية

تماماً كما وجدنا لائحة المعجزات في الأدبيات السنية تتطاول لتشغل مئات الصفحات لدى ابن كثير في القرن الثامن الهجري وليربو تعدادها على الثلاثة آلاف معجزة لدى مصنف **السيرة الحلبية** في القرن الحادي عشر، كذلك تطالعنا أدبيات المعجزة الشيعية بمسار تضخمي مماثل. فلدى الخصيبي في **الهداية الكبرى** ما كان تعداد معجزات الأئمة الاثني عشر يتعدى المائة، ومع الطبري الكبير في **نوادر المعجزات** ارتفع العدد إلى نحو مئتين وخمسين، ومع الطبري الصغير في **دلائل الإمامة** ناف العدد على الثلاثمئة، ولكن مع البحراني في **مدينة المعاجز** ارتفع العدد إلى أكثر من ألفين.

والواقع أن هذا المصنِّف الأخير، المتوفى سنة ١١٠٧ للهجرة، استفاد من كل تراكم الأدبيات الإمامية على مر القرون الممتدة من القرن الثاني إلى القرن الحادي عشر للهجرة ليضع موسوعة حقيقية في معجزات الأئمة تألفت من ثمانية مجلدات في نحو من أربعة آلاف صفحة، وأحصت للأئمة الاثني عشر ألفين وثلاثاً وستين معجزة موزعة على النحو التالي:

الإمام علي	٥٥٥	معجزة
الإمام الحسن بن علي	٩٩	معجزة
الإمام الحسين بن علي	١٩٣	معجزة
الإمام علي زين العابدين	١٠٦	معجزات

الإمام محمد الباقر	١١٦	معجزة
الإمام جعفر الصادق	٢٦٣	معجزة
الإمام موسى الكاظم	١٣٢	معجزة
الإمام علي الرضا	١٦١	معجزة
الإمام محمد الجواد التقي	٨٤	معجزة
الإمام علي الهادي النقي	٩٣	معجزة
الإمام حسن الزكي العسكري	١٣٤	معجزة
الإمام محمد المهدي	١٢٧	معجزة
المجموع	٢٠٦٣	معجزة(١)

والواقع أيضاً أن هذا التضخم لم يبق محصوراً بالكم، بل شمل أيضاً الكيف. فبمرور القرون ما زادت المعجزات غرائبية فحسب، بل تعاظمت القدرة المنسوبة إلى الأئمة على خرق مبدأ الواقع إلى حد **أضحى معه الخيال هو المسرح البديل ـ وربما الوحيد ـ للفعل في التاريخ**. فحيثما يكبو الواقع ينهض الخيال ويسرح وينطلق متحللاً من كل قيد، بما فيه قيد القابلية للتصديق. بل لكأن مصداقية كل معجزة جديدة تضاف إلى لائحة المعجزات المتطاولة باستمرار تكمن في نصابها العالي من الغرائبية واللاقابلية للتصديق. فإزاء العجز التاريخي المزمن كان لا بد أن تعزى إلى الأئمة كلية قدرة لا يحدها حد. وكلية القدرة المتوهمة هذه قابلة لأن تندرج، في **مدينة المعاجز**، تحت العناوين التالية:

---

(١) هذا الإحصاء لا يشمل المعجزات المنسوبة إلى فاطمة بنت الرسول، ولا كذلك إلى شخصيات شيعية مرموقة مثل سلمان الفارسي أو المختار أو فاطمة بنت الحسن بن علي زوجة الإمام الباقر.

أ ـ القدرة على تحدي قوانين الكون والطبيعة الكبرى، مثل رد الشمس بعد مغيبها، أو حتى تكليمها، واستنزال النجوم، وتسكين الزلازل، وتحريك الجبال، والتحكم بمسار الأنهار وبمستوى فيضها أو غيضها. وقد كنا توقفنا بما فيه الكفاية عند معجزة، أو بالأحرى معجزات رد الشمس بعد مغيبها ليؤدي عليّ صلاة العصر، ولكن الجديد الذي يطالعنا به مصنف **مدينة المعاجز** هو نسبة مثل هذه الأعجوبة، لا إلى النبي ولا إلى الوصي فحسب، بل كذلك إلى أئمة آخرين ومنهم زين العابدين. فعن سالم بن قبيصة «قال: شهدت علي بن الحسين عليه السلام وهو يقول: أنا أول من خُلق في الأرض وأنا آخر من يملكها، فقلت له: يا ابن رسول الله وما آية ذلك؟ قال: آية ذلك أن أرد الشمس من مغربها إلى مشرقها ومن مشرقها إلى مغربها. فقيل له: افعل ذلك، ففعل»[٢]. كما أن من الجديد الذي يطالعنا به في هذا الباب أن النبي لم يكتف بأن يرد الشمس لوصيه، بل أمرها أيضاً بأن تكلمه. وقد أورد البحراني في ذلك عدة روايات، ومنها التالية على لسان سلمان وأبي ذر وابن عباس معاً، قالوا: «إنه لما فتح الله مكة وتهيأنا إلى هوازن قال النبي (ص): يا علي قم فانظر إلى كرامتك على الله، كلّم الشمس إذا طلعت، فقام علي وقال: السلام عليك أيتها العبد الدائب في طاعة ربه، فأجابته الشمس وهي تقول: وعليك السلام يا أخا رسول الله ووصيه وحجته على خلقه، فانكب علي ساجداً شكراً لله» (م. م، ج١، ص ٢٢١). وفي رواية أخرى أن آية تكليم الشمس وإقرارها له بالوصية أعقبت مباشرة ليلة نزول النجم على جدار دار الإمام الأول ليشهد له بمثل ما شهدت الشمس، وهذا على مرأى ومسمع من «المنافقين التسعة» الذين كانوا حسدوه على المكانة التي يحظى بها لدى النبي دونهم. وتفصيل الرواية، المنقولة على لسان أبي جعفر الباقر، أنه «لما

(٢) السيد هاشم البحراني: **مدينة معاجز الأئمة الاثني عشر ودلائل الحجج على البشر**، تحقيق الشيخ عباد الله الطهراني، منشورات مؤسسة المعارف الإسلامية ١٤١٥ هـ، نقلاً عن مكتبة يعسوب الالكترونية، ج ٤، ص ٢٥٨.

كثر قول المنافقين وحساد أمير المؤمنين فيما يظهره رسول اللّه من فضل أمير المؤمنين ويأمر الناس بطاعته ويأخذ له البيعة على كبرائهم ويأمرهم بالتسليم عليه بإمرة المؤمنين. . . اجتمع التسعة المفسدون في الأرض، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة الجراح فقالوا: قد أكثر محمد في أمر علي حتى لو أمكنه أن يقول لنا اعبدوه لقال(٣)، فقال سعد بن أبي وقاص: ليت محمداً أتانا فيه بآية من السماء كما أتاه اللّه في نفسه من شق القمر وغيره. وباتوا ليلتهم تلك، فنزل نجم من السماء حتى صار في ذروة جدار أمير المؤمنين متعلقاً، يضيء في سائر المدينة حتى دخل ضياؤه في البيوتات، فذعر أهل المدينة ذعراً شديداً. . . وسمع رسول اللّه ضجيج الناس فخرج وصاح: يا ناس ما الذي أرعبكم وأخافكم؟ هذا النجم النازل على دار علي؟ فقالوا: نعم يا رسول اللّه، قال: أفلا تقولون لمنافقيكم التسعة الذين اجتمعوا فقالوا في أخي علي ما قالوه، وقالوا: ليت محمداً يأتينا بآية من السماء كما أتانا به في نفسه من شق القمر وغيره، فأنزل اللّه عز وجل هذا النجم على مشربة أمير المؤمنين. . . ولم يزل النجم كذلك إلى أن غاب كل نجم في السماء. . . ثم ارتفع النجم وهم ينظرون إليه والشمس قد بزغت. . . فقال بعض المنافقين: لو شاء لأمر هذه الشمس فنادت باسم علي. . . فهبط جبرئيل فخبر رسول اللّه بما قالوه. . . فأقبل على الناس وقال: استعيدوا إليَّ علياً في منزله، فاستعادوه إليه فقال له: يا أبا الحسن، إن قوماً من منافقي أمتي ما قنعوا بآية النجم، فإنك يا علي تخرج معي إلى بقيع الغرقد عند طلوع الشمس، فإذا بزغت الشمس فادع بدعوات أنا ملقنك إياها. . . فخرج أمير المؤمنين وقال للشمس: السلام عليك يا خلق اللّه الجديد، فأنطقها اللّه بلسان عربي مبين، فقالت: السلام عليك يا أخا

(٣) وفي رواية أخرى أن الرسول قال بالفعل لوصيه: «لولا أن تقول فيك طائفة من أمتي ما قالت النصارى في عيسى لقلت فيك مقالاً لا تمرّ بملأ إلا أخذوا التراب من تحت قدميك يستشفون به» (م. م، ج ١، ص ٢١٦).

رسول اللّه ووصيه. . . فارتعد القوم [= التسعة المفسدون في الأرض] واختلطت عقولهم، وانكفؤوا إلى رسول اللّه مسودة وجوههم، تغيظ أنفسهم غيظاً. . . وقالوا بأجمعهم: نحن نستغفر اللّه يا رسول اللّه فاستغفر لنا، فأنزل اللّه تبارك وتعالى: «سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر اللّه لهم إن اللّه لا يهدي القوم الفاسدين»(٤) (م. م، (ج٣، ص ١٦٢ ـ ١٦٦).

وفي هذا الباب من المعجزات الخارقة للطبيعة الكبرى تندرج معجزات تسكين الزلازل أو استحداثها. فقد ساق البحراني أخبار سبع معجزات زلزالية علوية تجد نموذجها الأتم، الذي لا يخلو أصلاً من توظيف سياسي، في الرواية التالية على لسان فاطمة بنت الرسول: «قالت: أصاب الناس زلزلة على عهد أبي بكر، وفزع الناس إلى أبي بكر وعمر، فوجدوهما قد خرجا فزعين إلى عليّ عليه السلام، فخرج إليهم غير مكترث لما هم فيه، فمضى فاتبعه الناس حتى انتهى إلى تلعة فقعد عليها وقعدوا حوله وهم ينظرون إلى حيطان المدينة ترتج جائية وذاهبة، فقال لهم عليه السلام: كأنكم قد هالكم ما ترون؟ قالوا: وكيف لا يهولنا ولم نرَ مثلها قط! قالت: **فحرك شفتيه** ثم ضرب الأرض بيده، ثم قال: اسكني، فسكنت» (م. م، ج ٢، ص ٩٩). وفي رواية أخرى عن «تسكين الزلزلة على عهد عمر بن الخطاب» يروي البحراني: «رجفت قبور البقيع [= مقبرة المدينة] على عهد عمر بن الخطاب، فضج أهل المدينة من ذلك، فخرج عمر وأصحاب رسول اللّه يدعون لتسكين الرجفة، فما زالت تزيد إلى أن تعدى ذلك إلى حيطان المدينة، وعزم أهلها على الخروج منها، فعند ذلك قال عمر: عليّ بأبي الحسن علي بن أبي طالب، فقال: يا أبا الحسن ألا ترى إلى قبور البقيع ورجفتها، حتى تعدّى ذلك إلى حيطان المدينة، وقد همّ أهلها بالرحلة عنها. . . فدعا عليه السلام بأبي ذر

(٤) معلوم أن هذه الآية السادسة من سورة المنافقين تجد في كتب التفسير وأسباب النزول السنية تأويلاً مغايراً تماماً لحيثيات نزولها.

ومقداد وسلمان وعمار وقال لهم: كونوا بين يديّ حتى أتوسط البقيع، والناس محدقون به، فضرب الأرض برجله، ثم قال: ما لك، ما لك، ما لك، ثلاثاً، فسكنت الأرض» (م. م، ج ٢، ص ١٠٠ ـ ١٠١). وبالإضافة إلى تسكين زلزلة في البصرة وأخرى في الكوفة، يسوق البحراني روايتين عن استحداث الإمام لزلزلة أرضية بضربة من رجله ثم تسكينه إياها بمجرد قوله: «اسكني». ثم يختم هذا الباب ـ كما بدأه ـ على لسان فاطمة التي نقلت عنها أسماء بنت عميس الخثعمية، خادمتها، أنه ليلة دخل بها عليّ «سمعت الأرض تحدثه ويحدثها»، ففزعت، ولما أصبحت أخبرت والدها (ص) «فسجد سجدة طويلة ثم رفع رأسه وقال: يا فاطمة أبشري بطيب النسل، فإن اللّه فضّل بعلك على سائر خلقه، وأمر الأرض تحدثه بأخبارها وما يجري على وجهها من شرقها إلى غربها» (م. م، ج ٢، ص ١٠٥).

وتقدم لنا معجزة تطويع الفرات نموذجاً آخر من التحكم العجائبي بقوى الطبيعة الكبرى. فقد أورد البحراني عدة روايات مفادها أن «الماء طغى في الفرات وزاد حتى أشفق أهل الكوفة من الغرق، ففزعوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فركب بغلة رسول اللّه (ص) حتى أتى شاطئ الفرات. . . فدعا بدعوات سمعها أكثرهم، ثم تقدم إلى الفرات متوكئاً على قضيب بيده حتى ضرب به صفحة الماء وقال: أغض بإذن اللّه، فغاض الماء حتى بدت الحيتان من قعره». ولكن لما «انزجر الماء حتى ظهرت الأرض في بطن الفرات، حتى كأن لم يكن فيها ماء، صاح الناس: يا أمير المؤمنين اللّه اللّه في رعيتك لئلا يموتوا عطشى. فقال أمير المؤمنين: إجرِ على قدر يا فرات لا زائداً ولا ناقصاً»، فعاد الفرات يجري بمستواه الطبيعي(٥) (م. م، ج ٢، ص ١٠٥ ـ ١٠٩).

---

(٥) تتضمن بعض روايات معجزة الفرات تفصيلاً إضافياً آخر. فعندما ضرب الإمام صفحة الماء وغاض الفرات حتى بدت الحيتان من قعره، فنطق كثير منها بالسلام عليه بإمرة المؤمنين، =

ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إن الكون يتحول، في بعض نصوص **مدينة المعاجز**، من مسرح للمعجزات إلى مسرح للعب. وعلى هذا النحو روي عن جابر بن عبد اللّه أنه رأى ثاني الأئمة، الحسن بن علي، «وقد علا في الهواء وغاب في السماء وأقام بها ثلاثاً ثم نزل بعد الثلاث وعليه السكينة والوقار» (م. م، ج ٣، ص ٢٣٣). وفي رواية أخرى عنه أنه رأى الحسن «يأخذ الكواكب من السماء ثم يرسلها فتطير كالعصافير» (م. م، ج ٣، ص ٢٣٤).

وفي رواية عن الإمام الرابع علي بن الحسين أنه رئي «وقد نبت له أجنحة وريش، فطار في أعلى عليين) (م. م، ج ٤، ص ٢٦٠).

وفي رواية عن الإمام الخامس جعفر الصادق أنه رئي «وقد رفع منارة النبي (ص) بيده اليسرى وحيطان القبر بيده اليمنى، ثم بلغ بهما عنان السماء، ثم قال: أنا جعفر، أنا نهر الأزخر، أنا صاحب الآيات الأقمر» (م. م، ج ٥، ص ٢١٤). وفي رواية أخرى عنه أنه «جيء إليه بسمك مسلوخ، فمسح يده على سمكة فمشت بين يديه، ثم ضرب بيده إلى الأرض، فإذا دجلة والفرات تحت قدميه، ثم أرانا السفن في البحر، ثم أرانا مطلع الشمس ومغربها في أسرع من اللمح» (م. م، ج ٥، ص٢١٥).

وفي رواية ثالثة عن إبرهيم سعيد: «قال: كنت عند أبي عبد اللّه جعفر الصادق عليه السلام وقد أظلتنا هاجرة صعبة، فأظهر لنا ثلجاً وعسلاً ونهراً يجري في داره في غير حفر، وذلك بالمدينة حيث لا ثلج ولا عسل ولا ماء يجري» (م. م، ج٥، ص ٢١٧). وفي رواية رابعة عن الليث بن إبراهيم: «قال: صحبت جعفر بن محمد عليه السلام حتى أتى الغري[٦] في ليلة من

= ولم ينطق منها أصناف من السمك... فتعجّب الناس وسألوه عن علة نطق ما نطق، وصمت ما صمت، فقال: «أنطق اللّه لي ما طهر من السمك، وأصمت عني ما حرّمه اللّه ونجّسه» (م. م، ج ٢، ص ١٠٧).

(٦) الغري: نجف الكوفة وفيه قبر الإمام علي.

المدينة وأتى الكوفة، ثم رأيته مشى على الماء ورجع إلى المدينة ولم ينقص من الليل شيء» (م. م، ج ٥، ص ٢١٨).

وفي رواية أخيرة عن الإمام التاسع محمد بن علي الجواد التقي على لسان محمد بن العلاء: «قال: رأيت محمد بن علي عليه السلام يحج بلا راحلة ولا زاد من ليلته ويرجع [إلى بغداد]، وكان لي أخ بمكة لي عنده خاتم. فقلت له: تأخذ لي منه علامة، فرجع من ليلته ومعه الخاتم» (م. م، ج ٧، ص ٣٢١).

ب ـ تحدي قوانين الطبيعة الصغرى، وفي مقدمتها القوانين البيولوجية. فالإمام قد «يتكلم في بطن أمه ويقرأ القرآن» (م. م، ج ٨، ص ١٩). وقد يولد من فخذ أمه لا من رحمها كما ولد الحسن والحسين من فخذ فاطمة الأيسر في محاكاة لما يروى من أن «مريم ولدت المسيح من فخذها الأيمن» (م. م، ج ٣، ص ٢٢٦). وقد يمشي وهو ابن أربعين يوماً، وقد ينطق بالشهادة لنفسه بالإمامة ويسمي سلسلة الأئمة الاثني عشر منذ ساعة مولده كما في المعجزات المنسوبة إلى آخر الأئمة محمد بن الحسن المهدي المنتظر (م. م، ج ٨، ص ١٨).

ولكن الإمام أيضاً قد لا يموت بالسم حتى ولو تجرع منه ما يكفي لقتل عشرين غيره. فمعاوية قد سمّ الحسن «سبعين مرة» فلم يفعل فيه السم ولا مرة واحدة (م. م، ج ٣، ص ١٦٠). والرشيد أمر بسم موسى الكاظم بعشرين رطبة مسمومة، فبقيت بلا مفعول (م. م، ج ٦، ص ٣٦٦). بل إن المأمون يذبح بيده علي الرضا ـ وهو نائم ـ من حلقه و «يقطعه قطعاً قطعاً» ثم يفاجأ به في الصباح جالساً يستاك أسنانه (م. م، ج٧، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩).

ولكن أعجب ما ينسب من المعجزات البيولوجية إلى الأئمة هي تلك التي تتمثل بقلب الجنس من الذكورة إلى الأنوثة، وبالعكس. وفي ذلك يورد مصنف **مدينة المعاجز** خبر المعجزتين التاليتين المعزوتين إلى الحسن بن علي، ثاني الأئمة.

ففي محفل من الناس، وبحضور معاوية نفسه، «نهض رجل من بني أمية، وكان شاباً، فأغلظ على الحسن كلامه وتجاوز الحد في السب والشتم له ولأبيه، فقال الحسن عيه السلام: اللهم غيِّر ما به من النعمة واجعله أنثى ليُعتبر به، فنظر الأموي في نفسه وقد صار امرأة، قد بدّل اللّه له فرجه بفرج النساء وسقطت لحيته. ثم قال له الحسن: أُغْربي، ما لك بمحفل الرجال، فإنك امرأة... ثم شاع أمر الشاب الأموي وأتت زوجته إلى الحسن فجعلت تبكي وتتضرع، فرقّ لها ودعا له، فجعله اللّه كما كان» (م. م، ج ٣، ص ٤١٥ ـ ٤١٦).

وفي المعجزة الثانية، التي يرويها مصنف **مدينة المعاجز** نقلاً عن «بعض كتب أصحابنا الثقاة»، أن «رجلاً من أهل الشام[٧] أتى الحسن عليه السلام ومعه زوجته، فقال: يا بن أبي تراب، وذكر بعد ذلك كلاماً نُزِّهتُ عن ذكره، إن كنتم في دعواكم صادقين فحوّلني امرأة وحوّل امرأتي رجلاً، كالمستهزئ في كلامه، فغضب عليه السلام ونظر إليه شزراً، **وحرك شفتيه ودعا بما لم نفهمه**، ثم نظر إليهما وأحدّ النظر، فرجع الشامي إلى نفسه وأطرق خجلاً، ووضع يده على وجهه، ثم ولى مسرعاً، وأقبلت امرأته وقالت: إني صرت رجلاً. وذهبا حيناً من الزمن، ثم عادا إليه وقد ولد لهما مولود، وتضرعا إلى الحسن عليه السلام تائبين ومعتذرين مما فرطا فيه، وطلبا منه انقلابهما إلى حالهما الأول، فأجابهما إلى ذلك ورفع يديه وقال: اللهم إن كانا صادقين في توبتهما فتب عليهما وحوّلهما إلى ما كانا عليه، فرجعا إلى ذلك لا شك فيه ولا شبهة» (م. م، ج ٣، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١).

وفي نطاق المعجزات البيولوجية أيضاً يمكن أن ندرج عشرات المعجزات التي يجري فيها إنطاق العجماوات من أسماك وطيور وبقر وسباع وأفاعٍ لتشهد

(٧) لنلاحظ أن المعجزتين لا تخلوان من مدلول في سياق الصراع المزمن بين الإماميين والأمويين الذين كثيراً ما يوصفون أيضاً بـ «الشاميين».

في الغالب بإمامة الأئمة، كما في مثال الضب الذي شهد للإمام الأول بأنه أخو النبي ووصيه[٨] (م. م، ج ٢١، ص ٢٦٥)، أو لتحذّر الأئمة من غدر الناس كما في مثال «السبع العقور» الذي سأله الإمام الشهيد، الحسين بن علي، «عن حال الناس بالكوفة فقال: قلوبهم معك وسيوفهم عليك»[٩] (م. م، ج ٣، ص ٤٥١).

بل إن الأمر يتعدى أحياناً إنطاق العجماوات إلى إنطاق الجمادات، ودوماً لتشهد بإمامة الإمام. وحسبنا المثال التالي: «قال يحيى بن أكثم، قاضي القضاة بسر من رأى: أنا ذات يوم في مسجد رسول اللّه واقف عند القبر

---

(٨) وهو نفس الضب الذي وجدناه يشهد في الأدبيات السنية للرسول برسالته، والذي جعل صاحبه الأعرابي يشهد بما «شهد به هذا الضب».

(٩) لا شك أن المعجز الثامن والعشرين بعد المائة المنسوب إلى الإمام الشهيد تحت عنوان «حديث الطير» يمثل، من وجهة النظر الأدبية والجمالية الصرف، نموذجاً مؤسياً لما يمكن أن نسميه بـ «البكائيات الحسينية». إذ يروي مصنف **مدينة المعاجز** «من طريق أهل البيت أنه لما استشهد الحسين عليه السلام بقي في كربلاء صريعاً، ودمه على الأرض مسفوحاً، وإذا طائر أبيض قد أتى وتلطخ بدمه، وجاء والدم يقطر منه، فرأى طيوراً تحت الظلال على الغصون والأشجار، وكل منهم يذكر الحبّ والعلف والماء، فقال لهم: يا ويلكم، أتشتغلون بالملاهي وذكر الدنيا والمناهي، والحسين في أرض كربلاء ملقى على الرمضاء ظامئ مذبوح ودمه مسفوح! فعادت الطيور قاصدة كربلاء، فرأوا سيدنا الحسين ملقى في الأرض، جثة بلا رأس ولا غسل ولا كفن، قد سفت عليه السوافي، بدنه مرضوض قد هشمته الخيل بحوافرها، وهو مذبوح من قفاه، مسلوب رداه، قد هتك القوم نساءه، تزوره وحوش القفار وتندبه جنّ السهول والأوغار. فلما رأته الطيور تصايحن وأعلنّ بالبكاء والثبور، وتواقعن على دمه يتمرغن فيه، وطار كل واحد منهم إلى ناحية يُعْلِمُ أهلها أن سيدي أبا عبد اللّه قتيل، والبدن منه جريح، والدم منه يسيح. ومن القضاء والقدر أن طيراً من هذه الطيور قصد مدينة الرسول، جاء يرفرف والدم يتقاطر من جناحيه، ودار حول قبر رسول اللّه يعلن بالبكاء والنداء: ألا قتل الحسين بكربلاء، ألا ذبح الحسين بكربلاء، ألا نهب الحسين بكربلاء! فاجتمعت الطيور عليه وناحت وبكت عليه. فلما عاين أهل المدينة من الطيور ذلك النوح، وشاهدوا الدم يتقاطر من الطير ولم يعلموا ما الخبر؟ حتى انقضت مدة من الزمان وجاء خبر مقتل الحسين، علموا أن ذلك الطير كان يخبر رسول اللّه بقتل ابن فاطمة البتول وقرة عين الرسول» (م. م، ج ٦، ص ٧٢ ـ ٧٣).

أدعو، رأيت محمد بن علي الرضا عليه السلام قد أقبل نحو القبر، فقلت له: واللّه إني أريد أن أسألك مسألة وإني واللّه لأستحي من ذلك. فقال لي: أنا أخبرك قبل أن تسألني، تسألني عن الإمام؟ فقلت له: هو هذا. فقال: أنا هو. فقلت: فعلامة تدلني عليك؟ وكان في يده عصا فنطقت وقالت: يا يحيى، إن إمام هذا الزمان مولاي محمد» (م. م، ج ٧، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣).

ج ـ **الإلغاء العجائبي للحواجز بين الحياة والموت**. فلئن تكن الأدبيات السنية المتأخرة قد اضطرت، على سبيل المنافسة مع المعجزات العيسوية، إلى أن تنسب إلى الرسول معجزتين أو ثلاثاً في إحياء الموتى، فإن الأدبيات الشيعية المتأخرة قد اضطرت هي أيضاً، ولكن على سبيل المنافسة مع المعجزات المحمدية نفسها، إلى أن تنسب إلى الأئمة معجزات إحيائية لا أكثر عدداً فحسب ـ بحكم كثرة تعداد الأئمة ـ بل أيضاً، وأساساً، أكثر عجائبية وغرائبية بكثير، وذلك على سبيل **إثبات كلية القدرة المطلقة التي بدونها يكفّ الإمام عن أن يكون إماماً**. فلئن يكن اللّه هو وحده الذي «يحيي ويميت»[(١٠)] فإن شركاءه في الصفات ـ إن لم يكن في الجوهر ـ الذين هم الأئمة لا بد أن يقاسموه هذا الاحتكار. وقد أمكننا أن نحصي في **مدينة المعاجز** نحواً من خمسين معجزة إحيائية[(١١)]. ولكن نظراً إلى أن هذه المعجزات ما كانت تحيي في كل مرة ميتاً واحداً، بل في بعض المرات سكان المقبرة بأسرهم، فإن تعداد من أحياهم الأئمة الاثنا عشر يتعدى المئات.

بعض هذه المعجزات «عادي»، أي ليس له من غرض سوى إحياء الميت، ولا من هدف سوى إثبات قدرة الإمام على الإحياء. من هذا القبيل ما روي عن الإمام الثاني الحسن بن علي من أنه «صار الناس إليه فقالوا له: أرنا

(١٠) في الإسلام القرآني على الأقل، حيث يرد هذا التعبير بحرفه في تسع آيات.

(١١) وهذا بدون أن ندرج معجزات إحياء الأموات من غير البشر، وهي عديدة، وأكثرها يدور حول إحياء بقرة حلوب لامرأة أرملة كانت تقيت من لبنها أطفالها، أو إحياء حمار رجل فقير كان يرتزق منه.

ما عندك من عجائب أبيك التي كان يريناها، قال: وتؤمنون؟ قال كلهم: نعم نؤمن واللّه. قال فأحيا لهم ميتاً، فقالوا جميعاً: نشهد بأنك ابن أمير المؤمنين حقاً»[١٢] (م. م، ج ٣، ص ٢٤٤).

ومن هذا القبيل أيضاً ما روي عن الإمام الثامن علي الرضا على لسان معبد بن حنبل الشامي: «قال: دخلت على علي بن موسى الرضا عليه السلام فقلت: قد كثر الخوض فيك وفي عجائبك، فلو شئت إتياني بشيء أحدثه عنك؟ فقال: وما تشاء؟ فقلت: تحيي لي أبي وأمي. فقال: انصرف إلى منزلك، فقد أحييتهما لك. فانصرفت واللّه وهما في البيت أحياء، فأقاما عندي عشرة أيام، ثم قبضهما اللّه» (م. م، ج ٥، ص ٢٤).

ومن هذا القبيل أيضاً ما روي عن الإمام الخامس أبي عبد اللّه جعفر الصادق على لسان داود الرقي: «قال: كنت عند أبي عبد اللّه عليه السلام إذ دخل عليه شاب يبكي وقال: إني نذرت أن أحجّ بأهلي، فلما دخلت المدينة ماتت. قال: اذهب فإنها لم تمت. قال: ماتت وسجّيتها. قال: اذهب فإنها لم تمت. فخرج ورجع ضاحكاً، وقال: دخلت عليها وهي جالسة. فقال عليه السلام: يا داود، أوَلم تؤمن؟ قلت: بلى، ولكن ليطمئن قلبي. فلما كان يوم التروية. . . مر الشاب ومعه المرأة، فقالت لزوجها: هذا الذي شفع إلى اللّه في إحيائي»[١٣] (م. م، ج ٥، ص ٣٩١ ـ ٣٩٢).

---

(١٢) وفي رواية أخرى أن من أحياه لم يكن أحداً آخر سوى أبيه، علي بن أبي طالب (م. م، ج ٣، ص ٢٥٨).

(١٣) تنسب إلى الصادق معجزة مشابهة، ولكن بدلاً من أن يحيي الزوجة الشابة هذه المرة، فقد أخّر موتها. فقد جاء إلى الصادق ـ وكان «عليه ثوبان ممصَّران» ـ رجل من شيعته يستنجد به وقد مرضت زوجته مرضاً شديداً حتى أشرفت على الموت. فطمأنه الصادق قائلاً: لا بأس عليها، فقد دعوت اللّه لها بالعافية، فارجع إليها فإنك تجدها قد أفاقت وهي قاعدة، والخادمة تلقمها الطبرزد [= السكر]. فلما رجع إليها وجدها قاعدة والخادمة تلقمها السكر، تماماً كما أنبأه الصادق. فتعجّب وسألها عما حدث فقالت: «خرجت من عندي وأنا أجود بنفسي، فدخل عليّ رجل عليه ثوبان ممصّران قال: ما لك؟ قلت: أنا ميتة، وهذا ملك =

ولكن قد لا تخلو معجزات إحياء الموتى من دلالة سياسية، ومنها معجزة إحياء الإمام الأول لأم فروة. فقد رُوي أن «امرأة من الأنصار قتلت تجنياً بمحبة علي عليه السلام يقال لها أم فروة، وكان علي غائباً. فلما وافى ذهب إلى قبرها ورفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم يا محيي النفوس بعد الموت، ويا منشئ العظام الدارسات بعد الموت، أَحْيِ لنا أم فروة واجعلها عبرة لمن عصاك، فإذا بهاتف قال: يا أمير المؤمنين امض لما سألت، فرفس قبرها وقال: يا أَمَة اللّه قومي بإذن اللّه، فخرجت أم فروة من القبر وبكت وقالت: أرادوا إطفاء نورك فأبى اللّه لنورك إلا ضياء، ولذكرك إلا ارتفاعاً، ولو كره الكافرون. فردها أمير المؤمنين إلى زوجها، وولدت بعد ذلك ولدين غلامين، وعاشت بعد أمير المؤمنين ستة أشهر» (م. م، ج ١، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣).

وفي سياق مماثل تُروى المعجزة الإحيائية التالية على لسان الأصبغ بن نباتة: «قال: مرّ مولاي أمير المؤمنين بمقبرة ونظر إلى القبور، فقال: أتحب أن أريك آية بإذن اللّه؟ قلت: نعم يا مولاي. فأشار بيده إلى قبر وقال: قم يا ميت، فقام شيخ وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، فقال صلى اللّه عليه وعلى آله: من أنت يا شيخ؟ فقال: أنا عمرو بن دينار الهمداني، إني قُتلت في واقعة الأنبار، قتلني أصحاب معاوية مع أمير الأنبار. فقال: اذهب إلى أهلك وأولادك وحدثهم بما رأيت، وقل لهم: إن علي بن أبي طالب قد أحياني بأمر اللّه وردني إليكم» (م. م، ج ١، ص ٢٤٣).

وتدور معجزات إحيائية علوية أخرى، لا في سياق الصراع الحربي مع معاوية، بل في سياق المنافسة السياسية مع الخليفتين الأول والثاني. فقد روي أن «يهودياً جاء إلى أبي بكر في ولايته وقال له: إن أبي قد مات وقد خلف

= الموت قد جاء يقبض روحي. فقال: يا ملك الموت، قال: لبيك أيها الإمام. قال: ألست أُمِرْتَ بالسمع والطاعة لنا؟ قال: بلى. قال: فإني آمرك أن تؤخر أمرها عشرين سنة. قال: السمع والطاعة. قالت: فخرج هو وملك الموت من عندي فأفقت من ساعتي» (م. م، ج ٥، ص ٣٨٩ ـ ٣٩١).

كنوزاً ولم يذكر أين هي، فإن أظهرتها كان لك ثلثها وللمسلمين ثلث آخر ولي ثلث، وأدخل في دينك. فقال أبو بكر: لا يعلم الغيب إلا اللّه. فجاء إلى عمر، فقال له مقالة أبي بكر. ثم دله على علي فجاء فسأله، فقال له: رح إلى بلد اليمن واسأل عن وادي برهوت بحضرموت، فاهتف باسم أبيك وقل له: يا فلان أنا رسول وصي رسول اللّه إليك كلمني، فاسأله عن الكنوز، فإنه يدلك على أماكنها». ففعل اليهودي كما طلب منه، وعاد من اليمن بكنز من الذهب وكنز من الفضة، وجاء إلى «أمير المؤمنين عليه السلام وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً رسول اللّه، وأنك وصي رسول اللّه وأخوه، وأمير المؤمنين حقاً كما سُمِّيت، وهذه الهدية فاصرفها حيث شئت» (م. م، ج ٢، ص ٤٦ ـ ٤٧).

وفي هذا السياق تندرج أخيراً آخر معجزة «إحياء أموات» يرد ذكرها في **مدينة المعاجز**، وهي معجزة إحيائية جماعية يُحيا فيها لا ميت واحد بل خمسون، وهذا في سياق اشتداد القمع العباسي للشيعة الإماميين في عهد المتوكل الذي كان فرض الإقامة الجبرية في عسكر سر من رأى على عاشر الأئمة علي بن محمد النقي. فعلى لسان «إبراهيم بن بلطون عن أبيه قال: كنت أحجب المتوكل، فأُهْدِيَ له خمسون غلاماً من الخزر، وأمرني أن أتسلمهم وأحسن إليهم، فلما تمت سنة كاملة كنت واقفاً بين يديه، إذ دخل عليه أبو الحسن علي بن محمد النقي عليه السلام، فلما أخذ مجلسه أمرني أن أخرج الغلمان من بيوتهم، فأخرجتهم، فلما بصروا بأبي الحسن عليه السلام سجدوا له بأجمعهم، فلم يتمالك المتوكل أن قال: ويلك يا بلطون، ما هذا الذي فعل هؤلاء الغلمان؟ فقلت: واللّه ما أدري. قال: سلهم. فسألتهم عما فعلوه، فقالوا: هذا رجل يأتينا كل سنة فيعرض علينا الدين، ويقيم عندنا عشرة أيام، وهو وصي نبي المسلمين(١٤). فأمرني بذبحهم، فذبحتهم عن

(١٤) لنلاحظ أننا هنا أمام معجزة داخل معجزة. فالنقي كان سجين الإقامة الجبرية، ومع ذلك كان =

آخرهم. فلما كان وقت العتمة صرت إلى أبي الحسن. . . فقال: يا بلطون ما صنع القوم؟ فقلت: يا بن رسول اللّه ذُبحوا، واللّه، عن آخرهم، فقال لي: كلهم؟ فقلت: أي واللّه، فقال: أتحب أن تراهم؟ قلت نعم يا بن رسول اللّه، فأومأ بيده أن أدخل الستر فدخلت، فإذا أنا بالقوم قعود وبين أيديهم فاكهة يأكلون»[(١٥)] (م. م، ج ٧، ص ٤٩١ ـ ٤٩٢).

وهناك بعد ذلك طراز ثالث من المعجزات الإحيائية يتمثل بإحياء مشاهير الأنبياء وأبطال التاريخ الأسطوريين ليشهدوا بإمامة الإمام. ويجد هذا الطراز نموذجه في إحياء علي بن أبي طالب لسام بن نوح، ومن بعده لسليمان بن داود. والفارق بين هاتين المعجزتين أن أولاهما تتم بحضور الرسول نفسه وبأمر منه. ففي رواية ينقلها مصنف **مدينة المعاجز** عن عدة مصادر شيعية أن «جماعة من اليمن أتوا وبأيديهم صحف إلى النبي (ص) فقالوا: نحن بقايا الملك المقدّم من آل نوح، وكان لنبينا وصي اسمه سام، وأخبر في كتابه أن لكل نبي معجزاً، وله وصي يقوم مقامه، فمن وصيك؟ فأشار (ص) بيده نحو علي عليه السلام، فقالوا: يا محمد، إن سألناه أن يرينا سام بن نوح فيفعل؟ فقال (ص): نعم بإذن اللّه، وقال: يا علي قم معهم إلى داخل المسجد

= يبارح مقامه بطريقة خفائية كل سنة ويقيم عند الغلمان الخزر عشرة أيام يعلمهم الدين، ثم يعود من حيث جاء بدون أن يدري أحد بغيبته وعودته، وكأنه كان يُسرى به.

(١٥) تطالعنا **مدينة المعاجز** بنموذج آخر من معجزات الإحياء الجماعي يتمثل لا بإحياء البشر، بل بإحياء صنوف الحيوان. فعلى لسان سلمان الفارسي أن الإمام الأول استنزل من السماء جماعة من طيور الباز والصقر والغراب والطاووس، ثم أمر سلمان قائلاً: «يا سلمان اذبحهم وانتف ريشهم وقطِّعهم إرباً إرباً واخلط لحومهم». ففعل سلمان كما أمر متحيراً ثم «قال: يا مولاي أطيار تطير في الهواء لم أعرف لها ذنباً، أمرتني بذبحها! قال: يا سلمان أتريد أن أحييها الساعة؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. فنظر إليها شزراً وقال: طيري بقدرة اللّه، فطارت الطيور جميعاً. فتعجبت من ذلك، فقال: يا سلمان لا تعجب من أمر اللّه، فإنه قادر على ما يشاء، فعّال لما يريد، وأنا عبد اللّه وخليفته، أمري أمره، ونهيي نهيه، وقدرتي قدرته» (م. م، ج١، ص ٢٨٦).

واضرب برجلك الأرض عند المحراب، فذهب علي وضرب برجله على الأرض، فانشقت الأرض وظهر لحد وتابوت، فقام من التابوت شيخ يتلألأ نور وجهه مثل القمر ليلة البدر، ونفض التراب من رأسه، وله لحية إلى سرته، وصلى على عليّ وقال: أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً رسول اللّه سيد المرسلين، وأنك علي وصي محمد سيد الوصيين، أنا سام بن نوح. فنشروا صحفهم فوجدوه كما وصفوه في صحفهم» (م. م، ج ١، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤).

أما الرواية الثانية عن إحياء سليمان بن داود فتأتي في سياق معجزة متعددة الحلقات مروية على لسان سلمان الفارسي: «قال: كنا جلوساً مع أمير المؤمنين بمنزله لما بويع عمر بن الخطاب، قال: كنت أنا والحسن والحسين ومحمد بن الحنفية[١٦] ومحمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر والمقداد بن الأسود الكندي، فقال له ابنه الحسن: يا أمير المؤمنين إن سليمان سأل ربه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه ذلك، فهل ملكت مما ملك سليمان بن داود؟ فقال عليه السلام: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إن سليمان سأل اللّه الملك فأعطاه، وإن أباك ملك ما لم يملكه بعد جدك رسول اللّه أحد قبله ولا يملكه أحد بعده. فقال الحسن: نريد ترينا مما فضلك اللّه به من الكرامة. فقام أمير المؤمنين فتوضأ وصلى ركعتين ودعا اللّه عز وجل **بدعوات لم يفهمها أحد**، ثم أومأ إلى جهة المغرب، فما كان بأسرع من أن جاءت سحابة

(١٦) لنلاحظ أن صانعي أخبار المعجزات لا يعنون كثيراً بشروط المطابقة للواقع التاريخي. فمعلوم أن محمد بن الحنفية ـ كما يدل اسمه ـ هو ابن علي من جارية من بني حنيفة سُبيت في وقعة اليمامة في آخر السنة الثانية عشرة للهجرة. ومعلوم أيضاً أن عمر بن الخطاب بويع بالخلافة في السنة الثالثة عشرة للهجرة. وعلى هذا فإن محمد بن الحنفية ما كان له، يوم بويع عمر، أن يكون قد رأى النور. وعلى أي حال، فإن المصادر التاريخية ترجح أن مولده كان في السنة السادسة عشرة للهجرة، أي بعد بيعة عمر بثلاث سنوات على الأقل، إن لم يكن بعد سبع سنوات طبقاً لمصادر أخرى.

ثم سحابة أخرى. فقال أمير المؤمنين: أيتها السحابة اهبطي بإذن اللّه، فهبطت وهي تقول: أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه وأنك خليفته ووصيه، من شكّ فيك فقد هلك سبيل النجاة. ثم انبسطت السحابة إلى الأرض حتى كأنها بساط موضوع، فقال أمير المؤمنين: اجلسوا على الغمامة، فجلسنا وأخذ مواضعنا، فأشار إلى السحابة الأخرى فهبطت وهي تقول كمقالة الأولى، وجلس أمير المؤمنين عليها، **ثم تكلم بكلام** وأشار إليها بالمسير نحو المغرب، وإذا بالريح قد دخلت السحابتين فرفعتهما رفعاً رفيقاً، فتمايلت نحو أمير المؤمنين وإذا به على كرسي من نور والنور يسطع من وجهه يكاد يخطف الأبصار(١٧). . . وقال عليه السلام: أتحبون أن أريكم خاتم سليمان بن داود؟ فقلنا: نعم، فأدخل يده إلى جيبه فأخرج خاتماً من ذهب، فصّه من ياقوتة حمراء، عليه مكتوب: محمد وعلي. . . وقال عليه السلام: تريدون أن أريكم سليمان بن داود؟ فقلنا: نعم، فقام ونحن معه، فدخل بنا بستاناً ما رأينا أحسن منه، وفيه من جميع الفواكه والأعناب، وأنهاره تجري. . . وإذا سرير عليه شاب ملقى على ظهره، واضع يده على صدره، فأخرج أمير المؤمنين الخاتم من جيبه وجعله في إصبع سليمان فنهض قائماً وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ووصيّ رب العالمين، أنت واللّه الصديق الأكبر والفاروق الأعظم، قد أفلح من تمسك بك وخسر وخاب من تخلف عنك، وإني سألت اللّه بكم أهل البيت فأُعطيت ذلك الملك. قال سلمان: فلما سمعنا كلام سليمان بن داود لم أتمالك نفسي حتى وقعت على أقدام أمير المؤمنين أقبّلها» (م. م، ج ١، ص ٢٤٥ _ ٢٤٦).

ولكن المعجزات الإحيائية لا تقتصر على إحياء الأنبياء الماضين وحدهم. فظروف الصراع السياسي بين السنة والشيعة على الخلافة، وظروف الصراع الداخلي في صفوف الشيعة على الإمامة، قد استدعت إحياء الرسول نفسه _

---

(١٧) عديدة هي، في الأدبيات الشيعية، معجزات امتطاء الأئمة للسحب.

ومن بعده علي أيضاً ـ ليدلي بشهادته لصالح هذا الإمام أو ذاك. وقد تقدم بنا بيان معجزة إحياء علي للرسول ليشهد له ضد أبي بكر، وكذلك بيان معجزة إحياء الحسن لأبيه علي ليشهد له ببنوته وإمامته معاً.

والحال أن الحسن هذا نفسه هو من سيضطر إلى إحياء الرسول لا ليشهد له هذه المرة بحقه في الإمامة، بل ليبرر له تنازله عن الإمامة. وقد ساق مصنف **مدينة المعاجز** أكثر من رواية عن إحياء الحسن للرسول لتبرير تنازله عن الخلافة لصالح معاوية بن أبي سفيان، ومنها هذه الرواية على لسان جابر بن عبد اللّه: «قال: لما وقع عليه [= الحسن] من أصحابه(١٨) ما وقع، وألجأه ذلك إلى مصالحة معاوية، فصالحه واشتد ذلك على خواص أصحابه، فكنت أحدهم فجئته وعذلته. فقال: يا جابر لا تعذلني، وصدق رسول اللّه في قوله: «إن ابني هذا سيد، وإن اللّه يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»(١٩). فكأنه لم يشف ذلك صدري، فقلت: لعل هذا شيء يكون بعد، وليس هذا هو الصلح مع معاوية، فإن هذا هلاك المؤمنين وإذلالهم. فوضع يده على صدري وقال: شككت وقلت كذا؟ قال: أتحب أن أستشهد رسول اللّه (ص) الآن حتى تسمع منه؟ فعجبت من قوله، وسمعت هدّة، وإذا الأرض من تحت أرجلنا قد انشقت، وإذا رسول اللّه (ص) وعلي وجعفر وحمزة قد خرجوا منها، فوثبت فزعاً مذعوراً، فقال الحسن: يا رسول اللّه هذا جابر وقد عذلني بما قد علمت، فقال النبي (ص): يا جابر إنك لا تكون مؤمناً حتى تكون لأئمتك مسلِّماً ولا تكون عليهم برأيك معترضاً، سلّم لابني الحسن ما فعل، فإن الحق فيه، إنه دفع عن خيار المسلمين الاصطلام بما فعل، وما كان من

---

(١٨) إذ خذلوه ونكثوا عهودهم وآثروا القعود على مناصرته.

(١٩) كنا رأينا أن حديث إصلاح ذات البين بين فئتين عظيمتين من المسلمين متداول على سعة في الأدبيات السنية للإشادة بموقف الحسن في موادعته لمعاوية، وبالتالي لتكريس شرعية استئثار معاوية بالخلافة. وبديهي أن الأدبيات الشيعية إذ تعتمد الحديث نفسه فإنما لتبرر موقف الحسن التصالحي، لا لتشرعن الانقلاب الأموي.

فعله إلا عن أمر اللّه تعالى وأمري»[٢٠] (م. م، ج ٣، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٨).

ولكن الإشكال الذي أحاط بموقف الحسن التصالحي هذا ما لبث أن تضاعف عندما قرر أخوه الحسين أن ينتقل من المصالحة إلى المواجهة وأن يخرج إلى العراق للقتال إحقاقاً لحقه في الخلافة. ولكن هذه المرة أيضاً كان لا بد أن يتدخل الرسول، من خلال معجزة إحيائية أخرى، ليبرر هذا التحول الانقلابي في السياسة الإمامية. فعن جابر بن عبد اللّه أيضاً: «قال: لما عزم الحسين بن علي عليه السلام على الخروج إلى العراق أتيته فقلت له: أنت ولد رسول اللّه وأحد سبطيه، لا أرى إلا أنك تصالح كما صالح أخوك الحسن، فإنه كان موفقاً رشيداً. فقال لي: يا جابر قد فعل ذلك أخي بأمر اللّه تعالى ورسوله، وإني أيضاً أفعل بأمر اللّه تعالى وأمر رسوله، أتريد أن أستشهد رسول اللّه وأبي وأخي كذلك الآن؟ ثم نظرت فإذا السماء قد انفتح بابها، وإذا رسول اللّه وعلي أمير المؤمنين والحسن والحسين وحمزة وجعفر وزيد نازلون عنها حتى استقروا على الأرض، فوثبت فزعاً مذعوراً، فقال لي رسول اللّه: يا جابر، ألم أقل لك في أمر الحسن قبل الحسين: إنك لا تكون مؤمناً حتى تكون لأئمتك مسلّماً ولا تكون معترضاً؟ ثم قبض رسول اللّه على يد الحسين وقال: يا جابر هذا ولدي معي ها هنا، فسلِّم له أمره ولا تشكّ لتكون مؤمناً»[٢١] (م. م، ج ٣، ص ٧٤ ـ ٧٥).

---

(٢٠) الواقع أن مصالحة الحسن لمعاوية كانت أثارت شكوكاً وأسئلة استفهام جذرية في صفوف أنصاره، حتى وجد بينهم من ينعته بأنه «مذل المؤمنين». والأدبيات الإمامية حافلة بالقرائن على ذلك. وقد أورد مصنف **مدينة المعاجز** نفسه عدة أخبار تبرر اضطرار الحسن إلى المصالحة بتخلف الناس عنه وبغدر قادته وانقلابهم عليه بعد أن رشاهم معاوية بالمال وبالوعد بالمناصب. كما أورد للحسن عدة أقوال يندد فيها بتخلف شيعته رامياً إياهم بالحرف الواحد بأنهم «عبيد الدنيا»، و«لا حياء لهم ولا دين» و «لا وفاء لهم ولا خير»، و«لا يفون بعهد» و «يغدرون مرة بعد أخرى». (م. م، ج ٣، ص ٤٠١ ـ ٤٠٦).

(٢١) إن واحدة من أغرب المعجزات التبريرية هي تلك التي تنسب إلى علي بن أبي طالب بخصوص إنكاحه عمر بن الخطاب بنته من فاطمة، أم كلثوم. فهذا الزواج غدا «لامعقولاً» =

د ـ الحسم العجائبي للخلافات الإمامية. عدا ظروف القمع الخارجي، الأموي والعباسي على السواء، واجهت الدعوة الإمامية خلافات وانقسامات داخلية شتى ساهمت في إضعافها وتأبيد عجزها عن تغيير الأمر الواقع، ولا سيما أن القيادات الأموية والعباسية الفاعلة عرفت كيف تستغلها. وإزاء الظاهرة الانقسامية التي واجهتها الدعوة الإمامية كان لا بد هنا أيضاً أن يتدخل منطق المعجزة ويؤدي دوره في تزييف إمامة الأئمة «الزائفين» وإحقاق إمامة الأئمة «الحقيقيين». وقد كان أول انقسام خطير دبّ في صفوف الإماميين تمثّل بـ «خروج» محمد بن الحنفية. فبعد مقتل الحسين سعى أخوه غير الشقيق محمد بن الحنفية إلى تنصيب نفسه إماماً رابعاً بدلاً من ابن أخيه زين العابدين علي بن الحسين الذي كان نجا من مذبحة كربلاء. وبالفعل، كانت الإمامة لا تزال قابلة في حينه لأن تُتوارث بالأخوّة، وليس فقط بالبنوّة، بدليل أيلولتها، بعد وفاة الإمام الثاني الحسن بن علي إلى أخيه الشقيق الحسين بن علي. فقد أجاز الإماميون الوراثة الأخوية في أول الأمر، وذلك ما دام الحسن والحسين

= منذ أن تحول عمر بن الخطاب إلى عدو مؤبلس لحميه علي بن أبي طالب. ومن هنا اختلقت المعجزة التالية: «قيل لأبي عبد اللّه [= جعفر الصادق]: إن الناس يحتجون علينا ويقولون إن أمير المؤمنين زوّج فلاناً ابنته أم كلثوم، وكان متكئاً فجلس وقال: وتقبلون أن علياً أنكح فلاناً بنته؟! إن أقواماً يزعمون ذلك لا يهتدون إلى سواء السبيل. وصفق بيديه وقال: سبحان اللّه! أما كان أمير المؤمنين يقدر أن يحول بينه وبينها فينقذها؟ كذبوا، لم يكن ما قالوا، وإن فلاناً خطب إلى علي بنته أم كلثوم فأبى علي، فقال الرجل للعباس: واللّه لئن لم يزوجني لأنتزعن منك السقاية وزمزم. فأتى العباس علياً وكلمه، فأبى عليه، فألح العباس، فلما رأى أمير المؤمنين مشقة كلام الرجل على العباس وأنه سيفعل بالسقاية ما قال، أرسل إلى جنية من أهل نجران يهودية، يقال لها سحيقة بنت حريرية، فأمرها فتمثلت في مثال أم كلثوم، وحُجبت الأبصار عن أم كلثوم، وبعث بها إلى الرجل فلم تزل عنده حتى أنه استراب بها يوماً فقال: ما في الأرض أهل بيت أسحر من بني هاشم. ثم أراد أن يظهر ذلك للناس فقُتل، وحوت الميراث وانصرفت إلى نجران. وأظهر أمير المؤمنين عليه السلام أم كلثوم» (م. م، ج ٣، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣). ولنلاحظ أن راوية المعجزة يتحاشى حتى أن يذكر اسم عمر بن الخطاب، فيسميه تارة «فلاناً» وتارة «الرجل».

متحدّرين من صلب فاطمة بنت الرسول، ولكنهم جعلوها بعد ذلك بنوية، وشرطوها بالنص من قبل الإمام الأب الذي يعود إليه وحده أن يعين بالوصية من يراه أهلاً من أبنائه ليخلفه. ومما زاد في خطورة المنافسة التي مثلها محمد بن الحنفية، غير المتحدّر من صلب فاطمة، أنها تواقتت مع خروج المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي أحرز في حينه انتصارات باهرة في العراق على الأمويين وقتل قَتَلَة الحسين ودعا، أو تظاهر بالدعوة، إلى محمد بن الحنفية. وهذا في الوقت الذي بقي فيه الإمام الشرعي الرابع، زين العابدين علي بن الحسين، أسير العجز في المدينة التي ما كادت تخرج منهوكة من وقعة الحرة التي تمخضت عن استباحتها من قبل جند الأمويين حتى وقعت تحت سيطرة الزبيريين الذين ما كانوا يقلّون عداء للإماميين عن الأمويين. وكان لا مناص لهذا التنافس على الإمامة بين الأخ وابن الأخ من أن يجد انعكاساً في أدبيات المعجزات. وهكذا يروي مصنف **مدينة المعاجز** عن ثوير بن سعيد: «قال: «دخل محمد بن الحنفية على زين العابدين، فرفع يده فلطمه وهو في عينه صغير، ثم قال: أنت الذي تدعي الإمامة! فقال له علي بن الحسين: اتق اللّه ولا تدعين ما ليس لك. فقال: هي واللّه لي. فقال له علي بن الحسين: قم بنا نأتي المقابر حتى يتبين لي ولك؟ فذهبا حتى انتهيا إلى قبر طري، فقال له: هذا ميت قريب العهد بالموت، سله عن خبرك، فإن كنت إماماً أجابك. فقال له محمد بن الحنفية: لا أستطيع أن أفعل ذلك. قال: فدعا علي بن الحسين صاحب القبر، فخرج ينفض التراب عن رأسه وهو يقول: الحق لعلي بن الحسين دونك. قال: فأقبل محمد بن الحنفية وانكب على رِجْل علي بني الحسين يقبلها، ويقول استغفر لي» (م. م، ج٤، ص ٤١٨ ـ ٤١٩).

وفي رواية أخرى عن أبي جعفر الباقر: «قال: لما قتل الحسين بن علي أقبل محمد بن الحنفية إلى علي بن الحسين فقال له: ما الذي فضلك عليّ وأنا أكثر رواية وأسنّ منك؟ قال: كفى باللّه شهيداً يا عمي. فقال له محمد بن الحنفية: أحَلتَ على غائب. قال: وكان في دار علي بن الحسين شاة حلوب

فقال: اللهم أنطقها! فقالت الشاة: يا علي بن الحسين، إن اللّه استودعك علمه ووحيه. فصفق محمد بن الحنفية على وجهه ثم قال: أدركني، أدركني يا ابن أخي» (م. م، ج ٤، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠).

وفي رواية أخرى عن الباقر أيضاً أنه «لما قتل الحسين أرسل محمد بن الحنفية إلى علي بن الحسين فخلا به وقال له: يا بن أخي، قد علمت أن رسول اللّه دفع الوصية والإمامة من بعده إلى أمير المؤمنين، ثم إلى الحسن، ثم إلى الحسين، وقد قتل أبوك ولم يوص، وأنا عمك وصنو أبيك، وولادتي من علي، وفي سني وقدمتي، وأنا أحق بها منك في حداثتك، فلا تنازعني في الوصية والإمامة، ولا تحاجّني. فقال له علي بن الحسين: يا عم اتق اللّه، ولا تدَّع ما ليس لك بحق. . . إن اللّه جعل الوصية والإمامة في عقب الحسين، فإذا أردت أن تعلم ذلك، فانطلق بنا إلى الحجر الأسود حتى نتحاكم إليه، ونسأله عن ذلك[٢٢]. قال أبو جعفر عليه السلام: وكان الكلام بينهما بمكة، فانطلقا حتى أتيا الحجر الأسود، فقال علي بن الحسين لمحمد بن الحنفية: ابدأ أنت فابتهل إلى اللّه أن ينطق لك الحجر، ثم سل. فابتهل محمد بن الحنفية في الدعاء، وسأل اللّه، ثم دعا الحجر فلم يجبه، فقال علي بن الحسين: يا عم لو كنت وصياً وإماماً لأجابك. قال له محمد: فادع اللّه أنت يا بن أخي وسله. فدعا اللّه علي بن الحسين بما أراد. . . فتحرك الحجر حتى كاد أن يزول عن موضعه، ثم أنطقه اللّه بلسان عربي مبين فقال: اللهم إن الوصية والإمامة بعد الحسين بن علي إلى علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وبن فاطمة بنت رسول اللّه. قال: فانصرف محمد بن علي وهو يتولى علي بن الحسين» (م. م، ج ٤، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩).

---

(٢٢) في صيغة أخرى للرواية نفسها، ولكن على لسان جعفر الصادق، يزيد الطبري الصغير التفصيل التالي: «فتشاجرا ساعة، فقال علي بن الحسين: بمن ترضى يكون بيننا حكماً؟ فقال محمد: من شئت. قال: أترضى أن يكون بيننا الحجر الأسود؟ فقال محمد: سبحان اللّه، أدعوك إلى الناس وتدعوني إلى حجر لا يتكلم؟» (**دلائل الإمامة**، ص ٢٠٣).

والواقع أن المنافسة التي مثّلها محمد بن الحنفية ما كانت تنحصر آثارها بالصراع المباشر بين الأخ وابن الأخ، بل كان لها أيضاً امتداد إلى ما بعد وفاتهما كليهما. ذلك أن أنصار ابن الحنفية أبوا الاعتراف بموته ـ الذي تجمع المصادر على أنه كان سنة ٨١ للهجرة ـ وقالوا إنه حي في جبل رضوى ـ حيث استتر ـ لم يمت ولا يموت، وأنه لا بد أن يعود إلى الظهور ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً(٢٣). وبمعنى آخر، كان محمد بن الحنفية في نظر أتباعه ـ ويدعون بالكيسانية ـ هو **المهدي المنتظر** وهذا قبل أن تكرس عقيدة المهدي المنتظر في الإمامية الاثني عشرية على إثر «غيبة» ثاني عشر الأئمة محمد بن الحسن المهدي. وليس تخفى خطورة مثل هذه الدعوة: فهي تعني بتر سلسلة الأئمة ووقفها عند محمد بن الحنفية كإمام رابع وأخير، مما يعني إلغاء الإمامية الاثني عشرية من أساسها. ومن هنا كان ينبغي أن يتدخل برهان المعجزة لا ليكرس شرعية إمامة زين العابدين علي بن الحسين فحسب، بل كذلك شرعية كل السلسلة الإمامية من بعده وصولاً إلى المهدي المنتظر «الحقيقي». وعلى هذا النحو سيتم، من خلال معجزة سيأتيها جعفر الصادق حفيد زين العابدين، إحياء محمد بن الحنفية بشخصه ليشهد بلسان نفسه أن الإمام من بعد الحسين هو ابنه علي، ومن بعده ابن ابنه محمد الباقر، ثم ابن ابن ابنه جعفر الصادق. والمعجزة مروية على لسان السيد إسماعيل بن محمد الحميري، الشاعر الذي كان كيساني المنزع قبل أن «يتجعفر». قال: «كنت أقول بالغلو وأعتقد غيبة محمد بن الحنفية، وقد ضللت في ذلك زماناً،

(٢٣) يبدو أن أسطورة ابن الحنفية المستتر في جبل رضوى، الواقع بين مكة والمدينة، ما زالت سارية المفعول إلى اليوم، مع العلم بأن أقدم صياغة معروفة لدينا لها هي تلك التي أوردها النوبختي ـ وهو من أعلام الإمامية في القرن الثالث الهجري ـ في كتابه **فرق الشيعة**: «وفرقة قالت إن محمد بن الحنفية حي لم يمت وإنه مقيم بجبال رضوى تغذوه الآرام، تغدو عليه وتروح، فيشرب من ألبانها ويأكل من لحومها، وعن يمينه أسد وعن يساره أسد، يحفظانه إلى أوان خروجه ومجيئه وقيامه، وهو عندهم الإمام المنتظر الذي بشّر به النبي (ص) أنه يملأ الأرض عدلاً وقسطاً» (**فرق الشيعة**، ص ٢٩).

فمنّ اللّه علي بالصادق جعفر بن محمد عليه السلام فأنقذني من النار وهداني إلى سواء الصراط. . . [فقد] دخلت عليه وقلت: يا بن رسول اللّه بلغني أنك قلت فيّ «إنه ليس على شيء»، وأنا قد أفنيت عمري في محبتكم وهجرت الناس فيكم، فقال: ألست القائل في محمد بن الحنفية:

حتى متى وإلى متى وكم المدى
يا بن الوصيّ وأنت حيّ ترزقُ
تثوي برضوى لا تزال ولا ترى
وبنا إليك من الصبابة أولقُ
إنّي لآمل أن أراك وإنني
من أن أموت ولا أراك لأفرقُ(٢٤)

وأن محمد بن الحنفية قام بشعب رضوى أسد عن يمينه ونمر عن شماله، يؤتى برزقه بكرة وعشية، ويحك، إن رسول اللّه (ص) وعلياً والحسن والحسين عليهم السلام كانوا خيراً منه وقد ذاقوا الموت. قلت: فهل لك على ذلك من دليل؟ قال: نعم، إن أبي أخبرني أنه قد كان صلى عليه وحضر دفنه وأنا أريك آية، فأخذ [ني] بيده ومضى [بي] إلى قبر وضرب بيده عليه، فانشق القبر عن رجل أبيض الرأس واللحية، فنفض التراب عن رأسه ووجهه يقول: أنا محمد بن الحنفية، إن الإمام بعد الحسين علي بن الحسين، ثم محمد بن علي [= الباقر]، ثم هذا [= الصادق]. ثم أدخل رأسه في القبر وانضم عليه القبر، وقال إسماعيل بن محمد عند ذلك:

---

(٢٤) الأولق: شدة الحب حتى الجنون. والواقع أن السيد الحميري كانت له اليد الطولى في إذاعة أسطورة «نزيل رضوى». فقد تعددت قصائده في ابن الحنفية وفي بقائه حياً لا يموت، وفي حتمية أوبته بعد غيبته، ومنها:

يا شِعْب رضوى ما لمن بك لا يرى — حتى متى تخفى وأنت قريبُ
يا ابن الوصيّ ويا سميّ محمّدٍ — وكنيّه نفسي عليك تذوبُ
لوغاب عنا عُمْرَ نوحٍ أيقنتْ — منا النفوس بأنّه سيؤوبُ

تـجـعـفـرتُ بـاسـم الـلّـه والـلّـه أكـبـرُ
وأيـقـنـتُ أن الـلّـه يـعـفـو ويـغـفـرُ
ودنـت بـديـنٍ غـيـر مـا كـنـت دائـنـاً
بـه ونـهـانـي سـيـد الـنـاس جـعـفـرُ
فـلـسـت بـغـالٍ مـا حـيـيـت وراجـع
إلـى مـا عـلـيـه كـنـت أخـفـي وأُضـمـرُ
ولا قـائـلاً حـيّ بـرضـوى مـحـمّـدٌ
وإن عـاب جـهّـالٌ مـقـالـي وأكـثـروا»(٢٥)

وكل ما قلناه عن المنافسة بين محمد بن الحنفية وعلي بن الحسين يمكن أن نقوله أيضاً عن المنافسة بين زيد بن علي ومحمد بن علي. فمعلوم أنه وجدت بين الإماميين فرقة تقول إن الإمامة ليست بالوراثة ولا بالوصية، بل لمن يستحقها من ولد علي ويثبت استحقاقه لها بخروجه على الظالمين وبدعوته إلى نفسه. ومن هذه الفرقة تشعبت صنوف الزيدية الذين انتحلوا «أمر زيد بن علي بن الحسين»، وذلك لا لشيء إلا لأن هذا الأخير بادر إلى الخروج في الكوفة على السلطة الأموية، في حين أن أخاه غير الشقيق محمد بن علي بن الحسين، الذي آلت إليه الإمامة «الشرعية» بعد موت أبيه زين العابدين علي بن الحسين، آثر الانصراف إلى العلم [= الحديث] بدل السياسة ـ ومن هنا لقب بالباقر، أي «باقر العلم»(٢٦). بل إن فريقاً من الزيديين،

---

(٢٥) م. م، ج ٥، ص ٣٧٣ ـ ٣٧٧. وفي إضافة للرواية نفسها أن الشاعر الحميري ـ الذي كان يعتقد بغيبة ابن الحنفية ـ سأل الإمام الصادق بالمناسبة نفسها عن حقيقة الغيبة وبمن يكون وقوعها، فأجابه مؤكداً على تمامية السلسلة الاثني عشرية: «إن الغيبة ستقع بالسادس من ولدي، وهو الثاني عشر من الأئمة الهداة بعد رسول اللّه (ص)، أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وآخرهم القائم بالحق، بقية اللّه في الأرض، وصاحب الزمان، واللّه لو بقي في غيبته ما بقي نوح في قومه، يظهر فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً» (م. م، ج ٥، ص ٣٧٧).

(٢٦) في الواقع، قد يكون ثمة سبب آخر لاعتدال الباقر، وهو أن إمامته تواقتت مع تولي عمر بن =

يسميهم النوبختي بـ«الأقوياء» تمييزاً لهم من «الضعفاء»، ذهبوا إلى أبعد من ذلك وقالوا: ليس فقط إن الإمامة واجبة لكل «من قام ودعا لنفسه» من ولد علي، بل أيضاً ـ وفي هذا تلميح مباشر إلى الباقر ـ إن كل «من ادعى منهم الإمامة وهو قاعد في بيته، أرخى عليه ستره، فهو كافر ومشرك»، وكافر ومشرك أيضاً «كل من اتبعه على ذلك وكل من قال بإمامته»[٢٧]. ومن هنا كان لا بد أن يتدخل «برهان» المعجزة، تماماً كما في حالة محمد بن الحنفية، لحسم المنافسة لصالح خامس الأئمة، محمد بن علي الباقر، ومن بعده جعفر بن محمد الصادق، وإعادة الأمور إلى نصابها الشرعي في سياق السلسلة الإمامية الإثني عشرية. والمعجزة التي أتاها الباقر بهذا الخصوص لا تتعدى التنبؤ بقتل زيد وصلبه في الكناسة[٢٨]. ولكن السياق الذي جرت فيه هذه المعجزة التنبؤية يشف غاية الشفافية عن طبيعة الصراع الذي نشب بين الأخوين غير الشقيقين، كما عن ميل الأول ـ محمد بن علي ـ إلى المهادنة باعتبار الإمامة في نظره وصية ووراثة، وميل الثاني ـ زيد بن علي ـ إلى انتضاء السلاح باعتبار الإمامة في نظره جهاداً. فتحت عنوان: **المعجز الثامن والأربعون: إخباره عليه السلام أخاه زيداً أنه يصلب بالكناسة**، يورد مصنف

= عبد العزيز الخلافة. فهذا الخليفة الأموي، الذي عاش الشطر الأكبر من حياته في المدينة ـ المقام التقليدي للأئمة ـ كان متعاطفاً إلى حد غير قليل مع آل الرسول وبني هاشم. وقد أمر، حال تسلمه سدة الخلافة في دمشق، بالكف عن لعن علي بن أبي طالب على المنابر، وبردّ فدك إلى أحفاد فاطمة.

(٢٧) الحسن بن موسى النوبختي: **فرق الشيعة**، تصحيح السيد محمد صادق آل بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، النجف ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م، ص ٥٤.

(٢٨) بعد مقتل الإمام زيد في المواجهة مع الجند الأمويين نبش قبره واستخرج جثمانه، ففصل رأسه عن جسده، وبُعث به إلى الشام، فأمر هشام بن عبد الملك بأن يطاف به في البلدان ليكون عبرة. وقد نصب الرأس في المدينة أمام قبر الرسول، ثم في الجامع الأعظم في مصر قبل أن يؤخذ ويدفن سراً. أما الجسد فصُلب في كناسة الكوفة عارياً فجاءتَ العنكبوت ـ في معجزة ـ تنسج الخيوط على عورته لتسترها، وكلما أزاحوا تلك الخيوط جاءت لتنسج غيرها.

مدينة المعاجز الرواية التالية: «دخل زيد بن علي بن الحسين عليه السلام على أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام ومعه كتب من أهل الكوفة يدعونه فيها إلى أنفسهم ويخبرونه باجتماعهم ويأمرونه بالخروج، فقال له أبو جعفر: هذه الكتب ابتداء منهم أو جواب ما كتبت به إليهم ودعوتهم إليه؟ فقال: بل ابتداء من القوم لمعرفتهم بحقنا وبقرابتنا من رسول اللّه، ولما يجدونه في كتاب اللّه من وجوب مودتنا وفرض طاعتنا، ولما نحن من الضيق والضنك والبلاء، فقال له أبو جعفر: إن أمر اللّه يجري لأوليائه بحكم موصول وقضاء مفصول، وقدر مقدور وأجل مسمى لوقت معلوم، فلا تعجل فإن اللّه لا يعجل لعجلة العباد، ولا تسبقن اللّه، فتعجلك البلية فتصرعك. فغضب زيد عن ذلك، ثم قال: **ليس الإمام منا من جلس في بيته وأرخى ستره وثبط عن الجهاد، ولكن الإمام منا من منع حوزته وجاهد في سبيل اللّه حق جهاده، ودفع عن رعيته وذبّ عن حريمه**[٢٩]. قال أبو جعفر: إن كنت على بيِّنة من ربك ويقين من أمرك فشأنك، وإلا فلا ترومن أمراً أنت منه في شك وشبهة، ولا تتعاط زوال ملك لم ينقضِ أُكُله ولم ينقطع مداه ولم يبلغ الكتاب أجله. . . أعيذك باللّه يا أخي أن تكون غداً المصلوب بالكناسة، ثم ارفضت عيناه وسالت دموعه» (م. م، ج ٥، ص ٨٦ ـ ٨٩).

وبما أن الباقر مات قبل سنوات من تحقق نبوءته عن مصلوب الكناسة، فقد عاد التنافس على الإمامة ينشب من جديد بين العم وابن الأخ. ومرة أخرى كان لا بد من حسم الصراع وبيان هوية الإمام الحق من الإمام المدعي ببرهان معجز. وفي ذلك يروي مصنف **مدينة المعاجز** على لسان موسى بن عطية النيسابوري: «قال: اجتمع وفد خراسان من أقطارها وكبار علماء الشيعة وقصدوا داري واختاروا إليّ أبا لبابة وطهمان وجماعة شتى وقالوا: رضينا بكم أن تردوا المدينة، فتسألوا عن المستخلف فيها لنقلده أمرنا، فقد ذُكر أن باقر

(٢٩) التسويد منا.

العلم قد مضى، ولا ندري من نصبه اللّه بعده من آل الرسول من ولد علي وفاطمة، ودفعوا إلينا مائة ألف درهم ذهباً وفضة وقالوا: لتأتونا بالخبر وتعرّفونا الإمام فطالبوه بسيف ذي الفقار(٣٠) والقضيب والبردة والخاتم واللوح الذي فيه تثبيت الأئمة من ولد علي وفاطمة، وإن ذلك لا يكون إلا عند إمام، فمن وجدتم ذلك عنده فسلموا إليه المال، فحملنا وتجهزنا إلى المدينة وحللنا بمسجد الرسول فصلّينا ركعتين وسألنا: من القائم في أمور الناس والمستخلف فيها؟ فقالوا لنا: زيد بن علي وابن أخيه جعفر بن محمد. فقصدنا زيداً في مسجده، فقال: من أين أقبلتم؟ قلنا: أقبلنا من أرض خراسان لنعرف إمامنا ومن نقلده أمورنا. . . قال: ما تريدون؟ فقلنا له: نريد أن ترينا ذا الفقار والبردة والخاتم والقضيب واللوح الذي فيه تثبيت الأئمة، فإن ذلك لا يكون إلا عند إمام، فدعا بجارية له فأخرجت له سفطاً، واستخرج منه سيفاً، وقال: هذا ذو الفقار، وأخرج إلينا قضيباً وخاتماً وبرداً، ولم يخرج اللوح الذي فيه تثبيت الأئمة. فقام أبو لبابة من عنده وقال: قوموا بنا حتى نرجع إلى مولانا غداً، فنستوفي ما نحتاج إليه ونوفيه ما عندنا ومعنا. قال: فمضينا نريد جعفر بن محمد، فقيل لنا: إنه مضى إلى حائط [= بستان] له، فما لبثنا إلا ساعة حتى أقبل وقال: يا موسى بن عطية النيسابوري ويا أبا لبابة ويا طهمان ويا أيها الوافدون من أرض خراسان إلي، أتيتم عمي زيداً فأخرج إليكم من السفط ما رأيتم، وقمتم من عنده قاصدين إليّ، أرسلكم أهل بلدكم لتعرفوا الإمام وتطالبوه بسيف اللّه ذي الفقار الذي فضل به رسول اللّه ونصر به أمير المؤمنين، فأخرج لكم زيد ما رأيتموه» (م. م، ج ٦، ص ٩٧ ـ ٩٩). وبعد أن تتوالى على هذا النحو آيات هذه المعجزة **المعنوية** المتعددة الحلقات التي تثبت علم الإمام بالغيوب، يأتي دور المعجزة **الحسية** بحلقاتها المتتابعة هي الأخرى. هكذا يضيف راوية الرواية، أي موسى النيسابوري: «قال: ثم أومأ

(٣٠) هو سيف الرسول ورثه عنه علي بن أبي طالب.

عليه السلام بيده إلى فصّ خاتم له فقلعه، فقال: سبحان اللّه الذي أودع الذخائر وليّه والنائب عنه في خليقته ليريهم قدرته ويكون الحجة عليهم... ثم أخرج لنا من وسط الخاتم البردة والقضيب واللوح الذي فيه تثبيت الأئمة، ثم قال: سبحان الذي سخّر للإمام كل شيء وجعل له مقاليد السماوات والأرض لينوب عن اللّه في خلقه... ثم قال: يا موسى، ترى التور [= الإناء] الذي في زاوية البيت؟ قلت: نعم. قال: ائتني به، فأتيته به ووضعته بين يديه... فنقر على التور **وتكلم بكلام خفي** وقال: فلم تزل الدنانير تخرج منه حتى حالت بيني وبينه، ثم قال لي: يا موسى، لم نرد مالكم لأنا فقراء، وما أردناه إلا لنفرّقه على أوليائنا من الفقراء وننتزع حق اللّه من الأغنياء... ثم رمق الدنانير بعينه فتبادرت إلى كوّة كانت في المجلس، ثم قال: أحسنوا إلى إخوانكم المؤمنين، وصِلوهم ولا تقطعوهم... ثم ردّ المال إلى أصحابه وأمرهم أن يصلوا أولياءنا وشيعتنا الفقراء... ثم قال: يا موسى، أراك أصلع، ادنُ مني، فدنوت منه، فأمرّ يده على رأسي فرجع الشعر قططاً [= أجعد] فقال: يكون معك حجة. ثم قال: ادنُ مني يا أبا لبابة، وكان في عينه كوكب [= بياض في سواد العين]، فتفل في عينه فسقط ذلك الكوكب، فقال: هاتان حجتان، إن سألكما سائل فقولوا: إمامنا فعل بنا ذلك، وودّعنا وودّعناه وهو إمامنا إلى يوم البعث» (م. م، ج ٦، ص ١٠٠ ـ ١٠٢).

يبقى أن نقول إن الإمامين الخامس والسادس، الباقر والصادق، لم يواجها منافسة زيد بن علي بن الحسين وحده، بل واجها أيضاً منافسة زيد آخر هو زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

فابن الإمام الثالث هذا، الذي تنتمي إليه فرقة بعينها من فرق الزيدية، لم يلجأ، صنيع ابن عمه زيد بن علي، إلى انتضاء السلاح، بل سعى إلى تثبيت مدّعاه في الإمامة عن طريق التحالف مع البيت الأموي الذي كان على رأسه إذ ذاك هشام بن عبد الملك بن مروان الذي عرف ـ كما سيتبين لنا للتو ـ كيف يستغل هذه المنافسة. وبديهي أن سلاح المعجزة قد وظِّف هنا أيضاً من قبل

الإمام الشرعي لإظهار بطلان دعوى الإمام المدعي. وقد كانت المعجزة هذه المرة أيضاً متعددة الحلقات. هكذا قال جعفر الصادق في رواية موضوعة على لسانه: «كان زيد بن الحسن يخاصم أبي [= محمد الباقر] في ميراث رسول اللّه ويقول: أنا من وُلْد الحسن وأولى بذلك منك، لأني من وُلْد الأكبر، فقاسمني ميراث رسول اللّه وادفعه إلي. فأبى أبي . . . وقال: يا زيد إن معك لسكِّينة قد أخفيتها، أرأيتك إن نطقت هذه السكِّينة التي تسترها مني، فشهدت أني أولى بالحق منك أفتكفّ عني؟ قال: نعم، وحلف له بذلك. فقال أبي: أيتها السكينة انطقي بإذن اللّه تعالى، فوثبت السكينة من يد زيد بن الحسن على الأرض وقالت: يا زيد، أنت ظالم ومحمد بن علي أحق منك وأولى، وإن لم تكفّ لأَلِيَنْ قتلك. فخر زيد مغشياً عليه، فأخذه بيده فأقامه، ثم قال: يا زيد إن نطقت هذه الصخرة التي نحن عليها أتقبل؟ قال: نعم، وحلف له على ذلك، فرجفت الصخرة التي مما يلي زيداً حتى كادت أن تنفلق، ولم ترجف مما يلي أبي، ثم قالت: يا زيد أنت ظالم، ومحمد أولى بالأمر منك، فكُفَّ عنه وإلا وليت قتلك. فخرّ زيد مغشياً عليه، فأخذ أبي بيده وأقامه، ثم قال: يا زيد أرأيت إن نطقت هذه الشجرة أتكفّ؟ قال: نعم، فدعا أبي الشجرة فأقبلت تخدّ الأرض حتى أظلّتهم، ثم قالت: يا زيد أنت ظالم، ومحمد أحقّ بالأمر منك، فكفّ عنه، وإلا قتلتك. فغشي على زيد، فأخذ أبي بيده وأقامه، وقال: يا زيد أرأيت هذا؟ وانصرفت الشجرة إلى موضعها، فحلف زيد أن لا يعرض لأبي ولا يخاصمه، وانصرف»[٣١] (م. م، ج ٥، ص ١٦٣ ـ ١٦٥).

---

(٣١) يبدو أن هذه المعجزة المتعددة الحلقات لم تردع زيد بن الحسن. فقد تعهد لهشام بن عبد الملك [في النص لعبد الملك، وهذا خطأ تاريخي] بأن يقتل ابن عمه بيده إن ولاه مكانه. وعلى الرغم من امتناع الخليفة الأموي نفسه عن ذلك، على ما تفيدنا الرواية، فقد بادر زيد إلى قتل الباقر سماً. وفي ذلك تقول تتمة الرواية على لسان جعفر الصادق: «ثم إن زيداً ذهب إلى سرج فسمّه، ثم أتى به إلى أبي فناشده ألا ركبت هذا السرج، فقال أبي: ويحك =

هـ ـ الفعل العجائبي كتعويض عن اللافعل التاريخي: فقد تضافرت الانقسامات الداخلية مع سياسة البطش الأموية وسياسة القمع والاحتواء العباسية لتجمد الدعوة الإمامية عند عتبة اللافعل التاريخي. وقد مثلت وقعة كربلاء المأساوية أول وآخر محاولة للخروج في تاريخ الدعوة الإمامية الاثني عشرية في زمن الأئمة أنفسهم. وجميع محاولات الخروج الأخرى، التي انتهت جميعها إلى الفشل باستثناء الزيدية اليمنية، إنما قادها طالبيون منشقون عن الإمامية الاثني عشرية. وحتى عندما قاد المختار بن أبي عبيد الثقفي ثورته على الأمويين تحت لواء الدعوة لإمامة علي بن الحسين، قبل أن يتحول عنه إلى عمه محمد بن الحنفية، ووجه بتكذيب علني من قبل الإمام الرابع في الحرم المكي. ويمكن القول إنه منذ عهد الباقر، ومن بعده الصادق، صارت الإمامة روحية خالصة وتقدم فيها العلم على السياسة، ولو لدواعي التقية. وحتى عندما اضطر الإمام الثامن علي الرضا إلى العودة إلى مسرح السياسة بعد أن استقدمه المأمون من المدينة وأنكحه بنته وكتب له بولاية العهد من بعده، لم يقبل بأن يضطلع بمهام منصبه الجديد إلا بشروط تكاد تعادل الاستقالة. والأدبيات الإمامية نفسها تصوره مكرهاً على القبول بولاية العهد ومستنكفاً في الوقت نفسه عن أداء الواجبات المترتبة عليها. وفي ذلك يروي مصنف **مدينة المعاجز** أن المأمون فرض ولاية العهد على علي الرضا قسراً، وأنه قال له لما رفضها في بادئ الأمر: «باللّه أقسم لئن قبلت ولاية العهد وإلا ضربت عنقك»، فقال الرضا: «قد نهاني اللّه عزّ وجلّ أن ألقي بيدي إلى التهلكة، فإن

= يا زيد، ما أعظم ما تأتيني به وما يجرب على يديك، ولكن هكذا قُدّر، فويل لمن أجرى اللّه على يده الشر. فأسرج له، فركب أبي ونزل متورماً، فأمر بأكفان له وعاش ثلاثاً، ثم مضى إلى سبيله. ثم إن زيد بن الحسن بقي بعده أياماً، فعرض له داء لم يزل يتخبط به ويهذي، وترك الصلاة حتى مات» (م. م، ج ٥، ص ١٦٨) [إن المعلومات المتاحة لنا تفيد بأن زيد بن الحسن توفي سنة ١٢٠ هـ، أي بعد ست سنوات من وفاة الباقر، إذ صح أن هذا الأخير توفي سنة ١١٤هـ. وعلى أي حال، فإن الرواية تبرئ هشام بن عبد الملك من أن يكون هو الذي أمر بسم الباقر خلافاً لما تذهب إليه مرويات شيعية أخرى].

كان الأمر على هذا فافعل ما بدا لك، وأنا أقبل ذلك على أن لا أولّي أحداً ولا أعزل أحداً، ولا أنقض رسماً ولا سنة، وأكون في الأمر من بعيد مشيراً». فرضي منه بذلك وجعله ولي عهده على كراهة منه لذلك» (م. م، ج ٧، ص ١٣٦).

هذه الاستقالة الطوعية، كما القسرية[٣٢]، من الفعل التاريخي كان لا بد أن تجد انعكاسها في أدبيات المعجزات، وإن عن طريق **قلبها إلى عكسها، أي إلى فاعلية خارقة للمألوف بقدر ما هي متخيّلة**. فالسجون العباسية مثلاً تتحول إلى مسرح فردوسي للحرية. في ذلك يروي مصنف **مدينة المعاجز** أن الحسن العسكري، المحبوس في عسكر سر من رأى، «كان يبعث إلى أصحابه وشيعته: صيروا إلى موضع كذا وكذا، وإلى دار فلان بن فلان في ليلة كذا، فإنكم تجدونني هناك. وكان الموكلون به لا يفارقون باب الموضع الذي حُبس فيه بالليل والنهار، فكان أصحابه وشيعته يصيرون إلى الموضع، وكان عليه السلام قد سبقهم إليه، فيرفعون إليه حوائجهم فيقضيها لهم، وينصرفون إلى أماكنهم بالآيات والمعجزات» (م. م، ج ٧، ص ٦٠٢).

وفي السياق نفسه يروي أن «أحد أصحابه صار إليه وهو في الحبس، وخلا به، فقال له: أنت حجة اللّه في أرضه وقد حُبست في خان الصعاليك؟ فأشار بيده وقال: انظر، فإذا حواليه روضات وبساتين وأنهار جارية، فتعجب الرجل فقال عليه السلام: حيثما كنا هكذا، لسنا في خان الصعاليك»، (م. م، ج ٧، ص ٦٠٢).

وشبيه هذه المعجزة السجنية تنسب إلى الإمام السابع موسى الكاظم. فعلى لسان الأعمش يروي مصنف **مدينة المعاجز**: «قال: لحقت موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام وهو في حبس الرشيد فرأيته يخرج من حبسه

(٣٢) لا ننسَ أن ثلاثة من الأئمة الأواخر، هم السابع والعاشر والحادي عشر، قضوا شطراً كبيراً من حياتهم في الإقامة الجبرية أو الحبس في سجون بني العباس.

ويغيب، ثم يدخل من حيث لا يُرى» (م. م، ج ٦، ص ١٩٩). وعلى لسان موسى بن هامان يروي: «قال: رأيت موسى بن جعفر عليه السلام في حبس الرشيد تنزل عليه المائدة من السماء، فيطعم أهل السجن كلهم، ثم يُصعد بها من غير أن ينقص منها شيء» (م. م، ج ٦، ص ٢٠٠). وقد تتالت معجزات موسى الكاظم في الحبس حتى اضطر الرشيد، على ما يؤكد مصنف **مدينة المعاجز**، إلى إطلاق سراحه. في ذلك يروي المصنف، وهو ينقل عن الطبري الصغير في **دلائل الإمامة**، أن «رشيق مولى الرشيد قال: وجّهني الرشيد في قتل موسى بن جعفر، فأتيته لأقتله، فهز عصا كانت في يده فإذا هي أفعى، وأخذت هارون الحمى، ووقعت الأفعى في عنقه، حتى وجّه إليّ بإطلاقه، فأطلقت عنه» (م. م، ج ٦، ص ٢٠٠). وفي سياق مماثل يروي أن عمارة بن زيد أُمر بأن يدخل على «موسى بن جعفر بسباع لتأكله، فلما دخل بها جعلت تلوذ به وتبصبص له وتدعو له بالإمامة، وتعوذ به من شر الرشيد. فلما بلغ ذلك الرشيد أطلق عنه، وقال: أخاف أن يفتنني ويفتن الناس ومن معي»(٣٣) (م. م، ج ٦، ص ٢٠١).

وما دمنا بصدد هذا القلب العجائبي للفاعلية من السلب إلى الإيجاب في العلاقة بين المسجون وساجنه، فلنورد المعجزة التالية المنسوبة إلى موسى الكاظم أيضاً. فنقلاً عن ابن شهر آشوب في **المناقب** يروي البحراني: «أمر الرشيد حميد بن مهران الحاجب بالاستخفاف به [= موسى الكاظم] فقال له: إن القوم افتتنوا بك بلا حجة، فأريد أن يأكلني هذان الأسدان المصوَّران على هذا المسند. فأشار عليه السلام إليهما وقال: خذا عدو اللّه، فأخذاه وأكلاه، ثم قالا: وما الأمر؟ أنأخذ الرشيد؟ قال لا: عودا إلى مكانكما» (م. م، ج ٦، ص ٤٢٥).

(٣٣) في الواقع، إن الرشيد لم يأمر بإطلاق سراح موسى الكاظم من سجنه في البصرة إلا ليعاود الأمر بحبسه في سجن بغداد. وبذلك يكون الإمام السابع قد أمضى السنوات السبع الأخيرة من حياته في الحبس إلى أن توفي ـ مسموماً كما يقال ـ سنة ١٨٣ هـ.

وشبيه هذه المعجزة تنسب إلى ابن الكاظم علي الرضا، وهذا في سيناريو مطابق بصورة شبه حرفية. فحميد بن مهران، حاجب الرشيد، الذي افترسه الأسدان المصوّران على مسنده، هو عينه ـ وقد صار حاجب المأمون ـ الذي سيفترسه الأسدان المصوران على مسند هذا الأخير. ففي رواية عن ابن بابويه أن حاجب المأمون استهزأ بمعجزة استسقائية أتاها علي الرضا بدعائه، وقال له بحضور المأمون، وعلى ملأ من الناس، إن «المطر مقدّر وقته لا يتقدم ولا يتأخر، وقد جعلته آية تستطيل بها وصولة تصول بها، ولست أنت أحق بأن يكون المطر المعتاد مجيئه جاء بدعائك دون غيرك الذي دعا كما قد دعوت».

ثم أشار الحاجب إلى أسدين مصورين على مسند المأمون وقال: «إن كنت صادقاً فيما تُوهِم فأحيِ هذين وسلطهما عليّ، فإن ذلك يكون حينئذ معجزة». قال: «فغضب علي بن موسى وصاح بالصورتين: دونكما الفاجر فافترساه، ولا تبقيا له عيناً ولا أثراً. فوثبت الصورتان وقد صارتا أسدين، فتناولا الحاجب وعضّاه ورضضاه وهشماه وأكلاه ولحسا دمه، والقوم ينظرون متحيرين مما يبصرون. فلما فرغا منه أقبلا على الرضا عليه السلام وقالا: يا ولي اللّه في أخيه! ماذا تأمرنا أن نفعل بهذا؟ نفعل به ما فعلنا بهذا؟ ـ يشيران إلى المأمون ـ فغشي على المأمون مما سمع منهما. فقال الرضا عليه السلام: قفا فوقفا. ثم قال الرضا: صبوا عليه ماء ورد، ففُعل ذلك به، وعاد الأسدان يقولان: أتأذن لنا أن نلحقه بصاحبه الذي أفنيناه؟ قال: لا، فإن للّه تعالى فيه تدبيراً هو ممضيه. فقالا: ماذا تأمرنا؟ فقال الرضا عليه السلام: عودا إلى مقركما كما كنتما، فعادا إلى المسند وصارا صورتين كما كانا» (م. م، ج ٧، ص ١٤٣ ـ ١٤٥).

وتطالعنا **مدينة المعاجز** بنماذج أخرى من هذه الفاعلية العجائبية التعويضية، ولكن ـ وهذا ما يزيدها عجائبية ـ بعد موت الإمام الفاعل. ومن هذا القبيل المعجزتان التاليتان لعلي بن أبي طالب بعد نحو مئة سنة من وفاته. فنقلاً عن الشيخ المفيد في **الإرشاد** يروي المصنف على لسان الحسين بن علي

بن الحسين: «قال: كان إبراهيم بن هشام المخزومي والياً على المدينة[٣٤]، وكان يجمعنا يوم الجمعة قريباً من المنبر، ثم يقع على عليّ ويشتمه. فحضرت يوماً وقد امتلأ ذلك المكان، فأضقت بالمنبر فأغفيت، فرأيت القبر قد انفرج وخرج رجل عليه ثياب بيض، فقال لي: يا أبا عبد اللّه، ألا يحزنك ما يقول هذا؟ قلت: بلى، قال: افتح عينيك انظر ما يصنع اللّه به، فإذا هو قد ذكر علياً، فرُمي به من فوق المنبر فمات، لعنه اللّه» (م. م، ج ٣، ص ١٤٧).

ودلالة هذه المعجزة لا تخفي نفسها. فشتم علي بن أبي طالب على المنابر طوال حقبة حكم الأمويين ـ خلا عهد عمر بن عبد العزيز ـ بدون أن تملك شيعته رداً له على الصعيد الواقعي كان لا بد من الرد عليه على الصعيد العجائبي المتخيَّل. وبهذه الدلالة عينها تنطق أيضاً المعجزة التالية التي يرويها مصنف **مدينة المعاجز** عن ابن بابويه القمي في **أماليه**. فعن أبي جعفر الدوانيقي[٣٥]: «قال: قال لي رجل محب لأمير المؤمنين عليه السلام: يا شاب، لي إليك حاجة، قلت: قُضيت إن شاء اللّه تعالى. قال: إذا كان غد فأتِ مسجد آل فلان كيما ترى أخي المبغض لعلي عليه السلام. قال: فطالت عليَّ تلك الليلة، فلما أصبحت أتيت المسجد الذي وصف لي، فقمت في الصف، فإذا إلى جانبي شاب متعمم، فذهب ليركع فسقطت عمامته، فنظرت في وجهه فإذا رأسه رأس خنزير، ووجهه وجه خنزير. فقلت: يا ويحك ما الذي أرى بك؟ فقال: كنت مؤذناً لآل فلان، كلما أصبحت لعنت علياً ألف مرة بين الأذان والإقامة، وكلما كان يوم الجمعة لعنته أربعة آلاف مرة. . .

---

(٣٤) تولّى المدينة مع مكة في عهد آخر ثلاثة خلفاء أمويين من عام ٧٢٤ إلى عام ٧٣٢ هـ.

(٣٥) ليس أبو جعفر الدوانيقي هذا أحداً آخر سوى عبد اللّه بن محمد بن عباس الذي سيتولى الخلافة العباسية باسم المنصور، والذي لقب بـ «أبي الدوانيق» لمحاسبته العمال والصناع على الدوانيق والحبّات. والنص في الحكاية على أنه «شاب» إنما يراد به الإشارة إلى أن الواقعة جرت قبل تسنّمه الخلافة.

فأتاني النبي [في المنام] فقال لي: ما لك، عليك لعنة اللّه، تلعن علياً وعليّ مني؟ قم غيَّر اللّه ما بك من نعمة، فانتبهت من نومي، فإذا رأسي رأس خنزير، ووجهي وجه خنزير» (م. م، ج ١، ص ٣١٢ ـ ٣١٣).

في إطار هذه الفاعلية العجائبية بعد الموت تندرج سلسلة معجزات الإمام الحسين من قتلته وسالبيه وحتى ممن وقفوا على الحياد ولم ينجدوه. فمعلوم أن هزيمة الحسين المأساوية في كربلاء في المواجهة اللامتكافئة مع القوات الأموية[٣٦] مثلت أول وآخر محاولة لتسييس الدعوة الإمامية الاثني عشرية. وقد كان خروج الحسين إلى كربلاء بمثابة خروج من مسرح الفعل السياسي، وإن تكن ذكرى مقتلة كربلاء ستُتخذ في الأزمنة اللاحقة موضوعاً للتوظيف السياسي، فضلاً عن الديني، لدى الشيعة لا يجد ما يناظره ـ إن وُجد ـ سوى التوظيف السياسي لمقتل عثمان لدى السنة. ولأن مقتل الحسين كان على هذا النحو حدثاً تأسيسياً للإمامية اللاحقة، فإن العجز المطلق الذي مثّله مقتله مع ستة عشر من أهل بيته ـ وكان في قتله «قصة فيها طول لا يحتمل القلب ذكرها»[٣٧] ـ كان لا بد أن يُقلب لاحقاً إلى عكسه ليأخذ شكل فاعلية عجائبية انتقامية تلاحق قتلته وكل من شارك في سلبه أو تمتع بما سُلب منه. وبمعنى من المعاني، وطبقاً لمبدأ **السببية الروحية** المعمول به في جميع ثقافات البشرية ما قبل الحديثة، يمكن القول إن **روح الحسين** كان لا بد أن تنتقم من **أجساد قتلته** وسالبيه. ولا شك أن بعض هذه المهمة قد تولاها المختار بن أبي عبيد الثقفي بنفسه. فقد قتل المختار ـ لما خرج بالكوفة ـ أو أمَرَ بقتل كل من شارك في قتل الحسين أو شهد مقتله، وفي مقدمتهم عمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجند الأمويين وخولي بن يزيد الأصبحي «الذي احتز رأس

(٣٦) أربعة وسبعون رجلاً (عدا النساء والأطفال) في مواجهة أربعة آلاف من الجيش الأموي الذي كان على رأسه عمر بن سعد بن أبي وقاص.

(٣٧) على حد تعبير السيوطي في **تاريخ الخلفاء**.

الحسين»[٣٨]. ولا غرو من هذا المنظور أن يكون مصنف **مدينة المعاجز** قد أورد تفاصيل عدة معجزات عُزيت إلى المختار ذاته. ولكن عدد ما أحصاه لشهيد كربلاء من معجزات انتقامية لا يقل بالمقابل عن الثلاثين، وفي جملتها بضع معجزات أتاها رأس الحسين المقطوع. ونموذجها المعجزة التالية: «روي أن عبيد اللّه بن زياد ـ لعنه اللّه ـ كتب إلى يزيد[٣٩] ـ لعنه اللّه ـ وأخبره بما وقع منه في الحسين عليه السلام، فردّ الجواب يشكره على فعله ويأمره فيه بحمل رأس الحسين عليه السلام ورؤوس من قُتل معه وحمل أثقاله ونسائه وعياله، فاستدعى ابن زياد ـ لعنه اللّه ـ بحجاج يقال له طارق، وقيل: إلى عمر بن الحارث المخزومي ـ لعنهم اللّه وأخزاهم ـ فأمره أن يقوِّر الرأس ويخرج دماغه وما حول الدماغ من اللحم، ففعل ذلك، ثم همّ بقطع اللحم الذي حول الرأس، فيبست يداه وورمت عليه وانتفخت، وقيل: وقعت فيها الآكلة، فتقطعت يداه ومات فيها لا رحمه اللّه» (م. م، ج ٤، ص ١٠٣).

ومن معجزات رأس الإمام الشهيد أيضاً: «روى هلال بن معاوية قال: رأيت رجلاً يحمل رأس الحسين عليه السلام في مخلاة فرسه، فسمعت أذناي ووعى قلبي والرأس يقول: فرّقت بين رأسي وجسدي، فرّق اللّه بين لحمك وعظمك وجعلك آية ونكالاً للعالمين، فرفع سوطاً كان معه ولم يزل يضرب به الرأس حتى سكن. قال: فرأيت ذلك الرجل وقد أتي به إلى المختار بن أبي عبيد، فشرح لحمه وألقاه للكلاب وهو حي» (م. م، ج ٤، ص ١٠٠).

---

(٣٨) يذكر ابن الأثير أنه في يوم **جبانة السبيع** الذي انتصر فيه المختار على جيش الشاميين وأسر منهم خمسمئة أسير، قال لأمراء سراياه: «انظروا من كان منهم شهد مقتل الحسين فاقتلوه، فقتل منهم مائتان وأربعون رجلاً» ثم جعل يتتبع من بقي منهم في الكوفة «وكانوا يأتون بهم حتى يوقفوا بين يديه، فيأمر بقتلهم على أنواع من القتلات مما يناسب ما فعلوا، ومنهم من حرقه بالنار، ومنهم من قطع أطرافه وتركه حتى مات، ومنهم من يُرمى بالنبال حتى يموت» (**البداية والنهاية**، ج ٨، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢).

(٣٩) هو يزيد بن معاوية ثاني الخلفاء الأمويين، وعبيد اللّه بن زياد عامله على العراق.

ومنها أيضاً: «روي أن رجلاً من كندة أخذ البيضة التي على رأس الحسين عليه السلام فانطلق إلى منزله وقال لزوجته: خذي هذه البيضة التي كانت على رأس الحسين فاغسليها من الدم وتكون عندك وديعة. قال: فبكت وقالت: يا ويلك قتلت الحسين وسلبته البيضة، واللّه لا اجتمعت أنا وأنت أبداً، فوثب إليها فانزاحت عن اللطمة، فأصابت يده الباب، فدخل فيها مسمار، فعملت عليه فقطعها من مرفقه، ولم يزل فقيراً حتى مات وعجل اللّه بروحه إلى النار وبئس القرار»[٤٠] (م. م، ج ٤، ص ٩٢).

ويورد مصنف **مدينة المعاجز** نحواً من عشر معجزات عن سوء مآل من سلبوا متاع الحسين أو أرادوا الاستفادة منه، ومنها المعجزة التالية المتعددة الحلقات: فبعد المذبحة «أقبلوا على سلب الحسين عليه السلام، فأخذ قميصه إسحاق بن حوية الحضرمي فلبسه فصار أبرص. . . وأخذ سراويله بحر بن كعب التيمي فصار زَمِناً مقعداً من رجليه،[٤١] وأخذ عمامته أخنس بن مرثد الحضرمي، فاعتمّ بها فصار معتوهاً» (م. م، ج ٤، ص ٧٧ ـ ٧٨).

وهذه الفاعلية شملت حتى أشياء الإمام الشهيد: «انتهبت الناس ورساً[٤٢] من عسكر الحسين يوم قتل، فما تطيبت به امرأة إلا برصت» (م. م، ج ٤، ص ٨٠). وفي رواية أخرى عن جدة سفيان بن عيينة:[٤٣] «قالت: لما قتل الحسين بن علي (ص) استاقوا إبلاً عليها الورس، فلما نحرت رأينا لحومها مثل العلقم ورأينا الورس رماداً» (م. م، ج ٤، ص ٨١). وفي رواية ثالثة أنه

(٤٠) لرأس الحسين ـ عدا الانتقام ـ معجزات أخرى عديدة، وقد شيدت حوله في الأدبيات الشيعية ميتولوجيا بكاملها. كما وجدت في الأدبيات السنية محاولات مضادة لتفكيك هذه الميتولوجيا، ومنها كتاب ابن تيمية عن **رأس الحسين** .

(٤١) وفي رواية أخرى أن «الذي سلب الحسين [سرواله] شلت يده في الحال» (م. م، ج ٤، ص ٦٧).

(٤٢) الورس نبات كالسمسم يُصبغ به.

(٤٣) من مشاهير أهل الحديث، توفي سنة ١٩٨ هـ.

لم يكن ورساً، بل زعفراناً: «كان رجل خرج على الحسين عليه السلام، فجاء بجمل وزعفران، فكلما دقوا الزعفران صار ناراً، فلطخت امرأته على يديها فصارت برصاء، ونحروا الجمل فصار ناراً، فطبخوه فصارت القدر ناراً» (م. م، ج ٤، ص ٨٢).

وتطالعنا **مدينة المعاجز** ببضع معجزات أخرى، الغاية منها التأكيد على حتمية الانتقام، مهما تأخر الزمن، ليطال كل من كانت لهم يد في مقتل الحسين، ونموذجها المعجزة التالية على لسان محمد بن سلمان: «حدثني عمي قال: لما خفنا أيام الحجاج، خرج نفر منا إلى الكوفة مستترين، فبنينا كوخاً على شاطئ الفرات، فبينا نحن فيه إذ جاءنا رجل غريب فقال: أصير معكم في هذا الكوخ الليلة فإني عابر سبيل، فأجبناه وقلنا غريب منقطع به. فلما غربت الشمس وأظلم الليل أشعلنا ـ وكنا نشعل بالنفط ـ ثم جلسنا نتذاكر أمر الحسين بن علي عليه السلام ومصيبته وقتله، فقلنا: ما بقي أحد من قتلة الحسين إلا رماه اللّه ببلية في بدنه، فقال ذلك الرجل: فأنا كنت فيمن قتله، واللّه ما أصابني سوء، وإنكم يا قوم تكذبون، فأمسكنا عنه. وقلّ ضوء النفط، فقام ذلك الرجل ليصلح الفتيلة بإصبعه، فأخذت النار كفه، فخرج نادّاً حتى ألقى نفسه في الفرات يتغوث به، فواللّه لقد رأيناه يدخل رأسه في الماء، والنار على وجه الماء، فإذا خرج رأسه سرت النار إليه، فتغوِّصه إلى الماء ثم يخرجه فتعود إليه، فلم يزل ذلك دأبه حتى هلك» (م. م، ج ٤، ص ٨٩ ـ ٩٠).

ولنختم أخيراً مع مصنف **مدينة المعاجز** بعدة روايات يسوقها عن معجزة انتقامية طالت رجلاً لم يقاتل ولم يضرب بسيف ولم يرمِ بسهم، وكل جريرته ـ وهذه هي العبرة التي لا تخفي نفسها ـ أنه وقف على الحياد حيث لا يجوز حياد. فعن الحرّ بن رباح القاضي: «قال: رأيت رجلاً مكفوفاً قد شهد قتل الحسين عليه السلام، وكان الناس يأتونه ويسألونه عن ذهاب بصره، فكان يقول: شهدت قتل الحسين ولكن لم أضرب بسيف، ولم أرم بسهم، فلما قتل

الحسين رجعت إلى المنزل وصليت العشاء الآخرة ونمت، فأتاني آتٍ بمنامي وقال لي: أجب رسول اللّه، وجذبني جذبة شديدة وانطلقَ بي إليه. . . فدنوت من النبي (ص) وحبوت إليه وقلت: السلام عليك يا رسول اللّه، ما ضربت بسيف، ولا طعنت برمح، ولا رميت بسهم، فقال لي: صدقت، ولكن كثّرت على ولدي السواد،[٤٤] ادنُ مني، فدنوت منه فإذا طشت مملوء دماً، فقال: دم ولدي الحسين، فكحلني من ذلك الدم، فانتبهت أعمى لا أبصر شيئاً» (م. م، ج ٤، ص ٨٦).

(٤٤) في رواية أخرى أن النبي قال له: «صدقت، ولكن. . لمَ لا نصرت ولدي؟ ولمَ لا أجبت دعوته؟» (ص ١٠١).

الفصل الخامس

محاولة للتفسير

كما في كل ختام ـ في الغالب ـ لا بد أن يطرح سؤال السببية نفسه: لماذا كان ظهور أدبيات المعجزة في الإسلام، السني والشيعي على السواء، ولماذا كان القانون الذي حكم تمخضها هو قانون التضخم والمغالاة والإيغال في الغرائبية إلى حد أفقد المعجزات حتى بعدها الميتافيزيقي وجعلها أقرب إلى البهلوانيات والشعبذات التي تثير الابتسام منها إلى الآيات والخوارق التي قد تسحر العقل وتشله؟

العامل الرئيسي يتمثل بلا أدنى شك في **إسلام الفتوحات** الذي أحدث تحولاً جذرياً في طبيعة الإسلام الأول، وتحديداً منه المكي. فهذا الإسلام قد بنى مصداقيته كما رأينا، بالتمايز عن الديانتين التوحيديتين اللتين سبقتاه، على «معجزة» واحدة يتيمة هي **الإعجاز القرآني**. والحال أن هذه المعجزة، بخلاف سجل المعجزات في الديانتين السابقتين، ليست من طبيعة مادية، بل من طبيعة عقلية إن جاز التعبير. وهذا ما كان تنبه له القدامى الذين قال السيوطي بلسانهم ـ وإن في سياق المفاخرة والمفاضلة ـ: «إعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة. . . وهي إما حسية وإما عقلية، وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم. . . وقيل: المعجزات الماضية كانت

حسية تُشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصا موسى، ومعجزات القرآن تشاهد بالبصيرة»[(١)].

ولكن المعجزة العقلية التي مثّلها الإعجاز القرآني ما كان لها من فاعلية إقناعية إلا بالنسبة إلى أهل اللغة التي نزل بها القرآن، أي العربية التي رأينا أن القرآن نفسه نصّ في أكثر من آية على أنه ما أنزل بها حصراً إلا لقوم «يعقلون». والحال أن شعوب البلدان المفتوحة ما كان لها أن «تعقل»، لأنها كانت تجهل العربية جهلاً تاماً. وبانتظار أن تستعرب نخبها المثقفة ابتداء من النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة وتشرع بعملية تقنين الإعجاز القرآني ـ ابتداء بالجاحظ والواسطي ومروراً بالجرجاني والباقلاني وانتهاء بالرازي والرماني والزملكاني ـ فإنه ما كان لتلك الشعوب الأعجمية أن تأخذ طريقها إلى الإسلام وتدخل في دين اللّه أفواجاً، اقتناعاً وليس فقط استكراهاً، إلا من باب المعجزات الحسية التي لم يكن ثمة مناص من أن تنسب إلى الرسول. وبمعنى من المعاني يمكن القول إن تلك الشعوب هي التي فرضت بنيتها الدينية القديمة على الدين الجديد، وليس الإسلام هو الذي فرض عليها بنيته الأولى القابلة للوصف بأنها **رسالية**.

والواقع أن صورة النبي صانع المعجزات التي لا تقترن بشرط اللغة هي التي غلبت في إسلام الفتوحات على صورة الرسول المكلف بأن يبلّغ «بلسان عربي مبين» ﴿قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾[(٢)] (الشعراء/ ١٩٥ وفصلت/ ٣).

---

(١) السيوطي: **الإتقان في علوم القرآن**، طبعة المكتبة الثقافية المصورة، بيروت ١٩٧٣، ج ٢، ص ١١٦ ـ ١١٧. ولنا أن نلاحظ أن هذه المحاكمة التفاضلية لا تستقيم في ظاهرها إلا بقدر ما تسكت عن معطى أساسي، وهو أن الديانتين الكتابيتين السابقتين لم تفرضا نفسهما بقوة المعجزات الحسية وحدها، بل كذلك ـ وأساساً ـ بقوة المعجزة العقلية التي تتمثل بالنسبة إلى أولاهما بالتوراة، وبالنسبة إلى ثانيتهما بالإنجيل.

(٢) الواقع أيضاً أن هذه الغلبة لـ «النبي» على «الرسول» كانت شرعت بالتبلور في الإسلام المدني. فعلى حين أن اثنتين وثلاثين آية من المدنيات تسمي الرسول باسم«النبي»، فإن آيتين فقط من المكيات تشيران إليه بهذا اللفظ، وهذا ليس على سبيل التسمية المباشرة، بل على =

وعلى الرغم من أن الرسول نفسه كان حذَّر المسلمين في حديث منسوب إليه: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد اللّه ورسوله»(٣)، فقد اتخذ موضوعاً للعبادة في إسلام الفتوحات، وإن لم تكن هذه العبادة قد وصلت إلى حد التأليه كما فعل النصارى مع المسيح(٤). ولقد رأينا كيف أرست الأدبيات المتأخرة، ابتداء من القرن الثالث الهجري، عبادة تصنيمية لأشياء الرسول وأدواته، «حتى القلامة من ظفره ما كان يصنع بها والنخامة من فيه كيف كان يلفظها»(٥). ورغم أنه لم يكن مفوضاً بأن يقول من عنده بشيء إلا ما يتلقاه من ربه وحياً ويتعين عليه تبليغه بدون أن يبدل فيه حرفاً ـ وإلا ﴿لقطعنا منه الوتين﴾ (الحاقة/ ٤٦) ـ رغم ذلك فقد جُعل من قوله وعمله سنة، **واعتبرت السنة قرآناً بعد القرآن**، بل وجد بين الأصوليين لاحقاً من يجيز نسخ القرآن بالسنة، مما يجعلها ـ وهي التي يفترض أن تكون تابعة له ـ حاكمة عليه. ورغم أن صحف الحديث الأولى ما كانت تحوي بين دفتيها إلا عشرات ـ أو أقل ـ من الأحاديث، فقد تضخمت مساند الحديث ابتداء من منتصف القرن الثاني حتى تعدت الأربعين ألف حديث في مسند أحمد بن

= سبيل بيان الصفة لموصوف هو الرسول. والآيتان هما ١٥٧ و ١٥٨ من سورة الأعراف: ﴿الذين يتبعون الرسول الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل... فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته﴾.

(٣) رواه البخاري وابن حنبل على لسان عمر بن الخطاب.

(٤) معلوم أن عملية تأليه المسيح لم تتم هي الأخرى في الحقبة «المكية» من تاريخ المسيحية ـ أي طيلة القرون الثلاثة الأولى يوم كانت المسيحية مضطهدة ـ بل تمت في حقبة «الفتوحات» يوم صارت المسيحية عقيدة رسمية للإمبراطورية الرومانية. انظر في ذلك ريتشارد روبنشتاين: **يوم صار يسوع إلهاً** le jour ou jésus devint dieu، منشورات لاديكوفرت، باريس ٢٠٠١.

(٥) الخطيب البغدادي: **الكفاية في علم الرواية**، تحقيق أحمد عمر هاشم، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٦، ص ٢٠. هذا وقد أورد البغوي في **الأنوار في شمائل النبي المختار** أكثر من مئة حديث تبجيلي عن أشياء الرسول من قبيل خفه ونعله وفراشه ووسادته وبغلته وحماره ومشطه وسيفه ودرعه وعصاه وقدحه، الخ.

حنبل. ورغم محاولات التصدي التي أبداها من سُمّوا في حينه بـ «القرآنيين»، فقد اندفع التيار الجارف لأهل الحديث ليفرض لهم هيمنة شبه مطلقة وليجعل منهم، بين سائر فرق أهل الإسلام لا الفرقة الغالبة فحسب، بل الفرقة الوحيدة الناجية من النار طبقاً للحديث الشهير الموضوع على لسان الرسول. وبكلمة واحدة، يمكن القول إنه في إسلام الفتوحات، وطبقاً للبنية الدينية السائدة من قبل في البلدان المفتوحة ـ وهي بنية نبوية تتعبد المبعوث قبل الباعث (موسى، عيسى، زرادشت، ماني) ـ أعطيت الأولوية للرسول على الرسالة، وبدلاً من الإلحاح على مصدرها الإلهي صارت تنسب إليه تحت اسم: **الشريعة المحمدية**[٦]. من هنا تحديداً كان لا بد أن تتقدم **المعجزة النبوية** في الوعي الديني السائد، ولدى شعوب أعجمية اللسان، على **الواقعة القرآنية**، لأن المعجزة لا تحتاج إلى «قراءة»، على عكس الواقعة القرآنية التي تربط نفسها ربطاً ماهوياً، ومن خلال الاسم الذي اختاره القرآن لنفسه، بفعل القراءة[٧].

ولكن إسلام الفتوحات لم يصطدم فقط بتحدي اللغة، بل كذلك بتحدي الأديان التي كانت منتشرة من قبله في البلدان المفتوحة، ولا سيما منها المسيحية، الديانة الغالبة على الشام الأموية وعلى العراق العباسي. والحال أن

---

(٦) لسنا ندري على وجه الضبط متى نُحت هذا المفهوم ـ ذو الحمولة الدلالية الكبيرة ـ ومَنْ أول من نحته، ولكن أقدم نص أتيح لنا أن نستقرئه فيه هو **البرهان في أصول الفقه** للباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ.

(٧) يلاحظ فتحي بن سلامة بحق، في كتيِّبه **تخييل الأصول** (تعريب شكري المبخوت، دار الجنوب، تونس ١٩٩٥، ص ١٧)، أنه «ليس من باب المفارقة أن تبدأ شريعة الإسلام بالأمر «إقرأ» وأن يريد الإسلام أن يجعل الإنسان المسلم قارئاً قبل كل شيء. فالقراءة إذن أساس الشريعة ومبدأ استبطانها الديني». ولكننا نختلف معه مع ذلك في معنى «القراءة». فالقرآن، قبل أن يكون نصاً، كان خطاباً، أو بتعبير أدق وحياً متلواً. و«إقرأ» القرآنية تعني حصراً «اتلُ». ولكن حتى إذا أخذنا القراءة بكلا معنييها، تلاوة الخطاب أو قراءة النص، فإنها تبقى مشروطة في الواقعة القرآنية بعروبة اللسان. وتلك هي المفارقة الكبرى التي سيواجهها إسلام الفتوحات والتي لن يتغلب عليها إلا مع مرور القرون واستكمال عملية الاستعراب.

المعجزة مقولة تأسيسية في الواقعة الإنجيلية، على عكس ما عليه الشأن في الواقعة القرآنية.

وعدا حاجز اللغة، فإن نصارى الشام والعراق ما كان لهم أن يستوعبوا، من خلال بنيتهم الذهنية بالذات، ديناً أو نبياً بلا معجزة. ونحن نملك على ذلك مؤشرات ليس فقط في النصوص اليونانية والسريانية التي وصلتنا من التراث المسيحي المزامن لعصر الفتوحات، بل كذلك في النصوص العربية والمسيحية المرتبطة بأدب السجال والمنافحة في الحقبة التاريخية التي كان فيها باب المناظرات اللاهوتية لا يزال مفتوحاً، وعلى الأخص في عهد المأمون والمعتصم. ونخصّ بالذكر هنا نص النسطوري عمار البصري الذي بنى مقدمة دفاعه عن المسيحية في **كتاب البرهان** على فكرة أن الدين الحق لا تقوم عليه الحجة إلا «بآيات ليس في قوى البشر فعل مثلها». والحال أن الإسلام، بعكس المسيحية، تنقصه حجة الآيات تلك، وهذا بدليل كتابه بالذات، أي القرآن. وصحيح أن عمار البصري يتحاشى تسميته بالاسم لأسباب يمكن فهمها، ولكنه لا يتردد في أن يذكّر محاوره المسلم المفترض بأن الكتاب المجتمع عليه ينفي الآيات ويذكر أن الذي ادُّعيت له سئل أن يفعلها كما فعلها من كان من الأنبياء قبله، فلم يفعلها في قوله: «وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون»، وقوله: «وأقسموا جهد أيمانهم إن يروا آية يؤمنوا، قل ما عساهم أنها إذا جاءت ألا يؤمنوا»[٨].

ولكن بالإضافة إلى نصّ عمار البصري ونصوص مسيحيين عرب آخرين من أمثال حنين بن اسحق، فإن ما يستوقفنا هنا بوجه خاص هو نص عربي إسلامي خلّفه لنا مؤلف ذو حساسية خاصة فيما يتعلق بالنصاب البرهاني للمعجزات بالنظر إلى أنه كان نصرانياً قبل أن يعتنق الإسلام، وهو علي بن

(٨) عمار البصري، **كتاب البرهان وكتاب المسائل والأجوبة**، دار المشرق، بيروت ١٩٧٧، ص ٣١. والآية كما وردت في المصحف المجمع عليه اليوم: «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون».

ربَّن الطبري المتوفى تقديرياً في منتصف القرن الثالث للهجرة. ففي كتابه **الدين والدولة** يفرد باباً «في الرد على مَن ذكر أن المهاجرين والأنصار دخلوا في الدين من غير آية». والحال أن المستهدف بهذا الرد ليس أحداً آخر سوى عم ابن ربن نفسه، ويدعى أبو زكار يحيى بن النعمان، و «كان مشهوراً بالجدل» و «معروفاً في أفق العراق وخراسان». وكان نصرانياً، وقد ألف كتاباً في الرد على أهل الأديان قال فيه ـ كما ينقل عنه ابن ربَّن ـ «إنه بحث عن الأسباب التي دخل فيها عدة من المهاجرين والسابقين الأولين، ومن دخل معهم في الإسلام من الرجال والنساء، فلم يجد أحداً دخل فيه لآية رآها». ويعترف هنا ابن ربن قائلاً: «فكانت هذه عندي حجة قوية جداً، ما زلتُ مغتراً بها، عميّاً عنها، حتى إذا انسلختُ من دينه، رأيت الجواب عنها سهلاً والمخرج فسيحاً»[٩]. وواضح من هذا النص أن نصارى العراق وخراسان كانوا يرون أن نقطة الضعف الأولى في الإسلام غياب المعجزة، مستندين في ذلك ـ ضمنياً ـ إلى أن معجزات المسيح، التي تفيض الأناجيل في الكلام عنها، كانت هي دافع المسيحيين الأوائل إلى الاهتداء، على عكس السابقين الأولين من المسلمين الذين دخلوا في دين محمد من دون دليل من آية أو معجزة. وهذه الملاحظة لا تبعد بحدّ ذاتها عن الصحة التاريخية ـ وذلك بقدر ما رأينا أن النص القرآني نفسه لا يبيح للرسول اللجوء إلى برهان المعجزة ـ ولكنها لا تأخذ بعين الاعتبار بالمقابل أن هذا النص نفسه ناب، بما هو كذلك، مناب المعجزة، وأن سحره البياني ـ أو ما سيسمى لاحقاً بالإعجاز القرآني ـ كان هو الدافع إلى اهتداء العديدين من السابقين إلى الدين الجديد. وأياً يكن من أمر، وإذا صدقنا أن ابن ربّن كتب كتابه بناء على طلب من الخليفة المتوكل، أو حتى بمعاونة منه كما جاء في ديباجة الكتاب، فلنا أن نلاحظ أن مؤسسة الخلافة ـ التي باتت مؤسسة تمثيلية لأهل السنّة في عهد

(٩) علي بن ربن الطبري، **الدين والدولة**، مصدر آنف الذكر، ص ١٩٠-١٩١.

المتوكل الذي نفّذ انقلاباً ثقافياً حقيقياً برده الاعتبار إلى أحمد بن حنبل وبإحلاله أهل الحديث محل المعتزلة كطبقة مثقفة سائدة ـ وجدت نفسها أمام طلب إيديولوجي ملحّ لا بد من تلبيته: إعادة تأسيس الإسلام كديانة معجزات ونبوءات مثله مثل اليهودية والمسيحية من قبله. وهذه المهمة أو شيء منها على الأقل هي التي أخذها على عاتقه ـ بتكليف رسمي من المتوكل ـ ابن ربن الذي كان، بحكم نصرانيته السابقة، مؤهلاً أكثر من غيره لإعادة رسم صورة الرسول صاحب الرسالة بحيث تتطابق مع الصورة «الكلاسيكية» للأنبياء الذي تقدموه من حيث هم أصحاب معجزات ونبوءات. وعلى هذا النحو أفرد فصلاً رئيسياً من كتابه لـ «آيات النبي التي ردّها وجحدها أهل الكتاب» ـ وقد عدد في هذا الفصل نحواً من ثلاثين آية ومعجزة ـ وفصلاً آخر لنبوءات النبي عن «أمور غائبة تمت في أيامه»، وفصلاً ثالثاً لـ «نبوءات النبي التي تمت بعد وفاته»، وختمه بفصل عن «نبوءات الأنبياء على النبي»، وفي عدادهم أشعيا وميخا وحبقوق وصفنيا وزكريا وإرميا وحزقيال ودانيال والمسيح. وواضح من هذا التعداد ومن عناوين تلك الفصول أن خطاب مؤلف **الدين والدولة في إثبات نبوة محمد** إنما هو موجه إلى «بني عمه» من «عقلاء أهل الذمة» (ص ٢٠٩). فهؤلاء الذين كانوا لا يزالون يشكلون غالبية سكانية، إن لم يكن في مدن الشام والعراق فبكل تأكيد في أريافهما، ما كانوا ليرتضوا برهاناً آخر على النبوة سوى المعجزة. وما كانت معجزة القرآن بحد ذاتها بمقنعة لهم، أولاً لعجمة لسانهم، وثانياً، وكما كان يقول عم ابن ربن النصراني ـ الذي «كان من علماء القوم وبلغائهم» ـ لأن «البلاغات ليست من آيات النبوة لأنها مشتركة في الأمم كلها» (ص ٩٨)، وثالثاً لأن القرآن نفسه صامت صمتاً ملحوظاً بصدد معجزات محمد إذ «لو كان للنبي آية لذكرت فيه كما ذكرت في التوراة والإنجيل آيات موسى وعيسى»[(١٠)] (ص ١٦٥).

(١٠) الواقع أن هناك معجزة واحدة لا يصمت عنها القرآن، وهي النصر اللامتوقع الذي تحقق للمسلمين في وقعة بدر بتدخل مباشر من قبل ﴿ألف من الملائكة مردفين﴾ (الأنفال/ ٩)، =

وإنما منظور هذه التركيبة السكانية لبلدان الفتوحات نستطيع أن نفهم التحول الانقلابي في الإسلام من **لاهوت الرسالة** إلى **لاهوت المعجزة**، مع كل ما ترتب على هذا من تحول أيضاً من تشغيل نسبي للعقل بصدد «المعجزة العقلية» التي جسَّدها القرآن إلى شلل مطلق للعقل في قبالة المعجزات الحسية التي ستنسب إلى الرسول بالمئات، بل بالآلاف[١١].

هذا فيما يتعلّق بالإسلام السني. أما فيما يتعلّق بالإسلام الشيعي فقد خضع فيه تمخض لاهوت المعجزة ثم تضخّمه لمنطق مغاير. فهذا الإسلام أعطى من البداية الأولوية للإمامة[١٢] ـ التي بدأت سياسية خالصة قبل أن تتحول إلى إمامة دينية وروحية. ثم لم يلبث، إزاء الإشكالات والشكوك التي أحاطت بالإمامة، أن جعل من المعجزة برهانها، تماماً كما جعل منها الإسلام

= أمدهم بهم اللّه لمّا استغاثوا به. ولكن هذه المعجزة لم توضع في يد النبي إلا لتسحب منه إلى يد اللّه، وهذا بنص القرآن بالذات: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن اللّه رمى﴾ (الأنفال/ ١٧). وعلى أي حال وجد بين المعتزلة من رفض التفسير بالمعجزة لنصر المسلمين في وقعة بدر، كما أن «متزندقاً» مثل ابن الريوندي اعتمد لغة العقلانية التهكمية فقال: «من هؤلاء الملائكة الذين أنزلهم الله يوم بدر لنصرة نبيّه؟ إنهم كانوا مفلولي الشوكة قليلي البطش، فإنهم على كثرتهم واجتماع أيديهم وأيدي المسلمين معهم، لم يقتلوا أكثرمن سبعين رجلاً! وأين كانت الملائكة يوم أحد حين توارى النبي بين القتلى ولم ينصره أحد؟ (إبراهيم بيومي: **في الفلسفة الإسلامية**، ص٨٣، نقلاً عن سيد القمني: **حروب دولة الرسول**، في **الإسلاميات**، ج٣، ص٢١١).

(١١) ما دمنا نتحدث عن التركيبة السكانية للبلدان المفتوحة وبنيتها الذهنية لا بدّ أن نذكر أنه بالإضافة إلى المأثور النبوي التوحيدي كانت هناك أيضاً مأثورات سحرية جلبتها معها العناصر السكانية التي لم يكن التوحيد النبوي من تقاليدها الدينية مثل الديالمة والسلاجقة، فضلاً عن الرقيق والإماء الذين جُلبوا بالملايين وكانت ديانتهم الأصلية سحرية أكثر منها نبوية. ولا شك أن هذه البنية العقلية السحرية كان لها أثر كبير في الطابع السحري الذي تجلببت به كثرة من المعجزات المنسوبة في الإسلام إلى الرسول والأئمة.

(١٢) يروي الكليني على لسان الإمام الباقر قوله: «بُني الإسلام على خمس: الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية، ولم يُناد بشيء كما نودي بالولاية»، وفي إضافة: «والولاية أفضل لأنها مفتاحهن» (الكافي، ج ٢، ص ١٨).

السني المتأخر برهان النبوة. وبرهان الإمامة المعجزي هذا كان مطلوباً مداورته ليس فقط في مجرى الصراع «الخارجي» مع الإسلام السني المستأثر بالخلافة، بل كذلك في مجرى الصراع «الداخلي» في صفوف الإسلام الشيعي نفسه، وما استتبع هذا الصراع من انشقاقات وتفرعات وتوقفات في سلسلات الإمامة. ولكن هذا لا يعني أن الإسلام الشيعي بقي في منجى من تأثير التركيبة السكانية للبلدان المفتوحة. فلئن يكن الأئمة الأوائل قد عاشوا في المدينة أو بقوا مرتبطين بها بشكل أو بآخر، فإن الأئمة الأواخر قد عاشوا أيضاً أو مورست الدعوة بأسمائهم في البلدان المفتوحة(١٣). وعلى أي حال فإن المدينة نفسها مثّلت نقطة اتصال كبرى بالبلدان المفتوحة من خلال ما جلب إليها من عشرات الألوف من الأرقاء والسبايا. وعلى هذا النحو كان الأئمة الستة الأواخر جميعهم «أولاد أمهات». فموسى الكاظم كان ابن جارية بربرية تدعى حميدة، وعلي الرضا كان ابن جارية نوبية تدعى تكتم، ومحمد الجواد التقي كان ابن جارية مغربية أو نوبية تدعى سبيكة أو الخيزران، وكان علي الهادي النقي ابن جارية مولدة تدعى سمانة، وكان الحسن الزكي ابن جارية مغربية تدعى حديث أو غزالة، وأخيراً كانت أم محمد المهدي، صاحب الزمان، جارية بيزنطية تدعى نرجس. ونظراً إلى اشتداد قبضة القمع منذ الانقلاب المتوكلي، وتحاشياً للاعتقال وللتصفية الجسدية، صارت ولادة الأئمة الوارثين تُكتم(١٤). وهذا ما أثار شبهة هوية ما كان من سبيل إلى حسمها إلا بشهادة المعجزات،

---

(١٣) مثالهم هو الإمام العاشر علي الهادي الذي عاش في المدينة العشرين سنة الأولى من حياته قبل أن يأمر المتوكل، وقد بلغه أنه بدأ يدعو لنفسه في الحرمين، بنقله إلى سامراء حيث ستفرض عليه الإقامة الجبرية في قلعتها عشرين سنة إلى حين وفاته مسموماً كما يقال.

(١٤) بلغ من حرص الخليفة العباسي المعتمد على استئصال شأفة الإمامة أنه لما مات الإمام الحادي عشر، الحسن الزكي ـ مسموماً بأمره على ما تؤكد المصادر الشيعية ـ أرسل شهوداً من القضاة ومن الكتاب، وحتى من أعيان الشيعة، ليتثبتوا من أنه ليس له وريث ومن أن أياً من نسائه ليست بحامل.

وربما منذ لحظة مولد الإمام الوريث. يصدق ذلك بوجه خاص على آخر الأئمة. فقد اضطر أبوه، الحسن العسكري، إلى كتمان مولده إنقاذاً له من تصميم الخليفة المعتمد على قتله(١٥). ولكن هذا الكتمان عينه هو ما استوجب إحاطة مولده، على سبيل توثيق الهوية، بعدة معجزات، في الوقت نفسه الذي جرى فيه تحريم النطق باسمه. وفي كل ذلك يروي مصنف **الهداية الكبرى** أن أمه نرجس ولدته من دون أن تحمل به. وقد علل أبوه ذلك بالقول: «إنا معاشر الأوصياء لا نحمل في البطون وإنما نحمل في الجيوب، ولا نخرج من الأرحام وإنما نخرج من الفخذ الأيمن من أمهاتنا، لأننا نور اللّه الذي لا تناله الدناسات»(١٦) (ص ٣٥٥). وعندما ولد محمد المهدي على هذا النحو المعجز ولد أيضاً، بشهادة عمته، و «هو ساجد، وعلى ذراعه الأيمن مكتوب: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً». وتماماً كما في معجزة مولد جده الأول النبي محمد (الذي سمّي على كل حال باسمه: أبي القاسم محمد) فقد ولد «مفروغاً منه مطهر الختانة»؛ ومثله أيضاً فقد نطق ساعة مولده وقال: «أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمداً رسول اللّه وأن علياً أمير المؤمنين»، ثم «لم يزل يعدّ السادة الأوصياء إلى أن بلغ إلى نفسه» (**نوادر المعجزات**، ص ١٢٨ ـ ١٢٩).

يبقى أن نقول إن أدبيات المعجزات لم تتمخض ولم تتضخم في الإسلام الشيعي إلا في زمن متأخر نسبياً، وبعد نحو قرن من بداية تطورها في الإسلام السني. ففي النصوص التأسيسية المبكرة، مثل **نهج البلاغة** المنسوب إلى

---

(١٥) وربما أيضاً حماية له من أطماع شقيقه جعفر، إذ كان هذا الأخير قد استغل غيبة أخيه في السجن، ليدعو لنفسه بالإمامة. وإلى هذا الإمام الأخير ـ الذي تلقبه الاثنا عشرية بـ «الكاذب» ـ تنتمي فرقة من الشيعة تعرف باسم «النصيريين».

(١٦) لا يغيب عنا أن هذا الضرب من الحمل والولادة يجد نموذجه الأول في عقيدة الحبل بلا دنس في المسيحية، وربما أيضاً في البوذية إذ إن بوذا حبلت به أمه من شعاع زهرة اللوتس المقدسة كما حبلت مريم بعيسى من الروح القدس.

الإمام الأول أو **الصحيفة السجادية** المنسوبة إلى الإمام، لا يرد ذكر لمفهوم المعجزة(١٧).

بل إننا نحوز نصين يعودان ـ أو ينسبان ـ إلى الإمام السابع أبي الحسن موسى الكاظم (١٢٨ ـ ١٨٣هـ) ينطويان على نفي ـ ضمني على الأقل ـ لإمكانية المعجزة بشرياً، حتى لو كان هذا البشر نبياً أو إماماً. ففي نص أول أنه قال: «لما قبض إبراهيم ابن رسول اللّه (ص) انكسفت الشمس، فقال الناس: انكسفت الشمس لفقد ابن رسول اللّه، فصعد رسول اللّه (ص) المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللّه تجريان بأمره، مطيعان له، لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته»(١٨). وعلاوة على امتناع خرق القوانين الكوسمولوجية هذا، فإن النص الثاني المنسوب إلى موسى الكاظم يتضمن نفياً لإمكانية خرق القوانين البيولوجية، وبالتالي لمعجزات الامّساخ وعدم الاحتراق بالنار وعدم الانجراح بالسيوف وعدم التسمم بالسموم التي تحفل بها أدبيات المعجزات الإمامية. فعندما سئل الإمام الكاظم عن دليل وجود اللّه أحال سائله «المتزندق» إلى **نظامية الكون وقانونية الجسم البشري**: «إني لما نظرت إلى جسدي ولم يمكّني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه وجرّ المنفعة إليه علمت أن لهذا البنيان بانياً، فأقررت به مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته وإنشاء

(١٧) مهدي مظفري: **السلطة الشيعية: النظرية والتطور** *Pouvoir Shî'ite: Théorie et Evolution*، منشورات لارماتان، باريس ١٩٩٨، ص ٢١٥.

(١٨) الكليني: **الكافي**، ج ٣، ص ٤٦٣. ولنلاحظ أن ابن كثير، في تفنيده المطول لآية رد النبي للشمس لصالح علي بن أبي طالب، لم يوظف هذا الحديث مع أنه كان بحد ذاته خير دحض لمزعم تلك الآية. ولكنه إذ امتنع عن توظيف هذه القولة النبوية ـ التي أوردها أصلاً مالك في **موطّأه** والبخاري في **صحيحه** بإسناد سني ـ فليس من قبيل السهو أو الجهل: فهي تتضمن إنكاراً صريحاً لأن يكون في قدرة النبي نفسه أن يخرق القوانين الكوسمولوجية أو أن تُخرق من أجله. وهذا الحدّ من القدرة النبوية هو ما كان يمتنع التسليم به من قبل مصنفي المعجزات.

السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المبينات، فعلمت أن لهذا مقدّراً ومُنْشِئاً»[١٩]. ونحن نعتقد على كل حال أن أدبيات المعجزات الإمامية لم تشرع بالتطور إلا بعد موت هذا الإمام السابع ـ مسموماً على الأرجح ـ بعد سبع سنوات من الاعتقال في سجني البصرة وبغداد بأمر من هارون الرشيد. فسياسة القمع والحبس والتسميم التي طاردت سلسلة الأئمة بدءاً منه أظهرت تناقضاً صارخاً بين كلية القدرة المعزوة إلى الأئمة اعتقادياً وبين محدودية قدرتهم الفعلية على مواجهة جلاديهم العباسيين. **وعندما تكون الثغرة كبيرة إلى هذا الحد بين الاعتقاد والواقع فإنه لا يمكن ردمها إلا بالمعجزة ومنطق المعجزة.**

ولكن إذا كان مثل هذا التخريج التاريخي يساعدنا على فهم تطور ظاهرة أدبيات المعجزة في المأثور السني والشيعي المتأخر، فإنه يضعنا وجهاً لوجه بالمقابل أمام خلل خطير في وظيفة المعجزة بما هي كذلك. فالدور الغائي الموكل إلى المعجزة هو البرهان ـ حيث يتعذر البرهان العقلي أو الحسي ـ على صحة النبوة. وعلى حد تعبير ابن رشد فإن المعجزة هي، بالتعريف الغائي، **دلالة على صدق قول النبي**[٢٠]. وإذا مدّدنا هذا التعريف ليشمل

(١٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٨ ـ ٧٩. وسنلاحظ هنا أن الإمام السابع، إذ يتكلم عن «آيات» ـ بدلاً من قوانين الطبيعة والكون ـ فإنما يعبر عن انتمائه إلى الإبستمي الدينية للقرون الوسطى الإسلامية كما المسيحية. ولكن هذه «الآيات» تبقى في محصلة الحساب «إلهية» أي غير قابلة ـ مثلها مثل القوانين بلغة عصرنا ـ للاختراق أو للتبديل من قبل البشر حتى ولو كانوا أنبياء أو أوصياء أنبياء.

(٢٠) ابن رشد: **الضروري في أصول الفقه**، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٤، ص ٦٦. ولنلاحظ أن ابن رشد يؤكد هنا ـ رغم كل الدعوى الجابرية عن القطيعة المعرفية التي أنجزها ـ انتماءه إلى الابستمي الدينية لعصره. فهو يستعير اللغة البرهانية الأرسطية ليرفع دلالة المعجزة إلى مستوى بديهيات العقل، أي حسب تعبيره «المعارف الضرورية» التي لا يملك العقل إزاءها إلا أن يتوقف، قائلاً بالحرف الواحد: «إن التصديق بدعوى الشارع عند ظهور المعجزة وفق دعواه هو من جنس المعارف الضرورية». ولكن حتى لا ننكر على ابن رشد =

أدبيات المعجزات الإمامية قلنا إن المعجزة هي أيضاً دلالة على صدق قول الإمام. والحال أن أدبيات المعجزات، النبوية والإمامية، كما تطورت في المأثور السني والشيعي بعد المائة الثالثة، تشي بخلل خطير على صعيد وظيفة المعجزة بالمعنى الذي تحدث عنه ابن رشد. فإن تكن غائية المعجزة هي الدلالة على مصداقية القول النبوي ـ أو الإمامي ـ فإن الطابع التخييلي المشتط والمغالى فيه إلى حد الفجاجة لأدبيات المعجزات كما استعرضناها من شأنه أن يطعن في مصداقية المعجزة نفسها بقدر ما يجرِّدها من بعدها الميتافيزيقي ويلغي كل مسافة بينها وبين ألعاب الشعبذة والسحر والقَصَص الغرائبي. وهذه اللاقابلية المطلقة للتصديق من شأنها أن تنسحب من المعجزة بذاتها على النبوة أو الإمامة التي يُفترض أنها تقوم لها مقام الدلالة والبرهان. إذ كيف للمعجزة أن ترغم العقل على «التصديق بدعوى الشارع» في الوقت الذي تفتقر فيه هي نفسها لأية قابلية للتصديق؟ والواقع أن المعجزة هنا تأتي بعكس مفعولها.

فبدلاً من أن تشل العقل أو تجبره على الأقل على التوقف كما لو أمام عين البداهة، فإنها قد تستفزّه لكي يطبق منهج «تهافت التهافت» ـ الأثير لدى ابن رشد ـ ليس عليها وحدها، بل حتى على ما تسعى إلى فرضه على تصديقه باعتباره من «جنس المعارف الضرورية». بل أكثر من ذلك: فحين يُستسهل إتيان المعجزات ذلك الاستسهال المفرط، وحين تُتداول أخبارها كما تُتداول القصص وسحريات **ألف ليلة وليلة**، وحين يغدو خرق العادة أكثر تواتراً حتى من اطراد العادة، فإن المعجزة تكفّ عن أن تكون دليلاً على أي شيء، إلا على بطلانها هي نفسها. ذلك أنه - كما كان لاحظ الشاطبي قبل أكثر من ستة قرون - إذا كان «لا سبيل إلى الاعتراف بالنبوة إلا بواسطة المعجزة»، فإنه «لا

= نصابه النسبي من العقلانية فلنلاحظ أيضاً أنه ربط «التصديق» بوقت «ظهور المعجزة». والحال أن أدبيات المعجزات، النبوية والإمامية على السواء، لم ترَ النور عند ظهور المعجزات المفترضة، بل بعد فاصل زمني لا يقل عن قرنين وقد يتطاول تراكمياً إلى عشرة قرون كما في مثال معجزات **السيرة الحلبية** أو **مدينة المعاجز**.

معنى للمعجزة إلا بعد تقرير اطّراد العادة»[٢١]. والحال أنه إذا كان خرق العادة هو المطّرد، فعندئذ لا يعود للمعجزة من معنى، وتخسر تمام وظيفتها كواسطة لإثبات النبوة وللإلزام بالاعتراف بها.

وعلى أي حال، ليس لنا أن نختم بدون أن ننوه بسمتين خصوصيتين قد ميّزتا تمخض أدبيات المعجزة وتضخمها في الإسلامين السني والشيعي. فقد سبق للاأدري الجذري الذي كانه جورج برنارد شو أن عرَّف المعجزة بأنها **حدث يخلق الإيمان**. وقد جاء تعريفه هذا في تقديمه لمسرحيته عن جان دارك التي تحتل مكانها ـ وإن أنكر عليها هو نفسه صفة القداسة ـ في لائحة طويلة من قديسي الكنيسة وشهدائها الذين كانت «المعجزة»، أو ما يتصورونه أنه «المعجزة»، هي وراء اهتدائهم إلى المسيحية أو استشهادهم في سبيلها؛ تماماً كما أن «المعجزة» كانت أحد المعايير الأساسية التي اعتمدتها الكنيسة في تطويبهم قديسين عندما يكونون هم أنفسهم صنّاعها، أو منسوبة إليهم بتعبير أدق. وهكذا كانت المعجزة ـ وتبقى ـ رفيق درب دائماً للمسيحية منذ تأسيسها إلى اليوم، وبدونه تفقد المسيحية الركن الأول في وجودها وفي عقيدتها الإيمانية. والحال أن العكس هو ما ينطبق بالأحرى على المعجزة في الإسلام. **فليست المعجزة في حاله هي التي خلقت الإيمان، بل يمكن القول على العكس إن الإيمان هو الذي خلق المعجزة**. فأدبيات المعجزات لم تنشأ وتتطور إلا بعد أن أسلم ليس فقط أهل الصدر الأول والثاني، بل كذلك أجيال متتالية من سكان البلدان المفتوحة. ولكن ليس بهذه السمة وحدها يفترق تاريخ المعجزة في الإسلام عنه في المسيحية. فعلاوة على خصوصية لحظة التمخض هذه لأدبيات المعجزة في الإسلام، فإن مسارها

---

(٢١) الشاطبي: **الموافقات**، دار إحياء الكتب العربية، طبعة مصوّرة عن طبعة البابي الحلبي، ج ٢، ص ١٩٥.

التضخمي يمثل خصوصية ثانية. فالحضور المركزي للمعجزة في الأناجيل وأعمال الرسل قد حال دون انفلات الخيال من عقاله ودون اختلاق معجزات لم يرد لها ذكر في هذه النصوص التأسيسية[٢٢]. وبالمقابل، إن الغياب التام للمعجزات النبوية في النص القرآني ـ وللمعجزات الإمامية في النصوص التأسيسية الأولى ـ قد أطلق العنان للأدبيات المعجزية اللاحقة لتتخيل ولتفرط في التخيل. وهكذا لا تكون المعجزة في الإسلام قد انعتقت ـ مثلها مثل المعجزة في أية ديانة أخرى ـ من أسر الواقع وحده، بل كذلك من أسر النص. وهذا ما أطلق العنان في الإسلام المتأخر لظاهرة ارتداد تضخمية نحو النصوص التأسيسية لتحميلها بشحنات متضاعفة من أدبيات «خرق العادة» لم تعرف المسيحية نظيرها مع أنها في الأساس ـ وبعكس حال الإسلام ـ ديانة معجزات. ولكن هذا أيضاً ما يتيح إمكانية اتخاذ موقف نقدي من أدبيات المعجزة في الإسلام لا يمكن اتخاذ نظيره من أدبياتها في المسيحية. فنقد المعجزة ومنطق المعجزة يمثل في المحصلة الختامية نقداً للأساس المقوِّم للمسيحية بذاتها. أما في الإسلام فإن مثل هذا النقد لا يمسّه في جوهره التأسيسي، بل فقط في مساره التاريخي. وبالتالي قد يكون ليس لطالحه، بل لصالحه، وعلى الأخص لصالح العقلانية التي هو بأمسّ الحاجة إلى أن يعيد التفكير بموروثه على أساسها.

(٢٢) على الأقل فيما يخصّ المسيح وحوارييه. وبالمقابل، وحيث لم يفرض قيد النصّ نفسه، أثبت المخيال المسيحي هو أيضاً، وربما أكثر من أي مخيال ديني آخر، قدرته على الجموح من خلال لائحة المعجزات اللامتناهية الطول التي نسبت إلى الشهداء والقديسين اللاحقين.

خاتمة

ثورة كوبرنيكية؟

لعلنا لا نغالي إذا قلنا إن اتخاذ موقف عقلاني ونقدي جذري من أدبيات المعجزة ومنطق المعجزة يكاد يعادل انقلاباً كوبرنيكياً. وبالفعل، ساهمت هذه الأدبيات، بالمنطق المباطن لها، في إذاعة الوهم في الثقافة العربية الإسلامية الموروثة بإمكانية سيطرة سحرية على الطبيعة والكون والتحكم بقواهما من دون حاجة إلى معرفة قوانينهما، بله بتحدي هذه القوانين والقفز فوقها. من هنا فإن الثقافة العربية الإسلامية لم تساورها الحاجة قط إلى **معرفة علمية** لقوانين الطبيعة والكون، ولم تجد نفسها بالتالي مدفوعة إلى اجتراح **ثورة كوبرنيكية** كتلك التي أعطت شرارة الانطلاق للحداثة الأوروبية بتحويلها بؤرة اهتمامها المعرفي من **عالم الكتاب** إلى **كتاب العالم**، وبقلبها اتجاه مسارها **من العقل الديني** إلى **العقل العلمي**. وبديهي أن ثورة كوبرنيكية بالمعنى العلمي المحض لم تعد اليوم ذات موضوع منذ أن اجترحت في مطلع القرن السادس عشر الميلادي ومنذ أن راحت تتمخض، مع التقدم المتواصل للعلم وللمعرفة العلمية، عن ثورات صغرى متواصلة داخل الثورة الكوبرنيكية الكبرى. ولكن سبق الحداثة الأوروبية إلى اجتراح الثورة الكوبرنيكية، وكون مفهوم الثورة بالذات لم يعد له أكثر من مدلول إجرائي منذ أن غدا العلم العالمي في حالة تثوير دائم، لا يعني أن الثورة الكوبرنيكية لم تعد مطروحة على جدول الأعمال التاريخي للثقافات التراثية الأخرى، وفي مقدمتها الثقافة العربية الإسلامية. كل ما هنالك أن طبيعة الثورة المطلوب إنجازها قد تغيرت. فهي

ثورة في داخل الثقافة نفسها وداخل عالم كتابها. **ثورة عقلية أكثر مما هي محض ثورة علمية**. ثورة هي على النقيض من تلك التي دعا إليها ماركس عندما قال إن الفلاسفة لم يفعلوا غير أن يفسروا العالم، وإن المطلوب من الآن فصاعداً تغييره. ففي عالم تحكمه ثقافة تراثية، كما هو حال عالم الثقافة العربية الإسلامية، **ليس ثمة من سبيل إلى تغيير العالم ما لم يتم أولاً تغيير تفسيره**.

وفي زماننا المعاصر، حيث يبدو العالم العربي ـ والإسلامي بشكل أعم ـ مهدداً بالارتداد نحو قرون وسطى جديدة، فإن ثورة كوبرنيكية على صعيد العقل، وعلى صعيد عالم العقل الذي هو التراث والتأويل الموروث للتراث، هي شرط شارط لاستئناف عملية الإقلاع نحو الحداثة التي كان لاح بارقها مع **عصر النهضة** قبل أن يخمد في ما لم نتردد بأن نسمّيه **عصر الردة**[١].

---

(١) في كتابنا: **من النهضة إلى الردّة**، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٠. ولنلاحظ أنه في زمن الردة هذا تعاظمت الدعوة في الساحة العربية الإسلامية، لا إلى اجتراح ثورة كوبرنيكية مستأنفة، بل إلى إنكارها وإنكار ضرورتها أصلاً. وفي هذا السياق الإنكاري رأت النور وتطورت- بل تضخمت- نظرية الإعجاز العلمي للقرآن وشرعت تشغل ملء المساحة التي كانت تشغلها في الأزمنة اللاهوتية، حسب تقسيم أوغست كونت الشهير لمراحل التاريخ البشري، نظرية الإعجاز البياني للقرآن. ومع أن هذه النظرية الطارئة تدّعي الانتماء الى الحداثة العلمية أو تريد الردّ على تحديها، فإن ما يغيب عن دعاتها ومروّجيها في الحقل التداولي للايديولوجيا الإسلاموية المنداحة موجتها اليوم هو أن الحداثة العلمية قامت تحديداً على فصل العلم عن الدين والإقرار له بالسؤدد التام في حقله. والحال أن دعاة الإعجاز العلمي للقرآن إنما يحاولون العكس تماماً من خلال ربط العلم بالدين واستتباعه له. هذا في حال التسليم بمنجزاته. أما في حال عدم التسليم بها، فإن نظرية الإعجاز العلمي للقرآن قد تقود، لا الى ادعاء الانتصار المنافق للحداثة، بل على العكس الى شكل متطرف وفصامي من القدامة كما في مثال الشيخ عبد العزيز بن باز، المفتي السابق للديار السعودية، الذي كان أصدر في عام ١٩٨٢ كتاباً يحمل هذا العنوان الدالّ: **الأدلة النقلية والحسية على سكون الأرض**، وفيه أفتى بضلال من يقول «بدوران الأرض حول الشمس وجريان الشمس حول نفسها»، لأن هذه القول «مخالف للأدلة السمعية والحسية، ويفضي إلى تكذيب الرسل وعدم الثقة بأخبارهم»؛ وفضلاً عن أنه «مخالف للنصوص والمنقول. . . فإنه مخالف للمشاهد المحسوس ومكابرة للمعقول والواقع»، إذ «لو كانت الأرض تدور كما يزعمون لكانت البلدان والجبال والأشجار والأنهار والبحار لا قرار لها، ولشاهد الناس البلدان المغربية في =

وأدبيات المعجزة في الإسلام، كما استعرضناها مع القارئ، تقدم حقلاً تجريبياً خصباً لانقلاب معرفي وعقلي من طبيعة كوبرنيكية. ومع أن مثل هذا الانقلاب قد يبدو استفزازياً، بل منتهكاً للقدسيات، في نظر **سدنة هياكل الوهم**[٢]، القيِّمين اليوم على مصائر الثقافة العربية الإسلامية الموروثة، فإنه قابل لأن يبقى انقلاباً لا على التراث، بل من داخل التراث نفسه بقدر ما أن تلك الأدبيات تضع نفسها في موضع التعارض الجذري ـ كما تقدم البيان في أول فصول هذا الكتاب ـ مع النص القرآني. ومن هذا المنظور المحدد فإن الانقلاب الكوبرنيكي المنشود في الثقافة العربية الإسلامية يمكن أن يأخذ ـ ضمن جملة أشكال أخرى ـ شكل عودة إلى الإسلام القرآني دون ما عداه. واليوم، كما بالأمس البعيد[٣]، فإن القرآنيين الخلَّص يمكن أن يضطلعوا بدور ريادي في هذا الانقلاب.

وبكلمة أخرى، وبالإحالة إلى جدلية العقل المكوِّن والعقل المكوَّن كما صاغها أندريه لالاند في كتابه **العقل والمعايير**، يمكن القول إن الثورة الكوبرنيكية بالنسبة إلى العقل العربي المعاصر، المتوتر بين قطبي التراث والحداثة، قد تتمثل بثورة ذاتية ينتفض فيها العقل كما تكوَّن في التراث على نفسه ليعيد تأسيس ذاته في عقل مكوِّن جديد يستطيع معه، وبه، أن يكسب رهان الحداثة.

= المشرق، والمشرقية في المغرب، ولتغيّرت القبلة على الناس حتى لا قرار لها». وفي الوقت الذي لا يتردّد فيه ابن باز في مداورة سلاح التبديع والتكفير في مثل هذه القضايا الفلكية ينتهي إلى تأسيس العلم في تبعية مطلقة للشرع فيقول: «يجب أن يعرض المسلمون آراء الفلكيين على الكتاب والسنة في أمر الشمس والقمر وغيرهما، فما وافق الشرع من آرائهم قُبل، وما خالف رُدّ عليهم».

(٢) هذا التعبير هو في الأصل لمحمد عبده. ولكن عبد الرزاق عيد وفّق في إدخاله إلى الحقل التداولي للثقافة العربية المعاصرة عندما جعله عنواناً لكتابه عن **نقد العقل الفقهي**.

(٣) تتعدّد الإشارات لدى الشافعي وغيره إلى أنه قد وجد، في الصدر الأول، قرآنيون خلّص لم يقيَّض لمذهبهم البقاء.

رابطة العقلانيين العرب
من أجل ثقافة نقدية تنويرية علمانية

إصدارات الرابطة

١. **فلينزع الحجاب**، تأليف شاهدورت جاڤان، ترجمة فاطمة بلحسن. دار بترا، دمشق ٢٠٠٥.

٢. **المرض بالغرب: التحليل النفسي لعصاب جماعي عربي**، تأليف جورج طرابيشي. دار بترا، دمشق ٢٠٠٥.

٣. **ازدواجية العقل: دراسة تحليلية نفسية لكتابات حسن حنفي**، تأليف جورج طرابيشي. دار بترا، دمشق ٢٠٠٥.

٤. **فلسفة الأنوار**، تأليف ج. فولغين، ترجمة هنرييت عبودي. دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٥.

٥. **حرية الاعتقاد الديني**، إعداد وتصنيف محمد كامل الخطيب. دار بترا، دمشق ٢٠٠٥.

٦. **نقد الثوابت: آراء في العنف والتمييز والمصادرة**، تأليف رجاء بن سلامة. دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٥.

٧. **مواقف من أجل التنوير**، تأليف محمد الحداد. دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٥.

٨. **يوسف القرضاوي بين التسامح والإرهاب**، تأليف عبد الرزاق عيد. دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٥.

٩. **٢٣ عاماً: دراسة في الممارسة النبوية المحمدية**، تأليف علي الدشتي، ترجمة ثائر ديب. الطبعة الثانية، دار بترا، دمشق ٢٠٠٦.

١٠. **علم نفس الجماهير**: تأليف سيغموند فرويد، ترجمة وتعليق جورج طرابيشي. دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٦.

١١. **الإسلام: نزوات العنف واستراتيجيات الإصلاح**، تأليف محمد الحداد، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٦.

١٢ . **هرطقات ١ : عن الديموقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية**، تأليف جورج طرابيشي. دار الساقي، الطبعة الثانية، بيروت ٢٠٠٨ .

١٣ . **هرطقات ٢ : العلمانية كإشكالية إسلامية-إسلامية**، تأليف جورج طرابيشي. دار الساقي، بيروت ٢٠٠٨ .

١٤ . **العلمانية على محك الأصوليات اليهودية والمسيحية والإسلامية**، تأليف كارولين فوريست وفياميتا فينر، ترجمة غازي أبو عقل. دار بترا، دمشق ٢٠٠٦ .

١٥ . **عمانويل كانط: الدين في حدود العقل أو التنوير الناقص**، تأليف محمد المزوغي. دار الساقي، بيروت ٢٠٠٧ .

١٦ . **الانسداد التاريخي: لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي؟** تأليف هاشم صالح. دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٧ .

١٧ . **الحجاب**، تأليف جمال البنا. دار بترا، دمشق ٢٠٠٧ .

١٨ . **أسرار التوراة**، تأليف روجيه الصبّاح، ترجمة صالح بشير. دار بترا، دمشق ٢٠٠٧ .

١٩ . **مدخل إلى التنوير الأوروبي**، تأليف هاشم صالح. الطبعة الثانية، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٧ .

٢٠ . **هدم الهدم، إدارة الظهر للأب السياسي والثقافي والتراثي**، تأليف عبد الرزاق عيد. دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٧ .

٢١ . **معضلة الأصولية الإسلامية**، تأليف هاشم صالح. دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية ٢٠٠٨ .

٢٢ . **في نقد إنسان الجموع**، تأليف رجاء بن سلامة. دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٨ .

٢٣ . **إمامة المرأة**، تأليف جمال البنا. دار بترا، دمشق ٢٠٠٨ .

٢٤ . **الإسلام والحرية**، تأليف محمد الشرفي. دار بترا، دمشق ٢٠٠٨ .

٢٥ . **حفريات في الخطاب الخلدوني: الأصول السلفية ووهم الحداثة العربية**، تأليف ناجية الوريمّي بوعجيلة. دار بترا، دمشق ٢٠٠٨ .

٢٦ . **الإسلام معطَّلاً: العالم الإسلامي ومعضلة الفوات التاريخي**، تأليف فريدون هويدا، ترجمة حسين قبيسي. دار بترا، دمشق ٢٠٠٨ .

٢٧ . **امرأتنا في الشريعة والمجتمع**، تأليف الطاهر الحداد. دار بترا، دمشق ٢٠٠٨ .

٢٨. **موجز فكر التنوير**، تأليف د. عثمان أشقرا. دار بترا، دمشق ٢٠٠٨.

٢٩. **الحداثة وتحرير الإنسان**، مجموعة باحثين. دار بترا، دمشق ٢٠٠٨.

٣٠. **١٧٨٩: ثورات الحرية والمساواة**، تأليف روبرت بالمر، ترجمة هنرييت عبودي، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٨.

٣١. **تأسيس الإسلام: بين الكتابة والتاريخ**، تأليف ألفريد لويس دي بريمار، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٨.

٣٢. **المفكرون الأحرار في الإسلام**، تأليف دومينيك أورفوا، ترجمة جمال شحيد، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٨.

٣٣. **الإسلام والتحليل النفسي**، تأليف فتحي بن سلامة، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٨.

٣٤. **المدينة الإسلامية والأصولية والإرهاب**، تأليف عبد الصمد الديالمي، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٨.

٣٥. **المعجزة: أو سبات العقل في الإسلام**، تأليف جورج طرابيشي دار الساقي، بيروت ٢٠٠٨.

«الإسلام واحداً ومتعدداً»

سلسلة دراسات يشرف عليها د. عبد المجيد الشرفي

صدر منها إلى الآن عن دار الطليعة ببيروت:

٣٦. الإسلام الخارجي، تأليف ناجية الوريمّي بوعجيلة.

٣٧. **إسلام المتكلمين**، تأليف محمد بوهلال.

٣٨. **الإسلام السني**، تأليف بسام الجمل.

٣٩. **الإسلام الشعبي**، تأليف زهية جويرو.

٤٠. **الإسلام الحركي، بحث في أدبيات الأحزاب والحركات الإسلامية**، تأليف عبد الرحيم بوهاها.

٤١. **إسلام الفلاسفة**، تأليف منجي لسود.

٤٢. **الإسلام في المدينة**، تأليف بلقيس الرزيقي.

٤٣. **الإسلام «الأسود» جنوب الصّحراء الكبرى**، تأليف محمد شقرون.

٤٤ . **الإسلام الآسيوي**، تأليف آمال قرامي.

٤٥ . **إسلام الفقهاء**، تأليف نادر الحمامي.

٤٦ . **إسلام المتصوفة**، تأليف محمد بن الطيب.

٤٧ . **إسلام المجددين**، تأليف محمد حمزة.

٤٨ . **الإسلام العربي**، تأليف عبد الله خلايفي.

٤٩ . **إسلام عصور الانحطاط**، تأليف هالة الورتاني وعبد الباسط قمودي.

٥٠ . **إسلام الأكراد**، تأليف تهامي العبدولي.

٥١ . **إسلام الساسة**،تأليف سهام الدبابي الميساوي.

٥٢ . **إسلام عصور الانحطاط**، تأليف الورتاني/ القمودي.

إصدارات الرابطة تحت اسم
المؤسسة العربية للتحديث الفكري

٥٣ . **أعلام النبوة: الرد على الملحد أبي بكر الرازي**، تأليف أبو حاتم الرازي. دار الساقي، بيروت ٢٠٠٣.

٥٤ . **في الائتلاف والاختلاف - ثنائية السائد والمهمش في الفكر الإسلامي القديم**، تأليف ناجية الوريمي بوعجيلة. دار المدى، دمشق ٢٠٠٤.

٥٥ . **ما الثورة الدينية؟ الحضارات التقليدية في مواجهة الحداثة**، تأليف داريوش شايغان، ترجمة محمد الرحموني. دار الساقي، بيروت ٢٠٠٤.

٥٦ . **الحداثة والحداثة العربية**. دار بترا، دمشق ٢٠٠٤.

٥٧ . **النهضة وصراع البقاء**، تأليف إبراهيم بدران. المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٥.

٥٨ . **الحرب المقدسة: الجهاد، الحرب الصليبية - العنف والدين في المسيحية والإسلام**، تأليف جان فلوري، ترجمة غسان مايو. دار المدى، بيروت ٢٠٠٥.

٥٩ . **أسباب النزول**، تأليف بسام الجمل. المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٥.

٦٠ . **الإنسان نشوؤه وارتقاؤه**، تأليف جان شالين، ترجمة الصادق قسومة. دار بترا، دمشق ٢٠٠٥.

٦١. **الحديث النبوي ومكانته في الفكر الإسلامي الحديث**، تأليف محمد حمزة. المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٥.

٦٢. **السنّة: أصلاً من أصول الفقه**، تأليف حمادي ذويب. المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٥.

٦٣. **العلمانية**، تأليف غي هارشير، ترجمة رشا الصباغ. دار المدى، دمشق ٢٠٠٥.

٦٤. **الكنيسة والعلم: تاريخ الصراع بين العقل الديني والعقل العلمي**، الجزء ١، تأليف جورج مينوا، ترجمة موريس جلال. دار الأهالي، دمشق ٢٠٠٥.

٦٥. **محاكم التفتيش**، تأليف غي وجون تستاس، ترجمة ميساء السيوفي. دار الأهالي، دمشق ٢٠٠٥.

٦٦. **ما هي العلمانية؟**، تأليف هنري بينا-رويث، ترجمة ريم منصور الأطرش. دار الأهالي، دمشق ٢٠٠٥.

٦٧. **الفكر الحر**، تأليف أندريه ناتاف، ترجمة رندة بعث. دار المدى، دمشق ٢٠٠٥.

للاتصال برابطة العقلانيين العرب : arabrationalists@yahoo.fr

يسلّط هذا الكتاب الضوء على آليّة داخلية لاستقالة العقل في الإسلام، ولكنّه يبقي الباب مفتوحاً أمام إعادة قراءة قرآنية يمكن معها للإسلام أن يتصالح مع العصر ومع الروح العلمي الحديث.

ما ميّز الإسلام القرآني عن المسيحية الإنجيلية واليهودية التوراتية هو غياب المعجزة النبوية: فليس في القرآن من معجزة سوى القرآن نفسه بوصفه معجزة عقلية غير مادّية. ولكن في سياق المنافسة مع الديانتين التوحيديتين القائمتين على برهان المعجزة النبوية الحسّية، ومع الفتوحات التي أدخلت إلى الإسلام أمماً شتى غير ناطقة بالعربية، لم تعد المعجزة البيانية العقلية القرآنية كافية وحدها لتثبيت الإيمان. وهكذا نُسبت إلى الرسول معجزات مادّية راح يتضخّم عددها قرناً تلو القرن حتى قدّرها كتّاب السيرة المتأخّرون بثلاثة آلاف معجزة.

ومع هذا التحوّل المتأخّر للإسلام إلى دين معجزات، ومع تعميم الاعتقاد بإمكانيّة الخرق الذي لا ضابط له للقوانين الصغرى والكبرى للحياة والطبيعة والكون، دخل العقل في مرحلة سُبات، وغابت عن أفق الحضارة العربية الإسلامية إمكانيّة ثورة كوبرنيكية تنقلها من جمود القرون الوسطى إلى دينامية الحداثة وفتوحات العقل العلمي.

ISBN 978-1-85516-038-5
9 781855 160385 >

رابطة العقلانيين العرب

DAR AL SAQI
دار الساقي